الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثالث والستون . السنة السادسة . إبريل ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 63 - April 2004



ماذا يجرى فى المملكة / حسن أبوطالب

طارق البشرى / حول الدين والمعرفة

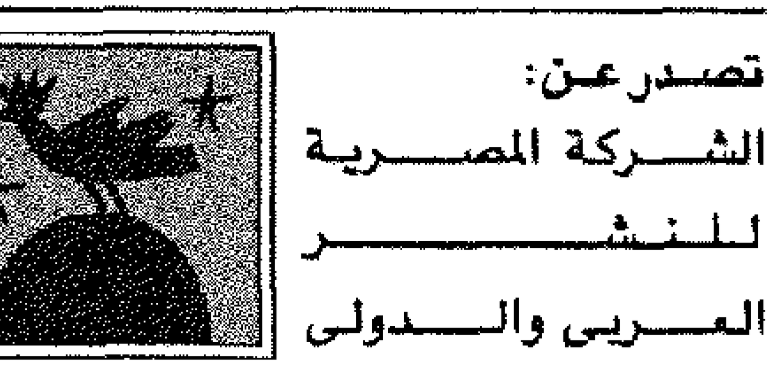
الإصلاح بين ديمقراطية الأوتوبيس والوجبات السريعة / سلامة أحمد سلامة

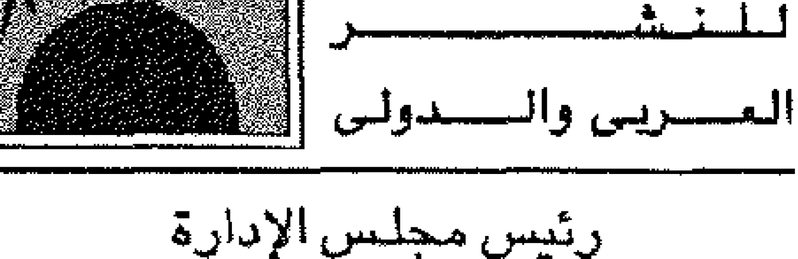
هيكل .. وكلام فى الحضارة والفن

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد





تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة السادسة
العدد الثالث والستون
أبريل ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
احمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إبراهيم العريس.. ناقد سينمائى من لبنان.
- أحمد فتحى سرور.. أستاذ القانون الجنائى ورئيس مجلس الشعب.
- إسماعيل صبرى عبد الله .. وزير التخطيط الأسبق ورئيس منتدى العالم الثالث.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- ج. م. كوتسى .. أديب من جنوب أفريقيا.
- حسن أبو طالب .. رئيس تحرير «التقرير الاستراتيجى العربى».
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- طارق البشرى .. كاتب ومؤرخ.
- قدرى حفنى.. أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس.
- محمد إبراهيم الدسوقى .. صحفى.
- محمد البهى عيسوى .. أستاذ الجيولوجيا بالجامعات المصرية.
- محمد السطوحى .. صحفى مصرى مقيم فى واشنطن.
- محمد عبد العاطى .. صحفى.
- محمد عزت عبد العزيز .. الرئيس الأسبق لهيئة الطاقة الذرية فى مصر.
- هديل غنيم .. صحفية.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى. سعد الدين شحاتة. أحمد اللباد





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهمًا - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

"نون"

سلامة أحمد سلامة

الإصلاح: بين ديمقراطية الأتوبيس والوجبات السريعة!

مثل كرة تقاذفتها الأرجل فى أشواط متتابعة دون أن تصيب الهدف، انطلقت كلمة «الإصلاح» فى سماء الأمة العربية طوال الشهور الأخيرة فى تقارير وندوات رسمية وشبه رسمية مثل صواريخ عابرة للقارات من أقصى الغرب إلى قلب الشرق.. لتتلقفها مقالات الصحف وبرامج التليفزيون، ثم تنتقل إلى الخطاب الرسمى على ألسنة المسئولين والحكام، لتظل سابحة فى أجواز الفضاء.. تخرج منها شرارات ملونة مثل الألعاب النارية، سرعان ما تنطفئ وتخمد قبل أن تصل إلى الأرض.

لم تكن مبادرات الإصلاح التى أطلقها الغرب ووصلت إلى المنطقة العربية. دون استئذان. جديدة فى حد ذاتها. فقد سبقتها إرهاصات ومؤشرات عديدة فى شكل مشروع باول لدمقرطة الشرق الأوسط قبل أكثر من عام، أعقبها مشروع للشراكة الأمريكية العربية أكثر تفصيلاً وأبعد غاية طرحه الرئيس بوش.. ثم مع اقتراب موسم انتخابات الرياسة الأمريكية، وانهيار الأوضاع فى الشرق الأوسط على جبهتى الصراع الرئيسيتين فى فلسطين وفى العراق، لمع مشروع «الشرق الأوسط الكبير» فجأة فى سماء المنطقة ليلفت الأنظار عن حقيقة الوضع البائس واليائس الذى وصل إليه على يدى السياسة الأمريكية. وجاء توقيت المبادرة الأمريكية للشرق الأوسط الكبير بعد عام من نهاية العمليات العسكرية لغزو العراق، استعداداً للانتقال إلى المرحلة الثانية التى تخرج فيها القوات الأمريكية من المدن إلى قواعد عسكرية خارجها تحت مسمى تسليم السلطة للشعب العراقى، وفى ظل انتصار معنوى قدمت فيه ليبيا الثورية الجماهيرية أوراق اعتمادها للعمل مع أو فى خدمة أمريكا، وعادت المياه إلى مجاريها بدرجة معقولة بين واشنطن وحلفائها فى أوروبا. وأصبح من السهل وضع سوريا وإيران بين المطرقة والسندان.



لا توجد فروق كبيرة فى الدوافع والأهداف بين هذه المبادرات، إلا أن الأخيرة تتسع لتشمل المنطقة كلها من كابول إلى نواكشوط. وتقوم على فكرة بسيطة إلى حد السذاجة يتبناها المحافظون الجدد، تذهب إلى أن تخلف المجتمعات العربية والإسلامية، اقتصادياً وسياسياً مع غياب الديمقراطية والحريات، وازدياد معدلات البطالة، ونقص المشاركة الشعبية وغياب المجتمع المدنى وضعف دور المرأة، كل ذلك أدى إلى إيجاد بيئة حاضنة للإرهاب مشجعة عليه، ومن ثم فلابد أن يشمل الإصلاح كافة جوانب الحياة فى هذه المجتمعات ليصبح جزءاً من حركة التقدم التى يشهدها العالم. ولا بأس أن يكون لأوروبا دور فى هذه المبادرات وأن يكون حلف الأطلنطى هو الذراع العسكرية لتحقيق الأمن فى الشرق الأوسط فى مواجهة الإرهاب أو فى حالات الطوارئ غير المتوقعة أو لدعم القوات الأمريكية فى مهامها الأمنية والعسكرية فى العراق.

من المسلم به أن عملية التغيير والإصلاح فى العالم العربى، سارت ببطء بالغ طوال نصف قرن. واتسمت ببروز نواقص محددة فى بنية المجتمعات العربية، ناقشتها تقارير التنمية الإنسانية التى صدرت عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى، وأثارت كثيراً من الجدل داخل العالم العربى وخارجه، وأوجزتها فى ثلاثة نواقص أساسية هى: الحرية، وتمكين المرأة، واكتساب القدرات المعرفية. وقد بات واضحاً رغم كل شىء بأن العجز الشديد فى بناء وتنمية القدرة العربية الذاتية فى هذه المجالات، أفضى مع غياب الحكم الصالح أو نتيجة له إلى قصور التنمية الإنسانية، وإضعاف القوة التفاوضية للبلدان العربية فى معترك إقليمى ودولى بالغ الشراسة يحيط بالمنطقة.

وبقدر ما عجزت الحكومات العربية عن الاستفادة من التشخيص الذى قدمته تقارير التنمية الإنسانية، وكان بمثابة جرس إنذار يدق عالياً ويصم الأسماع بما ورد فيه من أعراض لمرض عضال تستدعى التغيير وتنادى بالإصلاح العاجل والسريع، فإن القوى الخارجية وجدت فيه ضالتها لاستغلال ما ورد به من نواقص، لكى تبرر هجوم المبادرات الإصلاحية الذى أخذت تشنه بطريقة مدروسة ومحسوبة على الجبهات الدبلوماسية والإعلامية والسياسية لأهداف غير مبرأة. وتحث الحكومات العربية على تبنى مشروعات إصلاحية جاهزة أو شبه جاهزة لتطبيقها فى مجتمعاتها: سواء فى مجال التعليم، وتمكين المرأة، وحقوق الإنسان وإدخال إصلاحات تشريعية فى المجالات الاجتماعية، والنهوض بالأوضاع الديمقراطية والحريات المدنية، بينما فى المقابل جاءت ردود الفعل العربية اعتذارية، تبريرية، مراوغة.. تربط بطريقة تعسفية بين تسوية الصراع العربى الإسرائيلى وجهود الإصلاح الداخلى.

وقد كان لهذه المحاولة الأمريكية الأوروبية سابقة قريبة فى التاريخ، وهى ما سمى بنموذج هلسنكى عندما سعت الدول الغربية فى السبعينيات عن طريق سلسلة من المبادرات إلى تحقيق إصلاحات من الداخل فى دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى، وتطورت هذه المحاولات إلى ما عرف بعدها باتفاقية الأمن والتعاون الأوروبى. وقامت الفكرة أساساً على أن تبذل أوروبا الغربية والولايات المتحدة محاولات متعددة لاختراق النظم الشيوعية فى المعسكر الشرقى وإغرائها على التمرد على سلطة الكرملين، ودعم القوى السياسية المعارضة، وتأهيلها لتولى السلطة فى اللحظة المناسبة، وإقامة نظام للأمن يكفل السلام والأمن فى أوروبا.

غير أن الأوضاع فى المنطقة العربية تختلف اختلافاً جذرياً عما كان عليه الوضع فى أوروبا الشرقية قبل سقوط الشيوعية. فقد قامت فى هذه الدول هياكل سياسية واقتصادية وتنظيمات حزبية، ودرجة متقدمة من المؤسسات الثقافية والتعليمية والفنية، أسبغ عليها النظام الماركسى عباءته، وما إن سقط النظام وتمزقت عباءة الماركسية حتى وجدت هذه المجتمعات نفسها تقترب بسهولة من النظم الغربية المستقرة، بل وتسعى إلى الاندماج فى مؤسساتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية وتستوعب نظمها الديمقراطية.



ومع ذلك فلم يكن التحول الديمقراطى فيها بالأمر اليسير فى معظمها. ومازال بعضها يتعثر صعوداً وهبوطاً فى تجاربه مسنوداً بحائط صلب من المساعدات الأوروبية والأمريكية التى تمنعه فى إطار نظام الأمن والتعاون الأوروبى من السقوط. وتحكى أدبيات هذه المرحلة أثناء السنوات التى حكم فيها «ليش فاونسا» رئيس نقابة «التضامن» العمالية التى قادت ثورة الشعب البولندى ضد النظام الشيوعى، عن المصادمات التى وقعت بينه وبين حزبه والأحزاب الأخرى. إذ لم تكن الممارسات الديمقراطية قد تغلغلت فى النظام السياسى الجديد، عندما قال فاونسا لمعارضيه قبل إبعاده، وهو الزعيم الشعبى الذى هزم النظام الشيوعى: «إن قيادة أمة أشبه بقيادة الأتوبيس.. فلا مكان للديمقراطية فى قيادته. تصور نفسك تجلس فى مقعد القيادة، ويحاول كل راكب فيه أن يحرك عجلة القيادة.. فلابد أن تصطدم بأول شجرة فى الطريق».

هذا التصور الساذج لممارسة الديمقراطية وكأنها حافلة يقودها سائق هو وحده الذى يعرف خفايا الطريق ومطباته وانحناءاته، وهو وحده الذى يملك حق اتخاذ القرار فى اللحظات الفارقة والمصيرية دون مراجعة أو محاسبة.. لا يقل خطلاً وخطأ عن التصور الآخر لما بات يعرف الآن بديمقراطية الوجبات السريعة.. وعلى أساسه أقامت إدارة الرئيس بوش خطتها أو مبادرتها لفرض الديمقراطية فى العالم العربى والإسلامى، مجرد هياكل فارغة من المضمون تقام بسرعة لمحاكاة النظم الديمقراطية، تفتقر إلى الشروط الضرورية، كما حدث فى أفغانستان قرضاى، أو كما يحدث فى العراق الآن. وهناك قائمة طويلة من التجارب الأمريكية الفاشلة فى زرع الديمقراطية آخرها فى هايتى ولكنها قبل ذلك تكررت فى البوسنة وكمبوديا وجمهورية الدومنيكان وكوسوفا والصومال. وفى دراسة نشرها معهد كارنيجى للسلام الدولى، حاولت أمريكا بالقوة العسكرية تطبيق نظام ديمقراطى فى ١٩ دولة، لم تنجح إلا فى ست منها بينها ألمانيا واليابان وإيطاليا.

بين إصلاح يقوم على ديمقراطية الأتوبيس كما ظنها فاونسا البولندى، وديمقراطية الوجبات السريعة كما تصورها بوش الأمريكى، يقف العالم العربى حائراً أمام مفترق طرق. يتلمس طريقه وسط ضغوط مستمرة من كل الجوانب، سواء من جانب الولايات المتحدة وأوروبا أو من جانب الشعوب العربية نفسها. ولا يوجد خلاف على المعايير والأسس التى يجب أن يتم بها الإصلاح والتغيير المنشود كما عبرت عنها وثيقة الإسكندرية، ولكن المشكلة هى فى التفاوت القائم فيما تحقق من شروط الديمقراطية ومستويات التطور التى بلغتها هذه الدولة العربية أو تلك. إذ تحتاج الديمقراطية إلى مستوى معقول من سيادة القانون والنظام، وتنمية اقتصادية متواصلة، ونظام تعليمى منفتح على العصر، وطبقة متوسطة تحمل عبء التطور، وقضاء عادل مستقل، ومجتمع مدنى ناشط غير مقموع.. فإذا توافرت هذه الشروط، وهو ما يمكن أن تساعد على تحقيقه المبادرات الخارجية، أمكن للصفوة السياسية من القيادات والأحزاب أن تتنافس بحرية فى ظل نظام انتخابى نزيه، يقترن بالفصل الواضح بين السلطات فى إطار أوضاع دستورية مقننة، وبالضمانات اللازمة لحرية الرأى والتعبير وحقوق الإنسان والالتزام بأحكام القضاء.

إن إصلاح الداخل لا يمكن أن يقف عقبة أمام جهود التوصل إلى تسوية عادلة لصراع الشرق الأوسط، والعكس أيضاً صحيح.. فلقد وصلت الشعوب العربية بما حققته من تقدم متواضع فى كثير من جوانبه، إلى اللحظة التى يستحيل فيها إرجاء الإصلاح بحجة مواجهة تبعات الصراع الخارجى، أو الادعاء بأن إطلاق الحريات وتطبيق المعايير الديمقراطية فى الحياة السياسية قد يفتح الطريق أمام استيلاء المتطرفين على السلطة، أو الاستسلام لقوى الجمود والرجعية الفكرية والدينية بحجة أن قيم الغرب لا تصلح لنا ولا نصلح لها...

مطالب الإصلاح لا يمكن أن تملى من الخارج، ولكنها أيضاً لا يمكن أن تظل مجرد صرخات يرددها رجع الصدى!

ماذا يجــــري في المملكــــة..؟!

حســــن أبــوطـــالـــب

■ الحوار الوطني إحدى المفردات السياسية التي تغلغلت في الفضاء السياسي والاجتماعي السعودي. وتحتها كشعار وكسياسة معا، جرت جولتان تم تنظيمهما تحت رعاية مباشرة من ولي العهد الأمير عبدالله، ووفقا لها أيضا يلحظ المراقب قدرا من الانفتاح الإعلامي الرسمي ترافقه مساحة من حرية الرأي التي كثيرا ما طالب بها مثقفون ومبدعون وكتاب وأكاديميون سعوديون. غير أن مساحة الحرية العامة ليست مطلقة، فثمة ضوابط وكوابح ما زالت موجودة. ولعل احتجاز عدد من المثقفين السعوديين، منهم محمد سعيد الطيب ود. متروك الفالح، ود. خالد الحميد، وتوفيق القصير، ود. عبدالله الحامد، وعلي الدميني، ونجيب الخنيزي، والشيخ سليمان الرشود وغيرهم، وذلك على خلفية قيامهم بالتوقيع على وثيقة تقرن الاصلاحات السياسية بمطلب الملكية الدستورية، كثير من بنودها صيغت بصورة أو بأخرى في عرائض تم تقديمها لولي العهد من قبل، والوثيقة نفسها موجودة على الشبكة الدولية. والمعلن رسميا إن السبب وراء الاحتجاز يكمن في أن مثل تلك المطالب تخل بالوحدة الوطنية للبلاد، أما الموقعون عليها فيرون أن تحقيق الإصلاحات السياسية الواردة في الوثيقة هو الذي من شأنه أن يحافظ على الوحدة الوطنية، ويحول دون عبث الخارج في شئون الداخل، فيما الاحتجاز نفسه يناقض طموحات الحوار الوطني، الذي بات آلية للانفتاح الداخلي والتغيير المتدرج، حسب كل الآمال المعقودة عليه.

هذه الواقعة، الأمل أن تكون عابرة، لا تنفي أن ما ينشر في الصحف السعودية من آراء وتحليلات صحفية في العامين الماضيين، ومقارنة بالمادة الجافة التي كانت تنشر في الصحف نفسها قبل الفترة المذكورة، يؤكد أن ثمة شيئا تغير، وهو بأي حال قريب من كرة ثلج تحركت بالفعل من علي بعد أن تجاوزت قيودا عدة.

الحوار الوطني بين العــام والخــاص

هذا الشيء ليس سوى مقدمة لحال آخر يطمح إليه كثيرون من السعوديين، وإن كان من الصعب تحديد جوهره تماما، إذ ما تزال المرحلة الراهنة تحت نوع من الشد والجذب وطرح الأفكار والتصورات المختلفة عما كان وما يجب أن يكون. في الوقت ذاته يقف على الجانب الآخر نفر يعارضون التوجه الجديد، ويرفعون الأصوات مطالبين بإبقاء الوضع على ما هو عليه، يلتمسون الأعذار للعودة إلى صيغ سياسية وفكرية تنظيمية ماضية عفى عليها الزمن، وأثبتت عجزها عن كبح التطرف الديني أو ما بات يعرف إعلاميا بالغلو في الدين، فضلا عن وقوفها مناهضة للتكيف الطبيعي للمجتمع مع مستجدات العصر. وبالرغم من علو صوت هؤلاء أحيانا و انتشارهم في مواقع هنا أو هناك، فإن عقارب الساعة كما يقال لا تعود إلى الوراء. ويكفي هنا أن نذكر بالتأكيدات التي يقول بها أولو الأمر بداية من العاهل فهد ومرورا بولي عهده ونهاية بكبار الأمراء، حيث كلهم مع الإصلاح والتغيير ومعالجة أوجه القصور المختلفة وفق خطة ومسار لا يحيدان عن الشريعة الإسلامية.

الحوار الوطني كحالة سياسية تعيشها المجتمعات التي تواجه أزمة أو تعد نفسها لتغيير جذري، يختلف جملة وتفصيلا عند النظر إليه كمجرد إجراء تنظيمي لحلقة نقاشية أو ندوة، يتم الإعداد لها بعناية فائقة من حيث الموضوع والمشاركين وصياغة التوصيات وهكذا. فالأول حالة عامة يشارك فيها ممثلون عن كل التيارات الموجودة في المجتمع بطريقة طوعية، كل يسعى إلى شرح ثم فرض أو تعميق أولوياته الفكرية والسياسية على حركة المجتمع بطريقة سلمية، ومن خلال توسيع مساحة المؤيدين لتصوراته الكلية عن الحاضر والمستقبل. وهي حالة عامة تختلف مساحتها اتساعا أو ضيقا تبعا لحجم الحرية السائد وطبيعة القضايا التي تفرض نفسها على المجتمع ككل، ومدى استجابة النخبة الحاكمة.

أما الحوار الوطني كإجراء تنظيمي، فهو مجرد نموذج محدد في صورة لقاء فكري أو ندوة أو حلقة نقاشية، ويمثل دليلا أو إشارة على توجهات القائمين عليه، ويخضع لضوابطهم من حيث الموضوع أو قضية النقاش، والذين يسمح لهم بالحضور والذين تؤجل دعوتهم إلى حين، وطريقة النقاش والتداول في الأفكار التي تطرح غالبا في غرف مغلقة بعيدة عن أعين وآذان أجهزة الإعلام، ولا يسمح بالتسرب منه سوى ما يراد له أن ينتشر أو يعرفه المواطنون في توقيت بذاته. أما طريقة معالجة التوصيات والمطالب التي تخرج عنه، فتظل بيد أولي الأمر أولا وأخيرا، ووفقا لتقديراتهم وحساباتهم الذاتية، ورؤيتهم للأولويات التي تفرض نفسها على المجتمع، وأيضا لما يتوافر لهم من موارد تسمح بهذا الشيء أو تغلق الأبواب دونه.

في الحالة السعودية نلحظ الأمرين، أو لنقل الحوارين، المجتمعي العام، والمنظم المحدود المنضبط. ووفقا للمؤشرات الأولى، كل منهما يشحن الآخر ويشحذه، فالحوار المجتمعي العام يثير الكثير من التساؤلات والقضايا ويطرح هموما عدة بصوت عال وبدرجات مختلفة، ويصوغ تمنيات عامة عن اليوم والغد. أما الحوار المنظم فهو مادة من مواد الحوار العام من جانب، ويتأثر به ويضع له موجهات من جانب آخر، ويقدم بعض الحلول للمجتمع والحكم من جانب ثالث.

بيئة خارجية ضاغطة

الحديث عن الحوار الوطني في السعودية مادة ومضمونا ومسارا لا ينفصل عن تلك البيئة السياسية والمعنوية الضاغطة التي تبلورت في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر، والتي شكلت صدمة كبرى للمملكة حكاما ومحكومين، حيث بدت البلاد أمام أعين العالم الغربي والأمريكي كمنبع لعناصر إرهابية خطيرة يمكنها القيام بعمليات كبرى تزهق آلاف الأرواح من الأبرياء. والصدمة الكبرى أن تلك الدعايات التي انطلقت كسهام موجهة إلى المملكة ركزت على عنصر العقيدة وطريقة الحياة السعودية باعتبارهما مركز الجذب والتوليد لما سمي فكرا «إرهابيا» مضادا لحركة البشرية في التقدم والحداثة، والأخيران مقصود بهما أساسا تلك المساحة الواسعة جدا والمطاطة للمصالح الأمريكية والغربية.

المعضلة الأكبر هنا، لم تكن في أن الهجوم على السعودية جاء في صورة استجابة عاطفية حادة وعابرة للاتهام الذي شمل ١٥ سعوديا باعتبارهم مسئولين عن هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وإنما لأن الأمر تعلق بالدعوة إلى اتخاذ موقف استراتيجي جديد بدا، وهو يهيل أكواما من الغبار كله على العلاقات الاستراتيجية الأمريكية السعودية التقليدية التي تزيد على سبعة عقود متصلة، كمقدمة لصياغة وضعية سياسية وأمنية واقتصادية جديدة تفقد

حملات التشويه ضد المملكة، هدفت إلى تعبئة الرأي العام الأمريكي لكي يطالب أو يقر بالانقلاب على العلاقة التقليدية مع السعودية، والتي تحول مواطنها من ضيف مرحب به في الولايات المتحدة إلى شخص غير مطلوب قدومه



كـــرة الثـــلج التـــى تحـــركـــت

فيها المملكة وضعها المتميز واعتبارها الخاص لدى صانع القرار الأمريكى. الأمر الذى مَثّل جرس إنذار عميق الصدى، وخاصة أن حملات التشويه المنهجية ضد المملكة ونظامها السياسى والاجتماعى، هدفت إلى تعبئة الرأى العام الأمريكى لكى يطالب أو يقر بالانقلاب على العلاقة التقليدية على المملكة، والتى تحول مواطنها من ضيف مُرحب به فى الولايات المتحدة إلى شخص غير مطلوب قدومه أو زيارته أو تعلمه فى أى من المعاهد العلمية الأمريكية، وذلك باعتبار ما يُحتمل أن يكون عليه من مصدر تهديد محتمل وفقا للرؤية الأمريكية!.

شملت الضغوط الإعلامية الأمريكية المُغذاة من قبل دوائر سياسية نافذة أنواعا شتى من المطالب، صبت جميعها فى الدعوة إلى إعادة بناء النظام السياسى السعودى مؤسسيا وفكريا، ونالت دعوة تغيير مناهج التعليم السعودى جزءا كبيرا. كما مورست ضغوط شتى من أجل السيطرة على عمل الجمعيات الأهلية الخيرية السعودية التى حُمّلت مسئولية تمويل ما سمى بظاهرة «الإرهاب الإسلامى العالمى». وذهبت بعض الدراسات والمقالات ذات المغزى إلى المناداة بتقسيم المملكة إلى عدة كيانات سياسية. وهو ما شكل متغيرا جديدا فى أصول العلاقة الأمريكية السعودية، فى حين بدت المملكة فى موقف دفاعى مستشعرة أن تلك العلاقة باتت عبئا ثقيلا.



الضغوط الأمريكية، حتى وإن لم تأخذ طابعا رسميا، بمعنى سياسة معلنة من قبل البيت الأبيض، جاءت فى ظل تطور إقليمى/ عربى حمل بدوره مصادر أخرى للضغط السياسى والمعنوى، فالحالة العراقية التى تطورت من أزمة دولية إلى حالة احتلال أجنبى لبلد عربى مهم ومجاور للأراضى السعودية، أضافت أصنافا أخرى من الضغوط التى تتعلق بالدور السعودى عربيا وطبيعة الوجود العسكرى الأمريكى فى القواعد السعودية، كما تبلورت تحديات استراتيجية كبرى فى

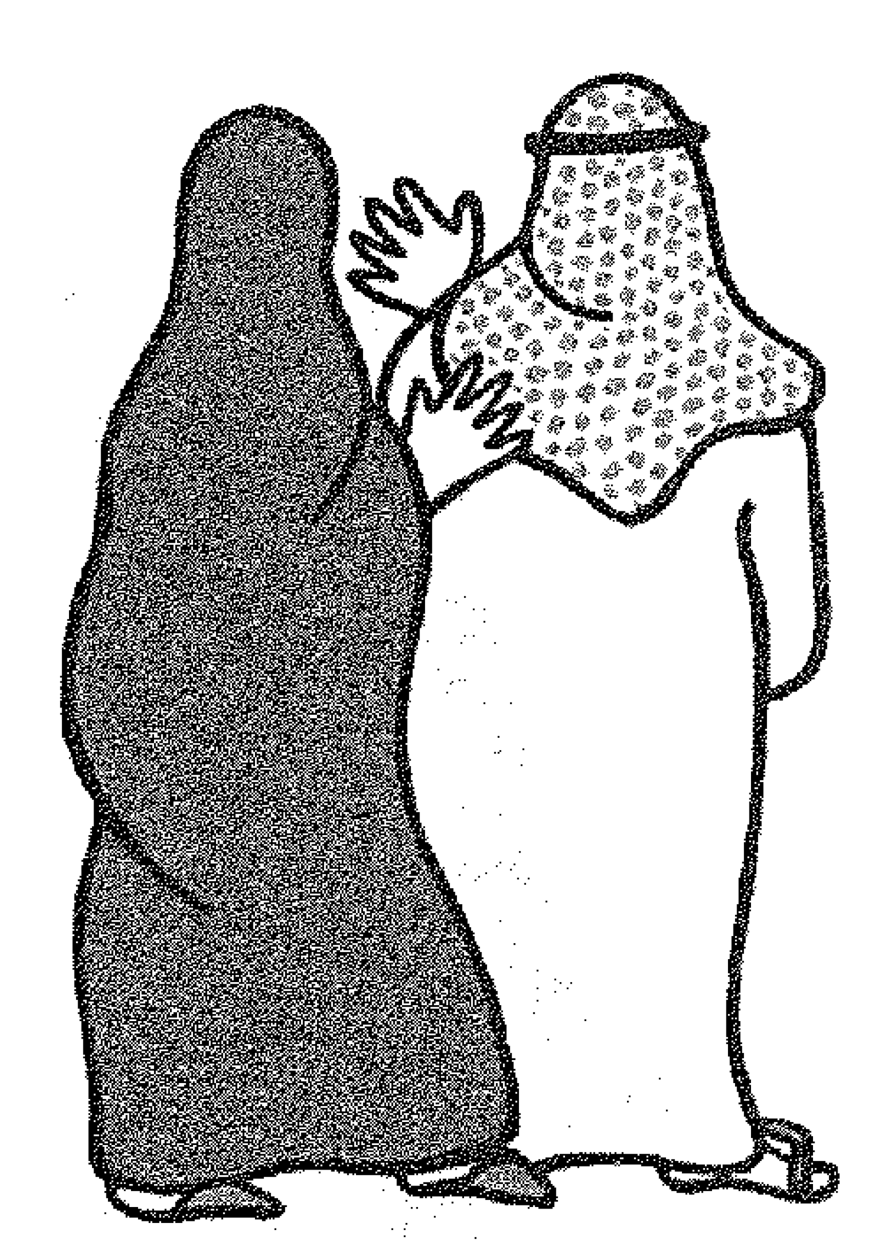
مواجهة الأمن السعودى بشقيه الداخلى والخارجى. وإذا كان سقوط النظام البعثى الصدامى فى العراق مثل تخلصا من عبء التهديدات العراقية، رافقه فى ذلك انتقال القواعد العسكرية الأمريكية من الأراضى السعودية إلى جارتها الأراضى القطرية، فإن الأمر اختلف على الصعيد الداخلى الذى شهد بدوره بروز تحديات كانت كامنة فى رحم المجتمع، ومنها مطالب جاءت من مصادر شتى قالت بإعادة النظر جذريا فى مفردات نظام الحكم وعلاقته بالمواطن، وظهور ممثلين لمذاهب وتيارات موجودة فى المجتمع السعودى، أبرزهم ممثلون للطائفة الشيعية، عبروا عن الحاجة إلى إنهاء ما أسموه سياسات الإقصاء والتجاهل، وطالبوا بدورهم بإنهاء المظالم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى قالوا أنهم عانوا منها كثيرا وطويلا.

نحو مزاج سياسى جديد

لم تكن ضغوط الخارج وحدها فى الميدان، كانت هناك أيضا تهديدات جدية من الداخل، تمثلت فى حالة التصعيد العنيف الذى سلكته جماعات سعودية «إرهابية» ضد الحكم والمجتمع معا، ممثلا فى القيام بعدد من التفجيرات المُعدة جيداً ضد مجمعات سكنية فى العاصمة الرياض، يعيش فيها خليط من العرب والأجانب والمواطنين. فيما مثل تطورا نوعيا فى المواجهة بين الحكم وهذه الجماعات، التى طورت موقفها من مجرد التشكيك فى شرعية الحكم إلى استخدام العنف المباشر ضده بهدف إظهاره ضعيفا غير قادر على حماية نفسه أو مواطنيه، وهو ما لم يتحقق عمليا. حيث قاد هذا التحول فى أداء الجماعات العنيفة إلى تحول جذرى فى أداء الدولة المناهض له، مُسلحا بغضب ورفض شعبى شامل لمبدأ استخدام العنف من قبل تلك الجماعات غير المنظورة ضد المجتمع ومصالحه العريضة، وفى المقدمة أمنه واستقراره.

لم تصب تلك التفجيرات المزاج الشعبى وحسب، بل أصابت فى الصميم سياسة المواءمة التى سلكتها الحكومة السعودية لفترة طويلة سابقة، بين الضغوط التى مارستها جماعات وهيئات ذات فكر سلفى شديد المحافظة، وبين المطالب التى دعا إليها دعاة التجديد وتطوير الحياة السياسية والفكرية السعودية لمواجهة الضغوط المتراكمة فى الداخل وفى الخارج. لقد قلبت تفجيرات الرياض ١٢ يونيه ٢٠٠٣ كثيرا من الموازين، والتى دعمتها لاحقا تفجيرات مجمع المُحيا فى الثامن من نوفمبر ٢٠٠٣، حيث عمقت فى البلاد مزاجا سياسيا

الحوار السعودى



الصعيد الداخلى شهد بروز تحديات كانت كامنة، ومنها مطالب جاءت من مصادر شتى قالت بإعادة النظر جذريا فى مفردات نظام الحكم وعلاقته بالمواطن



مختلفا، كان أبرز ما فيه بيان الضعف الشديد لمردود سياسة المواءمة السابقة، بل وبروز نتائجه العكسية على المدى القريب، وضرورة مواجهة كل ما له صلة بالغلو والتطرف الدينى من أفراد ومؤسسات وفتاوى دينية تجود بها رموز متشددة أيما تشدد، والاستفادة من تجارب دول عربية سبق لها أن تعرضت لنفس المأزق، ولم يكن أمامها سوى اتباع استراتيجية مواجهة متعددة المستويات، من بينها مستوى يتعلق بتحقيق انفراجات حقيقية فى الحياة السياسية، جنباً إلى جنب سياسات أمنية صارمة، وتعبئة المجتمع بكل مفرداته ومنظماته ومؤسساته ضد هذه الجماعات وأعضائها وفكرها.

تساؤلات عدة تلهب الحوار العام

كان من بين ما طرحته هذه التفجيرات أسئلة عدة، من أهمها: من هم المناصرون سواء فى الداخل أو فى الخارج لهذه الجماعات التى انزلقت إلى العنف الصريح؟، وإلى أى مدى يتغلغل هؤلاء المناصرون فى المؤسسات الرسمية الدينية؟، وما هو الدور الذى لعبته أو تلعبه بعض المؤسسات الخيرية فى دعم هذه الظاهرة فى الداخل أو فى الخارج؟.

مثل هذه الأسئلة وغيرها ألهبت الحوار العام حول الأسلوب الأمثل ليس فقط لمواجهة هذه التنظيمات وحسب، بل والبحث فى أسس نظام سياسى جديد تلتف حوله كافة شرائح المجتمع، ويحول دون الانزلاق فى الوقوع فى براثن سيطرة جماعات عنف ترتكن إلى أفكار أصولية وسلفية متطرفة مستقبلا. ومن هنا حدث التوافق العام على ضرورة الإصلاح السياسى أيا كانت التعقيدات التى تحيط به. فيما ظهرت موجات من المقالات والتحقيقات الصحفية والاجتماعات والندوات والمناقشات العامة والبيانات المعدة جيدا من قبل عدد من المهتمين بالشأن العام، تدعو إلى المبادرة بمواجهة شاملة فكرية ودينية للذين تورطوا فى مثل هذه التنظيمات المتطرفة التى غالت فى الدين، وانتهت إلى الخروج عن أبسط قواعد مبادئه الإيمانية، ومواجهة الذين يتصدون للفتاوى بغير علم وبنزعة فردية قاصرة، وإعادة النظر فى سياسات التنشئة والتدريب التى أفرزت العديد من الدعاة غير المؤهلين تماما، ولكن كانت لهم السطوة المعنوية والدينية على جموع الشباب السعودى لعقدين سابقين على الأقل.

جاءت هذه الدعوات وغيرها وكأنها حالة مراجعة مجتمعية علنية، تتطلع إلى التطهر الجماعى من أوجه قصور لم يُتصور أن تلحق بالمجتمع أو بعض أبنائه أو بعض مؤسسات خيرية ذات صيت. واللافت للنظر أن تلك الدعوة المجتمعية صاحبتها تأكيدات أمراء بارزين بأن ما كان لم يعد قابلا للاستمرار، وإن ثمة عهدا جديدا من الإصلاح السياسى قد بدأ. يبرز هنا الدور الشخصى الذى يلعبه ولى العهد الأمير عبد الله، الذى يعكس بتحركاته ورعايته المباشرة لخطة إصلاح سياسى واقتصادى وإعلامى قرارا علويا نهائيا، اتخذ فى أعلى دوائر الأسرة السعودية الحاكمة، بأن الوقت بات وقت التغيير المنظم والمنهجى، ووقت مواجهة الظواهر المعاكسة، ووقت مواجهة الاتهامات المختلفة بالجمود والكساد الفكرى والإرهاب والغلو فى الدين.

قناعات ملكية بالإصلاح

ولعل خطاب العاهل فهد فى افتتاح الدورة الثالثة لأعمال مجلس الشورى السعودى فى ٢٠٠٣/٥/١٧، يعكس ذلك القرار والإصرار على تطبيقه. وفى هذا الخطاب تمت بلورة مفهوم الإصلاح على نحو شمل مجموعة من المكونات والعناصر والمبادئ، على النحو التالى:

- انه يتضمن «مراجعة الأنظمة والتعليمات وإحكام الرقابة على أداء الأجهزة الحكومية وتوسيع نطاق المشاركة الشعبية وفتح آفاق أوسع لعمل المرأة فى إطار تعاليم الشريعة الغراء».

- إن «الإصلاح الاقتصادى عملية مستمرة طيلة الوقت، وهى عملية بالغة الأهمية يتوقف على نجاحها نجاح التنمية الاقتصادية وتحسن أوضاع المواطن المعيشية.. وفى إطار الإصلاح الاقتصادى تبرز مشكلتا البطالة والفقر. وأن التغلب على الأولى يتطلب «جهودا إضافية لتوفير المزيد من الفرص التعليمية والتدريبية للمواطنين ومراجعة التخصصات الأكاديمية التى تلبى حاجة المجتمع إلى الفنيين والمهنيين».

- «إن مسيرة الإصلاح لا يمكن أن تثمر إلا فى جو من الوئام الاجتماعى القائم على الوحدة الوطنية، والتى تتعارض مع الطروحات المتطرفة، وتتطلب أجواء صافية من الحوار الأخوى الهادئ». وهنا، حسب توجيهات العاهل فهد، تقع على العلماء مسئولية «نشر التسامح الذى تمتاز به شريعتنا السمحة وفى إنقاذ شبابنا من شر الأفكار المدمرة التى تبث الغلو والكراهية ولا تنتج سوى الخراب والدمار».

- «إن الإصلاح الحقيقى هو النابع من عقيدة الأمة وتراثها، الإصلاح الذى تقبل عليه الأمة طائعة لا مسوقة، الإصلاح

الذى يتم بتدرج وسلاسة متجنبا السرعة المهلكة والبطء القاتل».



هذه القناعات الكبرى ربطت بين القرارات التى ستقدم عليها الدولة السعودية وبين تهيئة البيئة المجتمعية من خلال الحوار الوطنى العام والمنظم معا. وفى السياق ذاته تكررت تصريحات الأمير عبد الله ولى العهد حول ضرورة الإصلاح وتنظيم حوار وطنى شامل يستفيد منه المجتمع للخروج من المأزق الذى يحيط به، وفى كلمة له نشرت فى ١٤ يناير ٢٠٠٤، بمناسبة إنهاء أعمال اللقاء الثانى للمؤتمر الوطنى الذى عقد فى نهاية ديسمبر ٢٠٠٣، حدد ولى العهد عدة مبادئ تحكم الحوار الوطنى بشقيه العام والمحدود المنظم، أبرزها:

١. «إن الحوار ظاهرة صحية من حيث المبدأ.. وحتى لا تتحول النعمة إلى نقمة فإن أى حوار لا يلتزم بمنهج الحوار وقواعده وآدابه يتحول إلى فوضى لا تغنى ولا تسمن من جوع وتضر ولا تنفع».

٢. «إن هذا الوطن لن يرضى أبدا أن يمس أحد كائنا من كان عقيدته الإسلامية باسم حرية الرأى أو بأى اسم آخر، إن مجتمعنا يستمد كل مقومات وجوده من الدستور الإلهى الخالد القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأى تعرض لهذا الدستور الإلهى يعنى طعن الوطن فى الصميم».

٣. «إن الدولة ماضية بعون الله فى نهجها الاصلاحى المدروس المتدرج، ولن تسمح لأحد بأن يقف فى وجه الإصلاح سواء بالدعوة إلى الجمود والركود أو الدعوة إلى القفز إلى الظلام والمغامرة الطائشة.. لكن الدولة لن تفتح المجال أمام من يريد بحجة الإصلاح أن يهدد وحدة الوطن أو يعكر السلام بين أبنائه».

٤. «إن الدولة لن تتعرض لحرية الرأى المسئولة الواعية، ولكن فى الوقت نفسه لن تترك سلامة الوطن ومستقبل أبنائه تحت رحمة المزايدين الذين يبدأون بالاستفزاز وينتهون بالمطالب التعسفية، فالغلو مذموم سواء جاء من هذا الطرف أو ذاك، والتطرف مكروه سواء كان مع هذا الموقف أو ذاك، فالسبيل القويم هو سبيل الوسطية التى لا تفرط والاعتدال الذى لا يميل».

تجمل هذه الكلمات ليس فقط إدراك ولى العهد ورموز الدولة السعودية بشأن الإصلاح السياسى ودور الحوار الوطنى فيه، وإنما أيضا الموجهات الأساسية لهذه العملية المجتمعية الشاملة، فهناك أولا: الحوار المسئول الملتزم الذى لا يفتح أى باب من أبواب الفوضى، وثانيا: أن أساس هذا الالتزام للمجتمع والدولة معا، هو العقيدة الإسلامية التى لن يسمح لأحد أن يمسها بأى شكل كان، وثالثا: فإن الإصلاح هو عملية مدروسة، تخضع للشروط الوسطية المعتدلة بدقة، وهدفها الأول حماية المجتمع وتماسكه وسلامه، ورابعا: إن الدولة لن تعبأ بأية دعوات للجمود أو ما يقابلها من دعوات للإسراع نحو خطوات قد تهدد وحدة الوطن وتماسكه. وخامسا: إن الدولة ستحمى حرية الرأى شريطة ألا يكون استفزازا أو تطرفا مكروها من أى طرف كان.

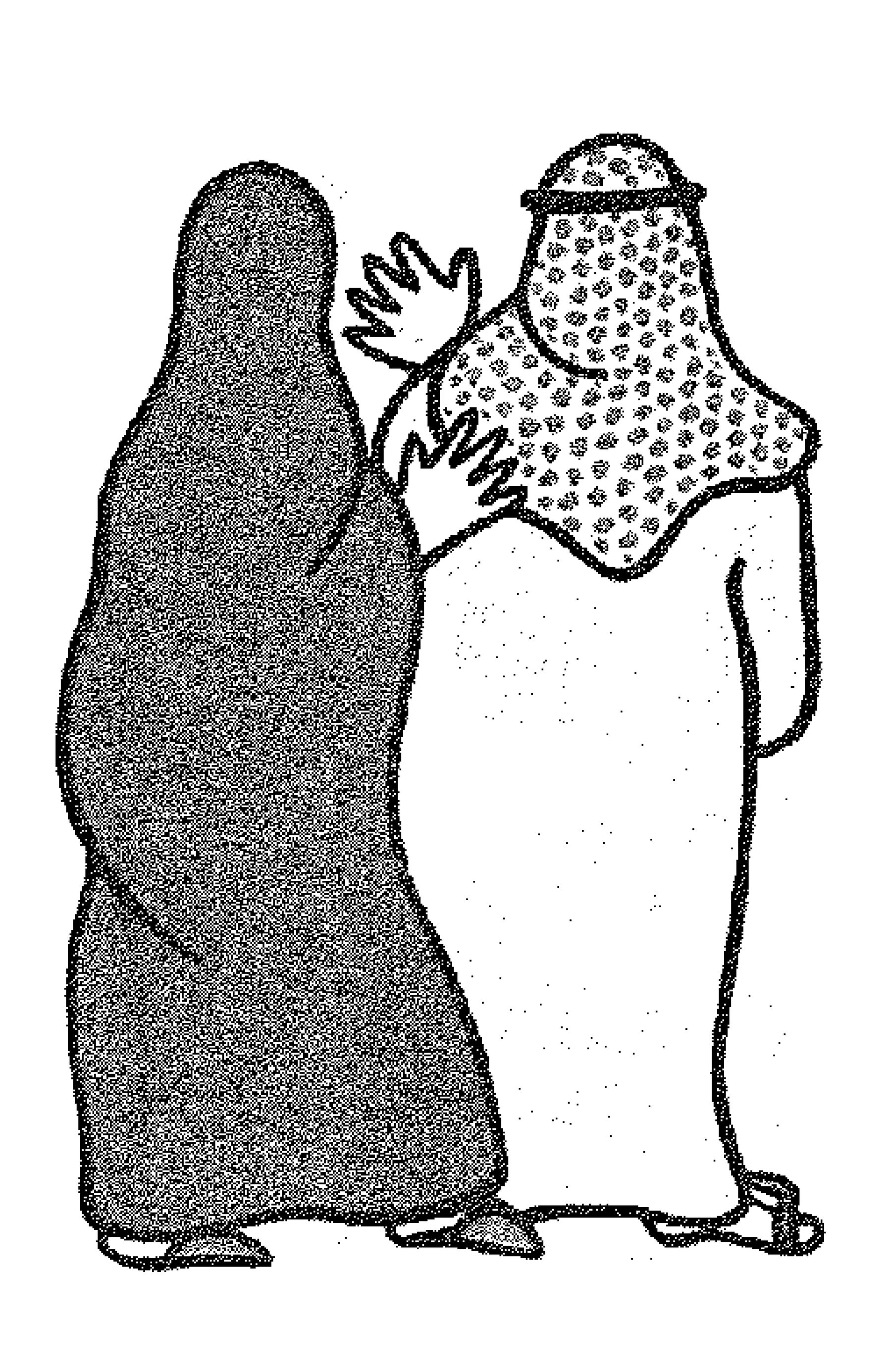


أما الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية، وفى شرحه لأبعاد الإصلاح فى بلاده أمام المجتمع الدولى، فقد ركز فى محاضرة له فى مركز السياسات الأوروبية فى بروكسل ١٩ فبراير ٢٠٠٤ على أن «الإصلاح ليس غاية فى حد ذاته، بل هو وسيلة لتحقيق الهدف وأنه لضمان فعالية الإصلاح واستمراريته فإنه يتوجب توخى العديد من الاعتبارات، ومنها أن تلبى الإصلاحات الاحتياجات الأساسية للمجتمع، وان تحظى بالتأييد الشعبى والإجماع بقدر الإمكان، وان تأخذ فى اعتبارها الإجراءات النظامية، والتوقيت المناسب لضمان انسيابها وعدم حدوث أى نوع من الإرباك الناتج عن التغيير المفاجئ الذى قد يؤدى إلى خلق بعض المعاناة للمواطنين»، مشيرا إلى أن «مقترحات التحول الفورى نحو العلمانية لن تؤدى فى النهاية إلى فصل الدين عن الدولة بقدر ما سينتج عنها اضطرابات تعطى الفرصة للمتطرفين للعمل على ملء الفراغ الناتج عنها. ولأن الدين فى المجتمعات الإسلامية لا يشكل أساسا لحكم ثيوقراطى، بل هو أداة للضبط الأخلاقى ضرورية ضد إساءة الحكومات استخدام سلطاتها». (جريدة الشرق الأوسط، ٢٠/٢/٢٠٠٤)

مطالب للإصلاح

لعل الدمج بين الحوار الوطنى العام الذى أخذ يشق لنفسه طريقا فى وسائل الإعلام السعودية المختلفة، وبين الحوار المنظم يعكس بعضا من هذه الموجهات الكلية. فمنذ مطلع العام ٢٠٠٣، تكررت مساعى مجموعة من المثقفين وعلماء الدين وأكاديميين ورجال أعمال وزعماء عشائر وعدد من السيدات من الطبيبات وأساتذة الجامعات، لوضع وثيقة تحدد رؤية شعبية لمعنى الإصلاح المطلوب وكيفية تحقيقه، على أن توجه إلى أولى الأمر للنظر فيها. تمثل المسعى الأول فى وثيقة كتبها مائة مثقف سعودى، تضمنت ١٠٤ مطالب، وعرفت باسم «بيان الإصلاح»، وقدمت إلى ولى العهد الأمير عبد الله فى نهاية يناير ٢٠٠٣. وتضمنت الوثيقة رؤية هؤلاء المثقفين للإصلاح السياسى والإدارى والاقتصادى، وطالبت بوضع دستور للبلاد والفصل بين السلطات وإصلاحات جذرية فى القضاء. ثم قدمت الوثيقة الثانية فى شهر أبريل، وعرفت باسم «شركاء فى الوطن»، شارك فى وضعها والتوقيع عليها ٤٥٠ شخصية شيعية من مختلف مناطق المملكة، وتضمنت مطلب البحث فى أوضاع الطائفة الشيعية، وزيادة تمثيل الشيعة فى الأجهزة التنفيذية للدولة ومجلس الشورى والمؤسسات الدينية. أما الوثيقة الثالثة فعرفت باسم «رؤية لحاضر الوطن ومستقبله»، وتضمنت مجموعة من المطالب التى رؤى أنها كفيلة بأن تساعد المجتمع السعودى على تجاوز المحنة التى يعيشها والضغوط التى يتعرض لها من الداخل والخارج. ومن بين المحاور التى تضمنتها الوثيقة محور بناء دولة المؤسسات الدستورية، حيث دعا إلى تشكيل مجلس الشورى بالانتخاب المباشر من جميع المواطنين ليجسد سلطة أهل الحل والعقد، ولضمان رقابة المواطنين على الأجهزة التنفيذية، والتأكيد على مبدأ استقلال القضاء. وفى المحور الاقتصادى تم التأكيد على مبدأ العدالة فى الخطط الاقتصادية وتوزيع الثروة بين المناطق. ووضع الضوابط اللازمة لترشيد الإنفاق العام ومكافحة الفساد المالى والإدارى. وفى المحور الاجتماعى تم التركيز على مبدأ التفاعل الايجابى بين المجتمع وقيادته لغرض تقوية الجبهة الداخلية لمواجهة الأطماع الخارجية، وتأكيد دور الدولة والمجتمع فى إشاعة ثقافة حقوق الإنسان التى أمرت بها الشريعة، ووضع برامج عملية لحل مشكلة البطالة المتفاقمة، وإتاحة الحقوق التى كفلتها الشريعة للمرأة لكى تنهض بواجباتها المشروعة وتفعيل دورها فى الشأن العام.

الحوار السعودى



منذ مطلع ٢٠٠٣، تكررت مساعى مجموعة من المثقفين وعلماء الدين وأكاديميين وزعماء عشائر وعدد من الطبيبات، لوضع وثيقة تحدد رؤية لمعنى الإصلاح وكيفية تحقيقه





وفى المحور الرابع المتعلق بالمجتمع المدنى، تمت مطالبة الدولة بتوضيح عزمها على الإصلاح من خلال القيام ببعض المبادرات مثل إعلان عفو عام عن المعتقلين بتهم سياسية أو محاكمتهم محاكمة علنية عادلة، وإعادة الحقوق المادية والمعنوية لدعاة الإصلاح، وتوفير الحريات المشروعة لكافة فئات المجتمع، وإيقاف القيود المفروضة على إبداء الرأى فى الشأن العام. أما المحور الخامس فتضمن الدعوة إلى مؤتمر وطنى عام للحوار، على أن تدعو إليه الحكومة للحوار فى المشكلات الأساسية التى تهم الجميع، على أن يشارك فيه نخبة من ذوى الرأى المهتمين بالشأن العام لمناقشة التحديات ووضع أساس دستورى لبناء صيغة التعاقدية لدولة المؤسسات.

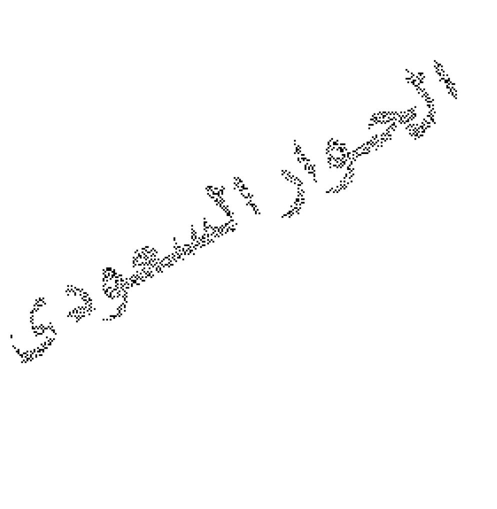
فى ظل هذه البيئة التى يمتزج فيها إصرار أولى

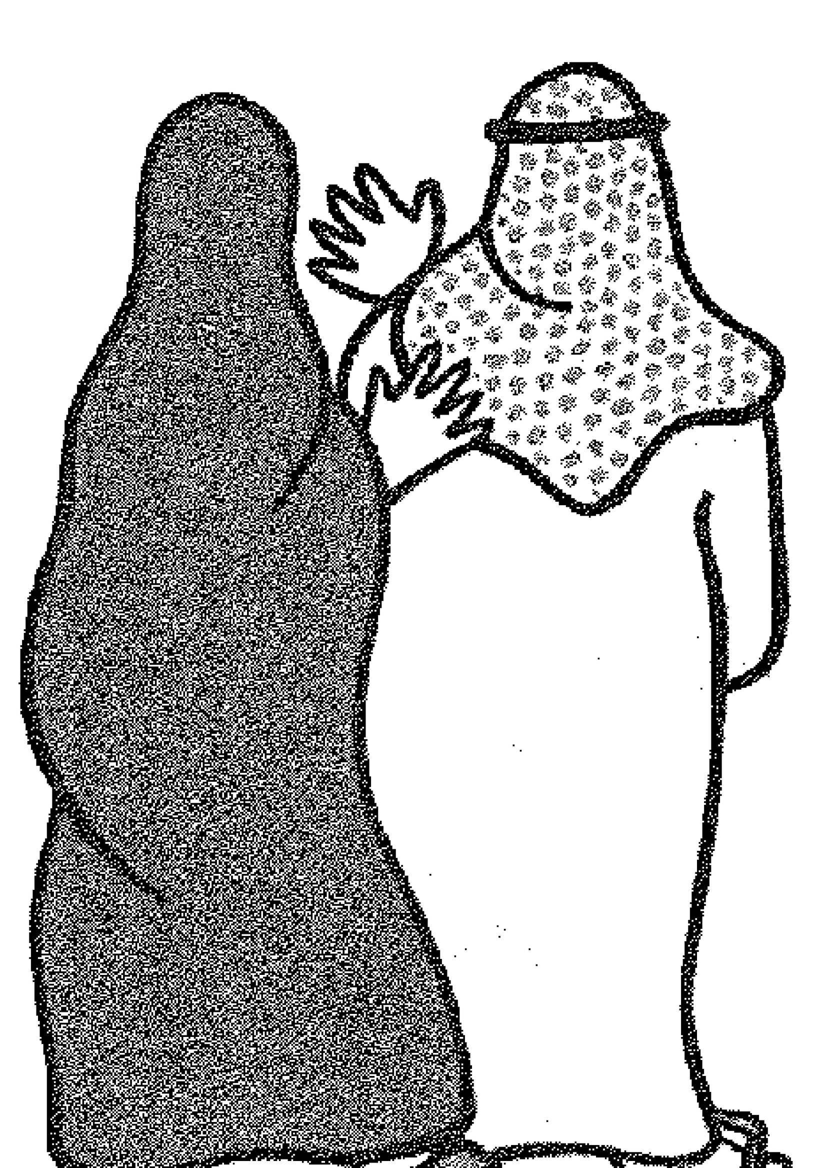
الأمر على الإصلاح وقناعتهم بضرورته وفق ضوابط شرعية واجتماعية، ورؤى مختلفة لهذا الإصلاح أتت من فئات وأطياف مختلفة من رحم المجتمع السعودي، جاء القرار الملكي بإنشاء مركز للحوار الوطني في الثالث من أغسطس ٢٠٠٣، تحت اسم «مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني»، والذي مثّل بدوره استجابة لواحدة من التوصيات التي تضمنتها نتائج حوار «اللقاء الوطني الأول للحوار الفكري»، والذي كان بدوره توجيها من ولي العهد الأمير عبد الله حين التقى مع مجموعة من علماء ومثقفين سعوديين من الشيعة في الثلاثين من أبريل ٢٠٠٣، حين قدموا له وثيقة «شركاء في الوطن».

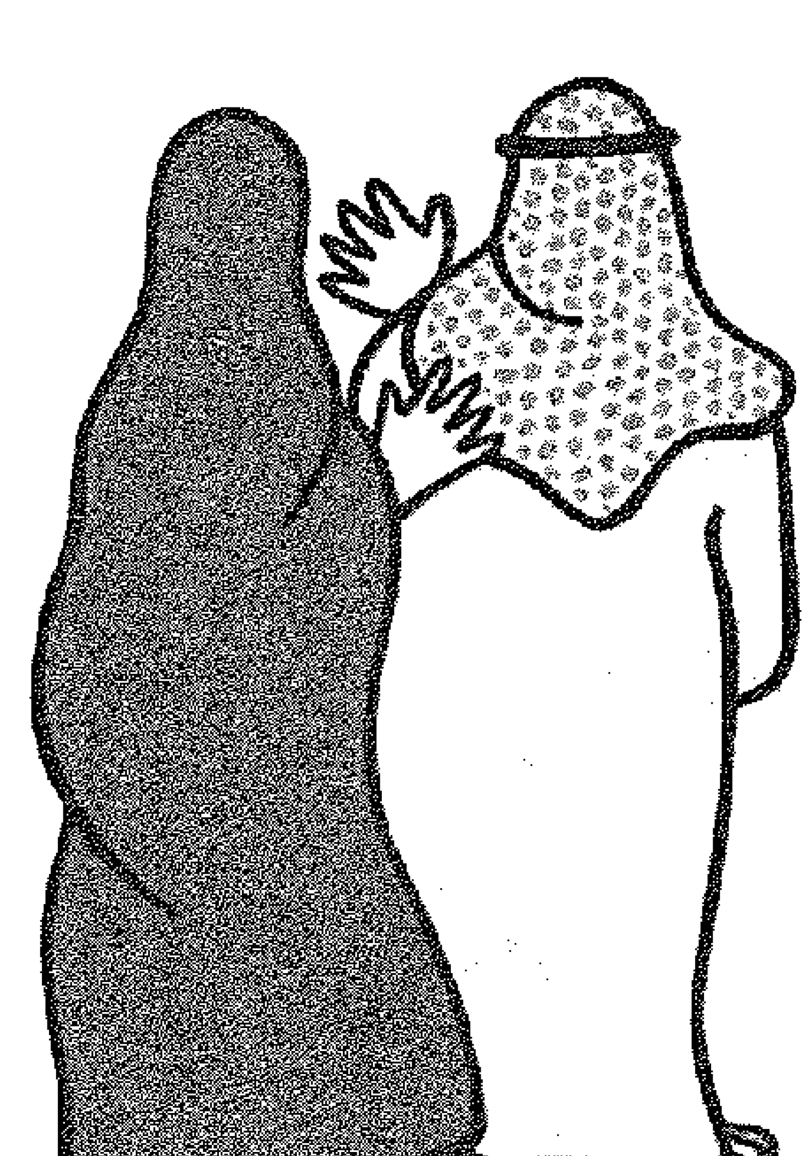
جاء إنشاء مركز الحوار الوطني تعبيرا عن أهمية تنظيم اللقاءات الفكرية التي تمس أعصابا مختلفة من عملية الإصلاح، التي أصبحت الموجه الرئيسي للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في المملكة. وكما سبق القول فإن هذا الجانب يتعلق باللقاءات المحدودة المنظمة، والتي تتعلق بنقاش مكثف حول قضية بذاتها يجريه مجموعة مختارة بعناية من المثقفين والأكاديميين وعلماء الدين، بغية الخروج بتوصيات أو رؤية معينة تقدم لصانع القرار، تمهيدا لوضعها في القوالب القانونية والأطر التنفيذية والمؤسسية المناسبة.

الحوار الوطني.. اللقاء الأول

حين عقد اللقاء الأول للحوار الفكري في الفترة من ١٤ . ١٨ يونيه ٢٠٠٣، شارك فيه ٣٥ شخصية من مختلف مناطق المملكة، مثلوا اتجاهات فكرية ومذهبية متعددة، إضافة إلى بعض شخصيات مستقلة، حيث ناقش المجتمعون عدة قضايا مهمة من بينها الوحدة الوطنية والغلو والتشدد والتنوع الفكري وحقوق المرأة وحرية التعبير وتنظيم الفتوى والتعامل مع غير المسلمين. وقد تميز هذا اللقاء بعدة سمات، أبرزها السرية شبه الكاملة، حيث لم تنشر أية تفاصيل عما جرى فيه، أو طبيعة المناقشات والأفكار التي طرحها المشاركون. وكل ما جرى التأكيد عليه أن الحوار ليس رسميا وليست له أية أبعاد سياسية، في الوقت نفسه تم التأكيد على طابعه الثقافي العام. ولم ينشر عنه سوى ما خرج به المجتمعون من توصيات جاءت في صياغات عامة مثل التوصية بإنشاء مركز للحوار الوطني، التي تحولت لاحقا إلى قرار ملكي كما سبق القول، والدعوة إلى التوازن في توزيع برامج التنمية بين مناطق المملكة، ومعالجة هموم المواطن، والاستمرار في عملية الإصلاح وتوسيع قاعدة المشاركة الشعبية.









«سبح بي الخيال مرة فتخيلت وطني وقد أصبح مؤتمرا كبيرا، ليس فيه ملفات تحت الطاولة، يتصارح فيه الجميع ويأخذون حقوقهم ويؤدون واجباتهم»

عبدالله العتيبي

كاتب سعودي

يذكر هنا أن هذا اللقاء كان الأول من نوعه في المملكة، والمراقب من بعيد يدرك أن الخطوة الأولى تكون عادة بحاجة إلى حسن التنظيم، وإلا جاءت بنتائج عكسية. كما يفهم أيضا أن البيئة الداخلية التي لم تعتد طويلا مثل هذه النوعيات من اللقاءات، فضلا عن أن سمات اللحظة التاريخية التي تمر بها المملكة قد فرضت نوعا من الحماية على هذا اللقاء الأول، ولم تسمح إلا بتسرب محدود لما دار فيه من نقاشات واحتدامات أو تصالحات.



أما في الداخل، فقد تراوحت التقويمات حول اللقاء وأهميته بين ثلاثة اتجاهات كبرى، أولها أن المؤتمر «قد نجح في وضع طريق لتيار وطني معتدل ووسطي يمثل كل فئات الشعب السعودي وطبقاته ومذاهبه واتجاهاته، كما أنه وضع لبنات أول مؤسسة للمشاركة الشعبية الصحيحة، وأدى إلى فرز القوى والتوجهات في المملكة بحيث أصبح واضحا من يستطيع المشاركة ومن لا يستطيع» (جمال خاشقجي، «نحو مؤسسة وطنية عليا تمثل تيار الإصلاح السعودي»، جريدة الوطن، ٢٠٠٣/٦/٣٠). ثانيها أن المؤتمر وإن كان في حد ذاته خطوة إيجابية، إلا أنه يؤخذ عليه انه افتقر إلى مشاركة ممثلين عن التيار الليبرالي التجديدي في الحياة الثقافية والاجتماعية السعودية، كما غابت المرأة عنه، وانه يخشى أن يكون بمثابة «آلية لاحتواء الآخر وليس تفهم كل طرف للآخر، والالتقاء حول مضامين خطاب وطني مؤسس على مبادئ الإسلام وتعاليمه، وتعظيم المشتركات الكبرى وتنمية الإحساس بأن الناس شركاء في وطن واحد». (عبد الله القفاري، «مؤتمر الحوار الوطني يدشن سنة أولى حوار»، جريدة الرياض، ٢٠٠٣/٦/٢٣) وأن المهم هو أن يجسد الحوار الوطني «التعبير العملي على توافق الرغبة الشعبية مع التوجهات الإصلاحية للقيادة السعودية في ضرورة الإصلاحات الديمقراطية ومواجهة قوى التطرف والإرهاب والغلواء الفكري، وعدم إتاحة مجالات واسعة للتدخل الأمريكي الفظ لفرض خططه المعلنة» (أحمد الربعي، «في البدء.. كان الحوار»، الشرق الأوسط، ٢٠٠٣/٦/١٧)



أما ثالث الاتجاهات فقد ركز على التحذير أو لنقل التعبير عن بعض التخوفات والهواجس من أن يكون التركيز الشديد على مفردة الحوار الوطني «تعبيرا عن هروب من الواقع أو التظاهر بالاعتدال أو مجرد حالة عابرة لاحتواء ضغط شديد خارجي وداخلي» (عبد العزيز الخضر، «الحالة السعودية»، جريدة الوطن السعودية، ٢٠٠٣/٩/٣)

فيما دعا آخرون إلى ألا يكون الحوار العام مرتبطا بمركز رسمي ومؤسسة تتحول مع الزمن إلى مجرد جهاز إداري لا صلة له بالهموم الحقيقية للمواطنين «إذ أن البعد عن الواقع الشعبي يشكل إذابة حقيقية لفكرة الحوار، فما يحققه المتحاورون في قاعة اجتماعات مغلقة يتنازل فيها كل منهم عن أطروحة في فكره لن يحقق شيئا على المستوى الاجتماعي ما لم تمتد يد الإعلام بكل أشكاله إلى نقل الحوار علنا ليتم قطع الطريق على أولئك المشككين في الحوار وجدواه الاجتماعية». (علي الخشيبان، «الحوار الوطني بين السائل والمجيب»، الوطن السعودية، ٢٠٠٣/٨/١٥)

«ليت وطني كان مؤتمرا»

تحت هذا العنوان كتب الإعلامي السعودي عبد الله بجاد العتيبي (الوطن، ٢٠٠٤/٢/١) تعليقا على مجريات الحوار الوطني الثاني الذي التأم في رحاب مكة المكرمة نهاية ديسمبر الماضي، وذلك من واقع مشاركته في اللقاء، «ضم الحوار بين أحضانه في تلك الرحاب الطاهرة ما يمكن تسميته فسيفساء الوطن السعودي الكبير، لم يكن بيننا متبوع أو أتباع ولا آمر ومأمور. لقد اجتهد القائمون على تنظيمه أن يشمل كافة الطوائف الدينية في السعودية، وكما ضم كافة التوجهات الفكرية من إسلاميين وليبراليين وتنويريين، بل حتى التوجهات السياسية لم تغب عن المشهد الرائع في ذلك المؤتمر، فكنا نسمع للمعارض كما نسمع للموالي، كلاهما يملك نفس الفرصة ونفس الحق ونفس الأمن في الحديث وإبداء وجهة النظر، ولكن تحت مطرقة رئاسة اللقاء التي تحصر أنفاسك في ثلاث دقائق، لتجبرك على ضغط أفكارك وتركيزها. وكان صوت المثقفات السعوديات الحاضر بقوة في كل جلسات المؤتمر يأتي نديا بالمعرفة قويا بالموقف من الصالة الأخرى، وقد اكتشفنا أن المثقفات منقسمات مثلنا على الضفة الأخرى!. وفي موقع آخر من المقال ذاته يقول «سبح بي الخيال مرة فتخيلت وطني وقد أصبح مؤتمرا كبيرا، ليس فيه ملفات تحت الطاولة، يتصارح فيه الجميع ويأخذون حقوقهم ويؤدون واجباتهم ويقرون بتنوعهم الديني والثقافي والسياسي ويحترمون بعضهم ويمتلئون عاطفة تجاه ربهم ووطنهم ووحدتهم وقيادتهم».

هذا النوع من المكاشفة حول بعض ما جرى في اللقاء، وبعض ما أثاره من مشاعر وأحاسيس للمشاركين فيه، عكس تطورا في آلية الحوار الوطني ذاته، على صعيده المحدود المنظم كما على صعيده العام. وإذا كان اللقاء الأول

الذى جرى فى شبه سرية قد أثار بدوره نوعا من العتاب من قبل العديد من الرموز السعودية فكريا وثقافيا، فقد بدا الحرص على أن يكون اللقاء الثانى نقلة نوعية إلى حد ما. فالإعلام كان موجودا وفق ضوابط معينة، والمرأة شاركت فى اللقاء ذاته من خلال عشر شخصيات نسائية من الإعلاميات والأكاديميات والمهتمات بالشأن الاجتماعى العام، كما أن غالبية الأوراق التى قدمت فى اللقاء نشرت فى صورة ملخصات وافية فى وسائل الصحافة السعودية، كنوع من الشفافية وإشراك المواطن فى معالجة همومه. وكذلك البيان الصادر عن اللقاء فقد تم تعميمه ليدرك الجميع ما انتهى إليه المتناقشون من توصيات وصلت إلى عشرين توصية، رفعت بدورها إلى ولى العهد فى لقاء تم بينه وبين المشاركين فى العاصمة الرياض، لم يخلُ هو أيضا من حوار وطرح للعديد من الأفكار التى تصب تجاه تعميق الإصلاحات وتعميم الحوار والانفتاح على كل مكونات المجتمع السعودى وضرورة مواجهة الغلو فى الدين والتطرف فى الفكر. فيما كان طرح ولى العهد الأمير عبد الله مؤكدا على ارتباط الإصلاحات بالشريعة الإسلامية من منظور الوسطية وأن الأولويات هى «العقيدة والوطن والصبر والعمل» (الوطن، ٤/١/٢٠٠٤)

اللقاء الوطنى الثانى

جاء موضوع الحوار الوطنى الثانى لصيقا بواحدة من أهم القضايا الفكرية والسلوكية التى عكست نفسها سلبا على المجتمع السعودى فى السنوات الأخيرة، واعتبرت مسئولة بصورة أو بأخرى عن نمو جماعات التطرف والعنف الموصول برؤى دينية، وهى قضية الغلو وأسبابها الفكرية والمادية والعوامل المؤدية إليها من الوجهة الشرعية، ودراسة العوامل النفسية والاجتماعية والتربوية والسياسية والاقتصادية والإعلامية المؤثرة فى هذه الظاهرة، سواء من حيث وجودها وتعميمها أو من حيث معالجتها ومحاصرتها. وكان كل من هذه الأبعاد مطروحا فى صورة دراسة أو ورقة عمل، نالت حظها من الحوار المعمق. وقد أوضح د. عبد الله نصيف نائب رئيس لجنة الحوار الوطنى، أحد المسئولين عن ترتيبات اللقاء «أن فكرة الحوار الوطنى هى أن تتسع دائرة الحوار، وأن تشمل جميع المواطنين بجميع فئاتهم وبأفكارهم ومدارسهم الفكرية» (حوار مع د. عبد الله نصيف، الشرق الأوسط، ١٧/٢/٢٠٠٤)

شارك فى اللقاء الثانى ستون شخصية، منهم عشر من النساء، وهى المرة الأولى لهن.

وقد وصف أحد المشاركين اللقاء بأنه أقرب إلى أن يكون حوارا فى برلمان غير منتخب «فاللقاء جاء بمثابة استدراك من القيادة بعد طول انتظار وبعد شدة عناء ومعاناة لغيابه.. حيث تعددت الآراء والاجتهادات فى الماضى وأخذ بما هو أقرب لولى الأمر، واستبعد وحورب وكفر كل ما هو مخالف فى الرأى لهم وأغلق باب الاجتهاد فى إبداء الرأى ومنع الرأى المخالف، وحجبت بعض الآراء وهمشت بعض الشخصيات، ولم اكن أتصور أن كل هؤلاء سيجتمعون يوما وبدعوة من ولى الأمر من خلال المركز الذى أنشأه لأجلهم ولفكرهم للمشاركة بالرأى الآخر» (عبد الله صادق الدحلان، حوار.. فى البرلمان غير المنتخب، الوطن السعودية، ٤/١/٢٠٠٤). فيما أشار كاتب آخر إلى أن التوصيات أبرزت أهمية بروز مؤسسات المجتمع المدنى، كحاضنة لفعاليات الحوار وأنشطته، وباعتبار هذه المؤسسات تلعب دورا أساسيا فى المجتمعات الحديثة، التى تمارس فيها حالة التعددية، وتقر باحترام الرأى والرأى الآخر، وتسود فيها الصيغ الدستورية». (يوسف مكى، مرة أخرى: ملاحظات حول الحوار الوطنى، الوطن السعودية، ١٤/١/٢٠٠٤).



وبينما يستعد مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطنى لتنظيم لقائه الثالث فى رحاب المدينة المنورة، بجوار قبر النبى الطاهر عليه الصلاة والسلام، وموضوعه التعليم والمرأة، يطالب البعض بأن يكون قبل الحوار الوطنى وتأسيس المجتمع المدنى، جهد ملموس من أجل تأصيل مفهوم الولاء الوطنى، باعتبار أن تعميق معانى الاندماج الإيجابى أو مفهوم المواطنة تحت مظلة القيادة الواحدة، ولتجاوز تلك المفاهيم من قبيل القبائل أو الشعوب، التى يريد البعض أن يفرضها أو يقحمها على المجتمع السعودى (د. محمد على الرباعى، تأصيل مفهوم الولاء الوطنى يأتى قبل الحوار والمجتمع المدنى، الوطن السعودية، ١/١/٢٠٠٤). فيما يصر بعض آخر على أن تأسيس المجتمع المدنى هو الآلية الأمثل لبروز مفاهيم المواطنة والوطن الواحد الكبير عمليا، لكن دون القفز على الخصوصيات المحلية للمناطق السعودية المختلفة. (على الخشيبان، صناعة المواطنة، الوطن السعودية، ٣٠/١/٢٠٠٤).

وأيا كانت الأولويات التى يطرحها بعض السعوديين فى مواجهة أولويات أخرى مقابلة أو حتى مضادة لها تماما، فما يجرى فى المجتمع السعودى من حوار وطنى بشقيه المجتمعى العام والمحدود المُنظم، هو شىء جديد ومؤثر بكل معنى الكلمة، وحتما ستكون له نتائج كبرى على مجمل العملية السياسية ومستقبل صناعة القرار، وأيضا شكل المجتمع فى غضون سنوات معدودة مقبلة. ■

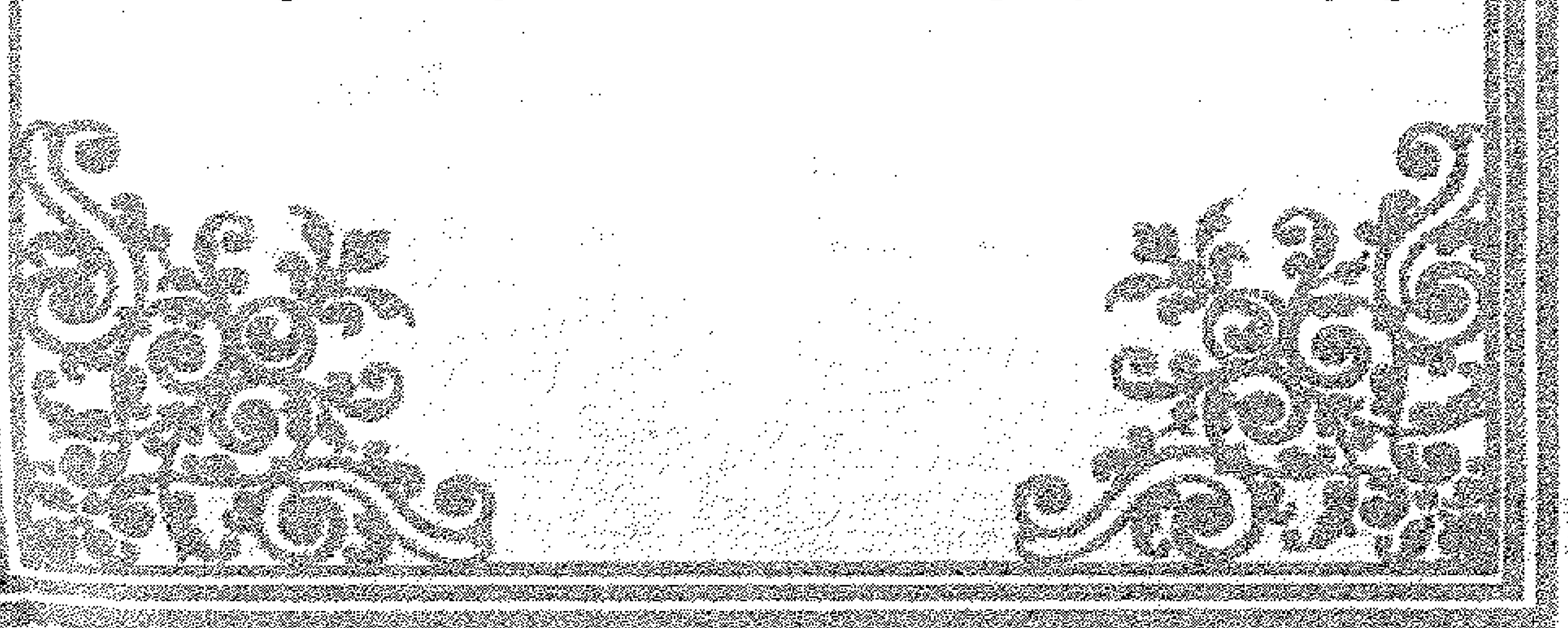


١ - مذكرات الإمام محمد عبده

محمد عبده أحد رواد الإصلاح فى بدايات النهضة المصرية والعربية الحديثة. لعب دورًا فائق الأهمية فى تجديد علاقة الدين الإسلامى بالواقع والمجتمع ونفض عنها غبار الجمود والتخلف الذى ران عليها مئات السنين نتيجة لتوقف علماء المسلمين عن الاجتهاد ومسايرة العصر.

ولد محمد عبده عام ١٨٤٩ ميلادية فى قرية «محلة نصر» بمركز شبراخيت فى مديرية البحيرة وتلقى تعليمه الأولى فى كتاب القرية ثم بالمسجد الأحمدى فى طنطا، لكن صدمه أسلوب التعليم المتخلف وهو نفس الأسلوب الذى كان موجودًا فى الأزهر عندما انتقل إليه. وكان لقاء محمد عبده بالشيخ جمال الدين الأفغانى الذى قدم إلى مصر فى عهد الخديوى إسماعيل بمثابة تحول فى حياته وحياة كثير من المصريين المتعلمين بسبب الأفكار التى بثها الأفغانى فى عقولهم. وقد دخل عبده السجن بعد فشل الثورة العرابية ثم قضى ٧ سنوات من حياته مشردًا منفيًا. اشترك أثناءها فى تحرير جريدة «العروة الوثقى» مع الأفغانى وعاد إلى مصر ليتولى بعد ذلك منصب مفتى الديار المصرية. وفى كل ذلك لم يكف يومًا عن العمل من أجل صلاح الأمة وتقدمها إلى أن توفى عام ١٩٠٥.

وقد اختارت «وجهات نظر» نشر مقتطفات من السيرة الذاتية التى كتبها محمد عبده ولم يكملها وأكملها صاحب المنار السيد رشيد رضا ولم تنشر إلا عام ١٩٣١، ثم أعدها وعرضها للنشر فى الهلال الأستاذ طاهر الطناحى.



الخطـــاب



■ إضافة إلى تداعياته الخطيرة على الأراضى الفلسطينية ومجمل الأوضاع فى الشرق الأوسط، كان اغتيال إسرائيل للشيخ أحمد ياسين المرشد الروحى لحركة حماس فى ٢٢ مارس الماضى، بمثابة حالة ممتازة لدراسة آليات الخطاب الرسمى الإسرائيلى داخليًا وخارجيًا. فبينما خرج رئيس الوزراء أرييل شارون معلنًا فخره بالعملية التى أشرف عليها شخصيًا مهنئًا قواته بهذا «الإنجاز» وكذلك فعل وزير دفاعه وكبار مساعديه وجهت الدبلوماسية الإسرائيلية جهودها إلى شاشات التليفزيون العالمية ومحطات الإذاعة لتبرر «الجريمة» محاولة استدرار عطف العالم بدعوى أن مواطنيها كانوا دائمًا ضحية لإرهاب الشيخ «المشلول والمقعد».

إنه التراوح بين الاستقواء والاستضعاف فى الخطاب الإسرائيلى كما حلله الدكتور قدرى حفنى الذى كتب هذا المقال قبل حادثة الاغتيال.

وجهات نظر

المقصود بتعبير الخطاب السياسى، ذلك الخطاب المعلن الذى توجهه السلطة إلى جمهورها فى الداخل، وإلى العالم المحيط بها من أصدقاء وأعداء، وبهذا المعنى فإن الخطاب السياسى المقصود يندرج ضمن ما يطلق عليه أهل الاختصاص فى الإعلام تعبير «الاتصال الجماهيرى» فى مقابل ما يطلقون عليه تعبير «الاتصال الشخصى» أو «الاتصال المباشر» أو «الاتصال وجهًا لوجه». وتعد ظاهرة الاتصال الجماهيرى حديثة نسبيًا، إذ لم تبزغ الحاجة إليها إلا بعد توافر شروط ثلاثة:

أولاً: زيادة أعداد البشر، حيث إن فعالية الاتصال الشخصى، بحكم طبيعته، ترتبط بصغر حجم الجماعة التى يتم فى إطارها، وتشير نتائج بحوث علم النفس الاجتماعى إلى صعوبة إقامة تفاعل شخصى مباشر بين أفراد جماعة يزيد عدد أفرادها على خمسة عشر فردًا، وكلما قل العدد عن ذلك كلما كان التفاعل أفضل. وإذا ما صدق ذلك على جماعة لا يتجاوز عدد أفرادها العشرين، فكيف بنا إذا ما كنا بصدد الآلاف بل والملايين من البشر. كان لابد من ظهور نمط جديد من أنماط الاتصال إلى جانب ذلك النمط الأصيل للاتصال الشخصى.

ثانيًا: إن أعداد البشر لم تتزايد فحسب، ولكن المساحة المعمورة المأهولة بهم قد ترامت أطرافها وتباعدت. ولم يعد ممكنًا والأمر كذلك أن تفى الأنماط التقليدية الأصيلة للاتصال وعلى رأسها الاتصال الشخصى بإشباع الحاجة الاتصالية للتفاعل بين قاطنى هذه المساحات المترامية الأطراف. ومن ثم تمثلت الاستجابة لتلك الحاجة الجديدة فى حدوث طفرة فى مجال تكنولوجيا الاتصالات وخاصة فيما يتعلق بالبث الإذاعى والتليفزيونى، بحيث يمكن القول إن التباعد المكانى، بالإضافة إلى التقدم التكنولوجى قد ساهما. فضلاً عن التزايد السكانى. فى تشكيل الضرورة الاجتماعية التى حتمت ظهور وانتشار الاتصال الجماهيرى.

ثالثًا: يبقى عامل أخير، لعله أهم العوامل التى تضافرت لتشكيل الضرورة الاجتماعية لبروز دور الاتصال الجماهيرى، وهو تبلور ظاهرة السلطة المركزية، فلقد تطورت الجماعة البشرية من الأشكال القبلية البسيطة العدد، والمحدودة المكان، إلى أشكال أكثر تركيبًا وتعقيدًا. ولسنا بصدد التعرض تفصيلاً لمسار هذا التطور عبر التاريخ البشرى، فما يعنينا فى هذا الصدد هو التوقف قليلاً أمام تطور ظاهرة القيادة، من قيادة القبيلة إلى قيادة الأمة أو الدولة، والدور الذى تلعبه العملية الاتصالية بالنسبة للشكل الحديث للدولة المركزية المعاصرة. لقد أصبحت الدولة المركزية الحديثة فى حاجة إلى نوع جديد من أنواع الاتصال. أصبحت تحتاج نوعًا من أنواع الاتصال يضمن وصول الرسالة من المركز إلى الجماهير المعنية فى نفس لحظة إرسالها، نوعًا يضمن التحكم فى مضمون هذه الرسالة المركزية بحيث تكفل الحد الأدنى المطلوب من تشكيل الوعى الجماهيرى المشترك، وتكفل كذلك تأكيد استمرارية صورة السلطة المركزية لدى الجماهير. ولم يكن من قبيل المصادفة. والأمر كذلك. أن يطلق على هذا العصر «عصر ثورة الاتصالات»، فهو ولاريب عصر بلوغ السلطة المركزية أوجها فى المجتمعات المتقدمة والمتخلفة على حد سواء. وهو فى نفس الوقت «عصر الخطاب السياسى الجماهيرى».



وغنى عن البيان أن مثل هذا النوع من الخطابات يتأثر. بطبيعة الحال. بالأحداث التى تجرى على أرض الواقع، ولكنه لا ينقل تلك الأحداث كما تجرى، بل ولا حتى يفسرها تفسيرًا محايدًا، هذا إذا ما تصورنا أن ثمة خطابًا محايدًا أصلاً، وهو ما نرى استحالته. إن الخطاب السياسى لا يعبر عما حدث بقدر ما يسعى لاستدعاء المطلوب حدوثه من وجهة نظر أصحاب الخطاب. إنه صورة تنتقى مما يحدث ما يصلح بعد إجراء «المونتاج» المناسب، لإحداث الأثر المرجو. ونستطيع أن نصنف الخطاب السياسى بهذا المعنى المحدد إلى نوعين أساسيين:

❖ خطاب سياسى استضعافى يظهر الضعف، أو يتظاهر به، وتقوم أساسًا على إبراز قوة العدو وتفوقه، ومدى ما يمثله من تهديد، واستحالة مواجهة خطره اعتمادًا على القوة الذاتية فحسب، ومن ثم فلابد إلى جانب حشد تلك القوى من السعى بإصرار للبحث عن حلفاء أقوياء يقبلون تقديم المساندة والعون.

❖ خطاب سياسى استقوائى يظهر القوة أو يتظاهر بها، ويبرز القدرة على إحباط مخططات العدو، وضمان أمن الجماهير وسلامتها، اعتمادًا على تلك القوة وحدها دون الاعتماد على مساندة أحد.

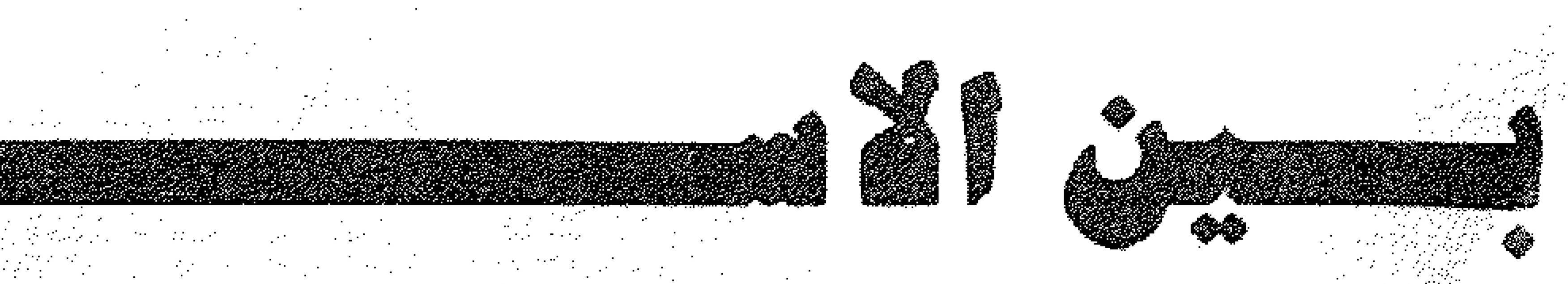
الخطاب الذى نحن بصدد تناوله إذن، خطاب سياسى جماهيرى يصدر عن السلطة فى إسرائيل موجهًا أساسًا إلى الجمهور السياسى، ثم إلى اليهود فى العالم، فضلاً عن بقية المتلقين وفى مقدمتهم أبناء العالم العربى المحيط بإسرائيل.

صــور متداخــلــة

لنقرأ معًا الصور الأساسية التى يتضمنها الخطاب السياسى الإسرائيلى الراهن: صورة «إسرائيل الديمقراطية الليبرالية» التى تسمح لأبنائها بحرية التظاهر والإضراب، فى مقابل صورة «إسرائيل الاشتراكية» صاحبة تجربة الكيبوتز إلى جانب تلك العلاقات التاريخية القائمة بين أحزاب إسرائيلية وأحزاب اشتراكية فى أوروبا، ثم صورة «إسرائيل الدولة الدينية التوراتية» التى تعد المثال الفريد لتجسيد فكرة الدولة الدينية وإمكانية قيامها من حيث المبدأ فى العصر الحديث، فى مقابل صورة «إسرائيل نموذج التقدم العلمى التكنولوجى» دولة العبقرية اليهودية، وصورة «إسرائيل ملجأ اليهود المضطهدين» فالإسرائيليون هم الأبناء المساكين للهولوكوست النازى الرهيب الذين لاقوا عذابًا لم يلاقه بشر غيرهم، وخرجوا من أتون المحرقة النازية يلتمسون وطنًا يؤويهم دون أن يفقدوا قدرتهم على التعمير والإبداع، فى مقابل صورة «إسرائيل القادرة على النيل من أعدائها أينما كانوا» ويفيض الخطاب السياسى الإسرائيلى بصورة لا نهاية لها لمن طالتهم يد إسرائيل القوية من النازيين السابقين والفلسطينيين فى كل مكان، ونستطيع أن نمضى فى استعراض تفصيلى للمزيد من الصور التى يتضمنها الخطاب السياسى الإسرائيلى، ولكننا سوف نقف أمام صورتين محددتين من تلك الصور:

صورة الاستضعاف: «إسرائيل الدولة الصغيرة الغارقة فى الطوفان العربى الإرهابى» والتى تملأ العالم بصور العرب الملثمين وأحزمتهم المتفجرة وأشلاء الإسرائيليين تتناثر مع حطام الحافلات المدمرة.

صورة الاستقواء: «إسرائيل ذات القوة القاهرة» الدولة الوحيدة فى المنظمة التى تمتلك السلاح النووى.



بين الاســـتضعـاف

الإسرائيلى.. والاستقواء!

قدرى حفنى

وتتميز هاتان الصورتان بأنهما يبدوان للوهلة الأولى كما لو كانتا متناقضتين بحيث إن إحداهما تكاد أن تنفى الأخرى نفياً تاماً، فضلاً عن أنهما تكادان تتآنيان بمعنى أنهما يصدران فى وقت واحد كما لو كانا جملة واحدة. والخاصية الثالثة أنهما ظلتا مصاحبتين لدولة إسرائيل منذ نشأتها حتى الآن.

ويقتضينا فهم الظاهرة إلقاء نظرة سريعة على تاريخ الحركة الصهيونية وخطابها السياسى، ثم على تاريخ قيام دولة إسرائيل التى صدر عنها ومازال الخطاب السياسى الذى نحن بصدده.

نظرة إلى التاريخ

فى عام ١٨٩٦، أصدر هرتزل كتابه الشهير «دولة اليهود» الذى طرح فيه بوضوح أن الحل الوحيد للمشكلة اليهودية هو حل سياسى يتمثل فى إنشاء دولة صهيونية، وقد أكد هرتزل فى هذا الكتاب بكل وضوح أنه لكى يتحقق قيام تلك الدولة الصهيونية فلابد من أن يحظى ذلك بموافقة ومساندة إحدى الدول الكبرى، وهو ما التزمت به الحركة الصهيونية إلى أن قامت دولة إسرائيل بالفعل. وغنى عن البيان أن ذلك الالتزام كان يعنى إبراز نغمة الاستضعاف فى الخطاب السياسى الصهيونى. ولقد تكرر التأكيد على استحالة تحقيق الحلم الصهيونى اعتماداً على القوى الذاتية لليهود عبر المؤتمرات الصهيونية المتتالية. ففى المؤتمر الصهيونى الأول الذى انعقد بناء على دعوة هرتزل وتحت رئاسته فى مدينة بازل فى أغسطس ١٨٩٧، أعلن هرتزل بوضوح أن حل المشكلة اليهودية حلاً جذرياً يتطلب بالضرورة مفاوضات سياسية، وضمانات دولية، واعترافاً قانونياً بالمشروع الاستيطانى من قبل الدول الكبرى.

وبدأت الحركة الصهيونية على الفور انطلاقاً من خطابها السياسى الاستضعافى تبحث عن تلك القوة العظمى التى ستمكنها من تحقيق الحلم. اتجه هرتزل فى البداية للإمبريالية الألمانية الصاعدة آنذاك، وفى المؤتمر الثالث الذى انعقد فى بازل أيضاً فى أغسطس ١٨٩٩، عرض هرتزل لنتائج اتصالاته مع القيصر والتى لم تؤد إلى النتيجة المرجوة، ولم يلبث هرتزل أن أدرك تعاظم مصالح بريطانيا فى المنطقة فحول اتجاهه إليها، وعرض فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى انعقد فى بازل فى أغسطس ١٩٠٣ لمباحثاته مع جوزيف تشمبرلين حول مشروع الاستيطان اليهودى فى شبه جزيرة سيناء كوسيلة لمواجهة الثورة الشعبية المصرية التى رآها هو. أى هرتزل. وشيكة الحدوث مما يستدعى وجود كيان سياسى حليف لبريطانيا على حدود مصر الشرقية. ولم تقبل بريطانيا هذه الفكرة، وعرضت عوضاً عنها مشروعاً للاستيطان اليهودى فى أوغندا، وهو ما عرف باسم «مشروع شرق أفريقيا». وقد بلغ حرص هرتزل على حيوية استناد المشروع الصهيونى حد التخلى عن حلم أرض الميعاد، والقبول بما تعرضه بريطانيا العظمى، ولم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لهرتزل الذى خاض معركة عنيفة فى المؤتمر لكسب التأييد لهذا المشروع، إلى أن استصدر من المؤتمر قراراً بإرسال بعثة استكشافية لاستطلاع الموقف على الطبيعة وذلك بأغلبية ٢٩٥ مقابل ١٧٨ وامتناع ٩٨ عن التصويت.



لسنا بحاجة للمضى أكثر من ذلك فى استعراض تطور الحركة الصهيونية. لقد ظل التيار الرئيسى للحركة ملتزماً باستحالة الاعتماد على القوى الذاتية لتحقيق الحلم الصهيونى، متبنياً خطاباً سياسياً يبرز ضعف اليهود وقلة حيلتهم وبشاعة ما لاقوه ويلقونه من اضطهاد، وأن العالم الغربى يتحمل وزر تلك الآلام. ويبرز الخطاب من ناحية أخرى ما يمكن أن تقدمه الحركة الصهيونية من دعم للقوة الدولية التى تقبل مساندتهم، متمثلاً فى «عبقرية» اليهود فى مجالات ثلاثة: العلم، والإعلام، وإدارة المال، وجميعها مجالات تعتمد على قوة العقل بما لا يتعارض مع جوهر الخطاب الاستضعافى.

إلى هنا والأمر يبدو الخطاب الاستضعافى منطقياً إلى حد ما، ولكن المثير للتأمل هو أن هذا الخطاب لم يضمحل بعد قيام الدولة، بل ظل مستمراً إلى جانب خطاب آخر أخذ فى التصاعد بقوة، دون أن يستبعد أى من الخطابين الآخر. وتفسير ذلك يتطلب منا العودة قليلاً إلى ظروف قيام دولة إسرائيل.

قيام الدولة واستمرار الخطاب الاستضعافى

يعلمنا التاريخ أن الأرض والبشر هما البداية، ومن خلال تفاعل جماعة بشرية معينة، فوق بقعة من الأرض، وعبر مراحل تاريخية متشابكة. ينشأ المجتمع وتتبلور العلاقات المتبادلة بين أبنائه بمختلف فئاتهم لتتحدد طبيعة السلطة وشكل الدولة، وأبعادها السياسية والأيديولوجية، وتتحدد بالتالى التنظيمات السياسية المناسبة لتلك الأبعاد، وأخيراً تتشكل المؤسسات العسكرية وفقاً لتلك المقتضيات جميعاً. أما بالنسبة للتجمع الإسرائيلى ومؤسساته العسكرية فقد اتخذ الأمر عكس هذا المسار التاريخى الطبيعى تماماً فخلال القرن التاسع عشر، بدأ النشاط العملى للصهيونية فى أوروبا مستهدفاً الفصل بين الأرض و«البشر» عنصرى البداية التاريخية الأولى. لقد سعت الصهيونية إلى الفصل بين الفلسطينيين و«الأرض العربية» مستهدفة فى النهاية فصل اليهود عن أرضهم وأوطانهم الأصلية، واستنباتهم فى أرض جديدة. ولم يكن بد والأمر كذلك من أن يكون الهدف العملى الأول للصهيونية على الأرض العربية هو إخلاؤها من أصحابها وإعدادها لاستقبال ذلك النبت الغريب، ولم يكن ممكناً أن تتم عملية الإخلاء هذه بهدوء وسلام، بل كان على الصهيونية أن تعد عدتها لانتزاع أصحاب الأرض من أرضهم انتزاعاً. ومن ثم فقد كان «طبيعياً» والأمر كذلك أن تتمثل البداية الأولى للتجمع الإسرائيلى على أرض فلسطين فى صورة «مؤسسة عسكرية»، وكان على المؤسسة العسكرية الصهيونية أن تنشئ الدولة ثم أن تصطنع ذلك «مجتمعاً».

وكان طبيعياً مع ممارسة العنف الصهيونى لترويع الفلسطينيين أصحاب البلاد الأصليين تمهيداً لاقتلاعهم منها أن يبزغ خطاب سياسى جديد يغلب عليه الطابع الاستقوائى، وأن يظل الخطاب الاستضعافى القديم قائماً موجهاً أساساً إلى العالم الخارجى يهوداً أو غير يهود.

لقد نشأ أول التنظيمات المسلحة الصهيونية على أرض فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر متمثلاً فى منظمة الهاشومير وتعنى الحرس اليهودى. والتى وضع بذرتها صهاينة قدموا من وسط أوروبا إلى فلسطين حيث أنشأوا مستعمرة بتاح تكفا. وقد اتخذت منظمة الهاشومير شكلها المحدد حوالى عام ١٩٠٦. واستمرت منظمة الهاشومير فى نشاطاتها إلى أن تحولت على أثر وعد بلفور عام ١٩١٧ إلى المنظمة المعروفة باسم منظمة الهاجاناه، أى الدفاع، وفى عام ١٩٣٦ حصلت منظمة الهاجاناه من بريطانيا على اعتراف فعلى بها كمنظمة للدفاع عن المستعمرات، ومن خلال منظمة الهاجاناه وبترتيب من القيادة البريطانية، تشكلت منظمة البالماخ، أى الفصائل المهاجمة.



وفى ١٩٣٧ تأسست إلى جانب الهاجاناه منظمة عسكرية أخرى هى منظمة أرجون زفاى ليومى أى المنظمة العسكرية لشعب



الخطاب الإسرائيلى بين الاستضعاف والاستقواء

ظل التيار الرئيسى ملتزماً باستحالة الاعتماد على القوى الذاتية لتحقيق الحلم الصهيونى، متبنياً خطاباً سياسياً يبرز ضعف اليهود وقلة حيلتهم وبشاعة ما لاقوه ويلقونه من اضطهاد، وأن العالم الغربى يتحمل وزر تلك الآلام



إسرائيل. وهى تعبير عن انشقاق قام به بعض الصهاينة المتطرفين وعلى رأسهم جابوتنسكى على سياسة الدكتور حاييم وايزمان بدعوى أنه يتبع أساليب متهاونة، وشهد عام ١٩٤٠ تأسيس منظمة عسكرية أخرى هى منظمة شتيرن. وقد أسس هذه المنظمة إبراهام شتيرن أثر انشقاقه على منظمة الارجون. وكان حتماً أن تتبنى تلك المنظمات العسكرية الصهيونية خطاباً استقوائياً يساند ممارساتها حيال الفلسطينيين، وظل الأمر كذلك إلى أن أعلن بن جوريون عشية قيام الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨ قراره بحلها جميعاً واندماجها فى جيش نظامى واحد، أطلق عليه اسم «جيش الدفاع الإسرائيلى». وينبغى أن نؤكد حقيقة تكاد تنفرد بها نشأة إسرائيل، فإلى جانب أن تواجد المؤسسة العسكرية على الأرض كان سابقاً على تواجد المجتمع، فإن جميع تلك المنظمات العسكرية كانت بمثابة الجناح العسكرى لحزب إسرائيلى سياسى صهيونى أوروبى المنبت والنشأة. ومن هنا نستطيع أن نفهم الرابطة بين حزب حيروت ومنظمة الأرجون زفاى ليومى، وبين حزب المابام ومنظمة البالماخ، وبين حزب الماباى ومنظمة الهاجاناه. ومن ثم فلعل التعبير الأقرب للحقيقة هو أن قرار بن جوريون المشار إليه كان يعنى دمج الأجنحة العسكرية للأحزاب السياسية الإسرائيلية فى تنظيم عسكرى واحد.

لقد قامت الدولة إذن، وإذ يعد الخطاب الاستقوائى بمختلف درجاته بالنسبة لأى دولة ضمن آليات تماسكها الداخلى فضلاً عن هيبتها الخارجية، لذلك فقد كان المتوقع أن يخفت بل ويتلاشى خطاب الاستضعاف الإسرائيلى، أو على الأقل أن يوضع فى الخزانة جاهزاً للاستعمال إذا ما دعت الضرورة، مفسحاً المجال للخطاب الجديد، خطاب الاستقواء. ولكن ذلك لم يحدث بل ظل الخطابان معاً مع ما يحمله ذلك من تشويش قد يثير البلبلة وقد أثارها بالفعل فى العقل العربى على الأقل.

لقد كان استمرار الخطاب الاستضعافى الإسرائيلى بعد قيام الدولة مثار تساؤل لدى العديد من علماء النفس السياسى، ونستطيع أن نستشهد فى هذا الصدد برسالة فريدة رغم قدمها، إذ تقدم بها الباحث الأمريكى بارى بليخمان عام ١٩٧٠ للحصول على درجة الدكتوراة من جامعة جورج تاون الأمريكية. لقد استوقفته ظاهرة استمرار إسرائيل فى «انتقامها» من العرب رغم ميل ميزان القوى إلى جانبها بما لايدع مجالاً للشك، ولقد أفرد الباحث جانباً كبيراً من دراسته لتناول الأعمال الإسرائيلية «الانتقامية» فى الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى قبيل ١٩٦٧، ومضمون التصريحات الإسرائيلية التى صاحبت كل عملية انتقامية لتفسير أسبابها وتبرير دوافعها. ويكشف تحليل مضمون تلك التصريحات عن غلبة الخطاب الاستضعافى بشكل واضح، فالاعتداءات الإسرائيلية خلال العشرين عاماً التى شملتها الدراسة لم تكن، وفقاً لذلك الخطاب، سوى محاولة لرد عدوان القوى على المستضعف، إنها لا تستهدف سوى أمرين أولاً: تقليل الاعتداءات التى يشنها العرب على إسرائيل، وثانياً: المساهمة فى إجبار الحكومات العربية على السلوك بشكل أكثر تعاونية حيال إسرائيل، ودفعهم فى النهاية إلى القبول بحل سلمى للصراع.

استضعاف فى ذروة القوة

لقد ظل الأمر كذلك دون تغيير حتى جاءت حرب يونيو ١٩٦٧ لتزيد «التهديد العربى» خفوتاً. فلقد تمكنت إسرائيل فى هذه الحرب، من أن تنزل بالجيوش العربية هزيمة ساحقة. وحققت إسرائيل أو كادت أن تحقق حلم «إسرائيل الكبرى». امتدت الأرض التى تسيطر عليها لتشمل إلى جانب ما حصلت عليه عام ١٩٤٨ كامل الضفة الغربية وقطاع غزة، وسيناء، والجولان، فضلاً عن الجنوب اللبنانى.

لقد أصبح الحلم حقيقة، وكان المتوقع للمرة الثانية أن تتخلى إسرائيل عن خطابها الاستضعافى التقليدى ليحل محله خطاب استقوائى بعد انتصارها خاصة أنها قد أصبحت تمتلك سلاحاً نووياً، ولكن ذلك لم يحدث وهو الأمر الذى استوقف من جديد عدداً من المشتغلين بعلم النفس السياسى، ففى عام ١٩٦٨ نشر الطبيب العقلى الأمريكى ليو الكسندر مقالاً بعنوان «الطب العقلى العسكرى، والاحتلال، ومشكلات اللاجئين فى إسرائيل»، وهو المقال الذى ألقاه صاحبه فى الاجتماع السنوى لجمعية بوسطن للطب العقلى والنيورولوجيا الذى عقد فى ١٢ ديسمبر ١٩٦٧ وكان المقال نتاجاً لزيارة قام بها المؤلف لإسرائيل عقب معارك يونيو مباشرة فى الفترة من ١١ إلى ٢٧ يوليو ١٩٦٧.

إن الظاهرة التى استوقفت انتباه الكسندر ورآها . وبحق . جديرة بالإشارة فهى «تلك الندرة العامة فى احتفالات النصر، وحتى بين وحدات الجيش التى تربط بين أفرادها علاقات وثيقة. وفى بعض المناسبات التى احتفلت فيها وحدات قليلة، لم يحضر القادة تلك الاحتفالات.. إن إسرائيل نفسها لم تشهد احتفالاً يمكن أن يضاهى مثلاً ذلك الاحتفال الذى جرى فى كاتدرائية برن بسويسرا بنفس هذه المناسبة فى الثانى عشر من يوليو، والذى دعا الحاخام المحلى للحديث فيه.



ولقد اكتفى الكسندر فى تعليقه على هذه الظاهرة بالإشارة إلى تفسير أحد علماء النفس الإسرائيليين لها باعتبار أنها ترجع إلى ما كان يستشعره الجنود والضباط الإسرائيليون من أسى لمن فقدوهم من أحبائهم فى الحرب. ولعل سطحية مثل هذا التفسير تبدو واضحة إذا ما وضعنا فى الاعتبار ضآلة حجم الخسائر الإسرائيلية فى حرب يونيو إذا ما قورنت بحجم الانتصار الإسرائيلى.

تُرى لماذا لم يطلق الجنود والضباط الإسرائيليون العنان لفرحتهم بانتصارهم؟ الأمر فيما نرى يمثل ظاهرة نفسية فريدة فى مجال سلوك الجماعات. ظاهرة تعكس مدى تأثير الخطاب الاستضعافى على التكوين النفسى للجمهور فى إسرائيل، بل وحتى على العسكريين. لقد كانت الاستجابة المباشرة للنصر هى القلق والعجز عن إبداء الفرحة، فالانتصار إنما يعنى انتفاء التهديد، وبالتالى انتفاء الشعور بالاضطهاد، أى ذبول الخطاب الاستضعافى.

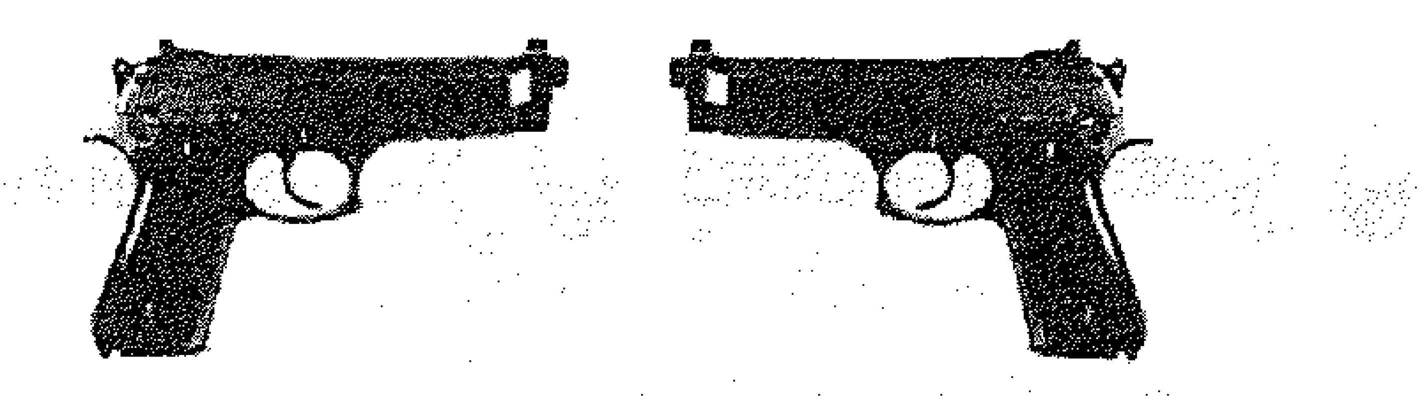
لذلك فسرعان ما بدأ التركيز على أن التهديد العربى مازال قائماً مستمراً: المقاطعة الاقتصادية مازالت قائمة، ومازال العرب يرفضون التفاوض، والدعم العربى لنشاطات المخربين الفلسطينيين «يتزايد».

إن لغة الاستقواء فى الخطاب الإسرائيلى غنية عن البيان، وغنية عن التفسير، لذلك لم نقف أمامها طويلاً، واخترنا أن نقف تحديداً أمام نكبة ١٩٤٨، ثم أمام هزيمة ١٩٦٧، باعتبارهما نموذجين يجسدان إصرار الخطاب السياسى الإسرائيلى على التمسك بنغمة الاستضعاف، فى ذروة الانتصارات الإسرائيلية، ويبقى أن نحاول تفسير ذلك.

محاولة للتفسير

لقد قامت إسرائيل منذ البداية كتجمع استيطانى عسكرى يضم أبناء قوميات عديدة يتباينون فى أصولهم الحضارية، ولم يكن ثمة ما يمكن أن يوحدهم تمهيداً لصهرهم سوى زرع الإحساس بالخطر فى أعماقهم بحيث يستشعرون دوماً أن العالم المحيط بهم، أى العالم العربى، يهددهم بالفناء. مع تأكيد مواز للقدرة العسكرية الإسرائيلية على التصدى لهذا التهديد. وكانت تلك هى المهمة الأساسية التى مارسها باقتدار قادة ومؤسسو إسرائيل، مهمة ترويع يهود إسرائيل لكى يتوحدوا، وتأكيد قدرة الدولة على حمايتهم، ولم يكن النجاح فى هذه المهمة يعنى فحسب توحيد الشارع اليهودى الإسرائيلى فحسب، بل كان يعنى أيضاً تحقيق أهداف استراتيجية ثلاثة لا تقل عنه أهمية بالنسبة لاستمرار بقاء إسرائيل كما هى عليه:

* الهدف الأول: هو ترويع يهود العالم بحيث يتضخم لديهم الدافع للهجرة إلى إسرائيل أو على الأقل فإنهم تحت وطأة الشعور بالإثم والتقصير لا يترددون فى مضاعفة دعمهم المادى والسياسى للوجود الإسرائيلى.
* الهدف الثانى: هو كسب تعاطف العالم الغربى مع إسرائيل.



الخطاب الإسرائيلى بين الاستضعاف والاستقواء

❖ الهدف الثالث: هو محاولة تخدير الشارع العربى، بتدعيم إحساس زائف بأننا. على ما نحن عليه. الطرف الأقوى الذى يثير رعبًا لا حد له لديهم.

نظرة على ما يجرى

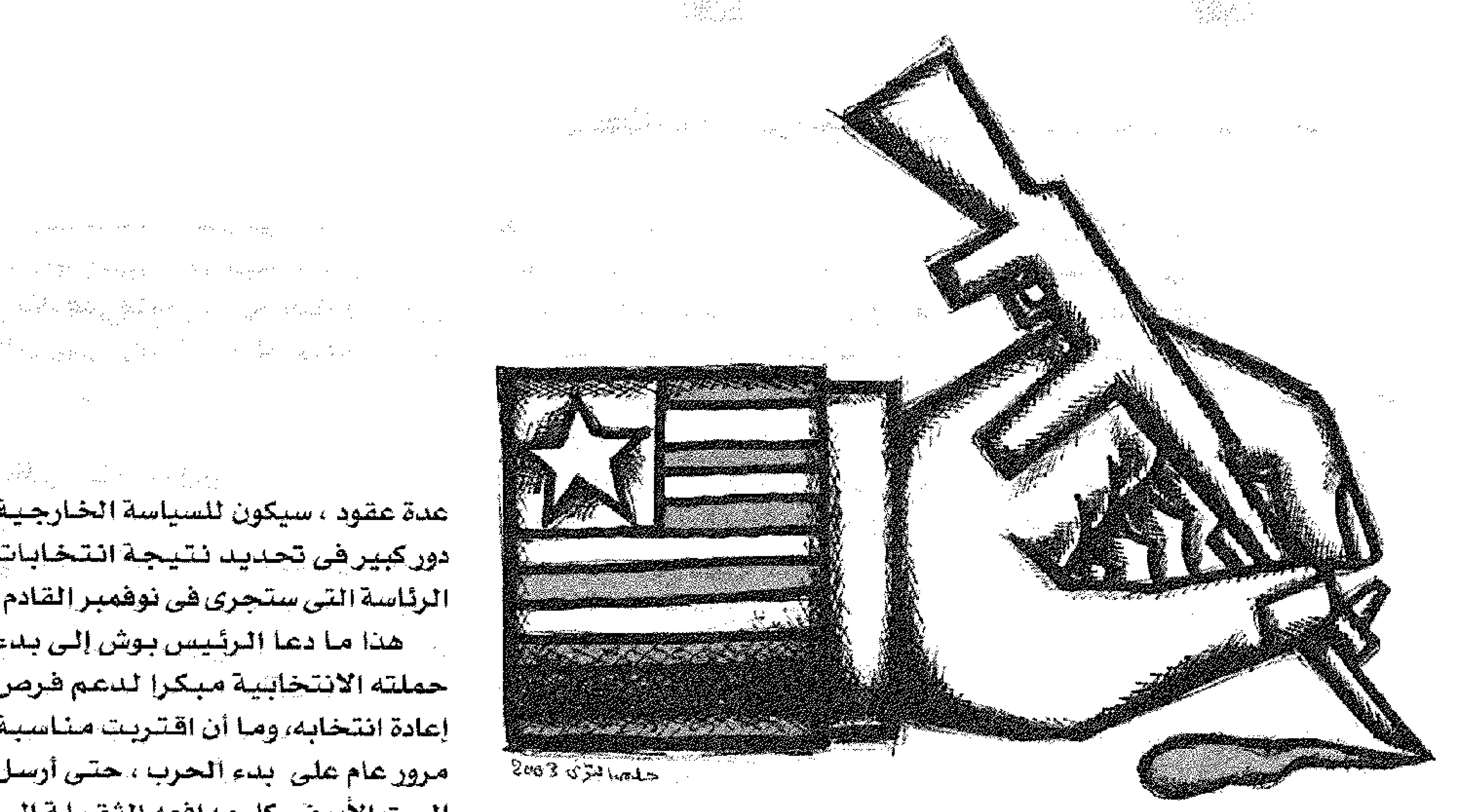
منذ هزيمة ١٩٦٧ حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان تحقيق الحلم الصهيونى بأرض الميعاد قد بلغ ذروته كما سبق أن أشرنا. ومع انتهاء حرب أكتوبر بدأ الحلم يذوى ليعود حلمًا من جديد بعد أن بدأ فى التراجع على الأرض بالانسحاب من سيناء وعودتها للسيادة المصرية وفقًا لاتفاقية كامب دافيد، ثم قيام السلطة الوطنية على أرض فلسطينية وفقًا لاتفاقات أوسلو التى أبرمتها إسرائيل مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتتوالى الأحداث لتجد القيادة الإسرائيلية نفسها أمام «هجمة سلام عربية. عالمية» تكاد تعصف بجوهر بناء الخطاب السياسى الإسرائيلى التقليدى وتدفع بالقيادة الإسرائيلية دفعًا فى اتجاه صياغة خطاب «واقعى» بصورة أو بأخرى، ولم يكن شىء من ذلك فى حسابات تلك القيادة، وبدأ المجتمع الإسرائيلى يشهد بل ويعانى مخاضًا شديدًا بلغ ذروته باغتيال اسحق رابين.

واختارت القيادة الإسرائيلية أن تدفع بخطابها السياسى المزدوج ليبلغ قمة غير مسبوقة: استقواء لا حد له حيال العالم بأسره، استقواء يصل أحيانًا إلى مشارف العلاقة الإسرائيلية الأمريكية، خاصة بعد أن أصبحت الولايات المتحدة تمارس ما شاءت من قوة فى المنطقة العربية دون حاجة إلى الغطاء الإسرائيلى التقليدى. استقواء يجعل إسرائيل تولى ظهرها لجميع مبادرات السلام العربية والأوروبية والأمريكية على حد سواء بل وتنظر باحتقار حتى لتفاهمات جنيف. استقواء يصدم عيون وآذان العالم بأسره وهو يرى الجيش الإسرائيلى يعيث فى الفلسطينيين قتلاً واعتقالاً وحصارًا وتشريدًا وهدمًا للبيوت بل وسرقة للمصارف. والذى يستوقف النظر أن كل ذلك الذى يجرى يتم بثه بالصوت والصورة عبر الأقمار الصناعية بموافقة إسرائيل؛ كما لو كانت الرسالة المقصودة «انظروا كم أنا قوية لا أبالى بأحد؟».

واختارت القيادة الإسرائيلية فى نفس الوقت أن تدفع بخطابها السياسى الاستضعافى إلى ذروته. فهاهى إسرائيل تضع أمام مبنى محكمة العدل الدولية بقايا حافلة دمرها الإرهابيون الفلسطينيون. إنها أبدًا لم ترفض مبادرات السلام. إنها تحاول فحسب ألا يكون السلام على حساب أمن الإسرائيليين الأبرياء. وما الجدار الشارونى الفاصل إلا محاولة للحيلولة دون الإرهابيين الفلسطينيين والنفاذ إلى الشارع الإسرائيلى المسالم.



وهكذا يتم بث الخطابين معًا، خطاب الاستضعاف للتخدير وطلب العون والمساندة وتوحيد الشارع الإسرائيلى، أما خطاب الاستقواء فمحسوب بدقة بالغة بحيث يثير الرعب والفزع لدى الفلسطينيين ومناصريهم، دون أن يتجاوز حدوده فتضيع معالم خطاب الاستضعاف. ولعل دقة تلك الحسابات هى التى تفسر خلو الخطاب الاستقوائى الإسرائيلى تمامًا من أية إشارة ولو تلميحًا لحقيقة أن إسرائيل هى الدولة الوحيدة فى المنطقة التى تمتلك ترسانة نووية. ■



عام على الغزو

■■ فى ٩ أبريل ٢٠٠٣ سقطت بغداد.. أسلمت قيادها للمحتل الأمريكى بعد حرب قصيرة لم تدم سوى ٢٢ يومًا.. واعتبر مجلس الحكم الانتقالى العراقى الذى شكلته قوات الاحتلال لإدارة البلاد بعد صدام حسين هذا اليوم عيدًا للتحرير وعطلة رسمية جديرة بالاحتفال بينما نظر آخرون إلى يوم السقوط على أنه نكبة عربية أخرى تُضاف إلى نكبات عديدة حلت بالعرب على مدى تاريخهم الحديث.

وتداعت أحداث ما بعد السقوط سريعًا ولم يكد يمر يوم دون حدوث انفجار ووقوع قتلى. ورغم أن الهجمات تستهدف فعليًا قوات الاحتلال إلا أن معظم ضحاياها عراقيون.

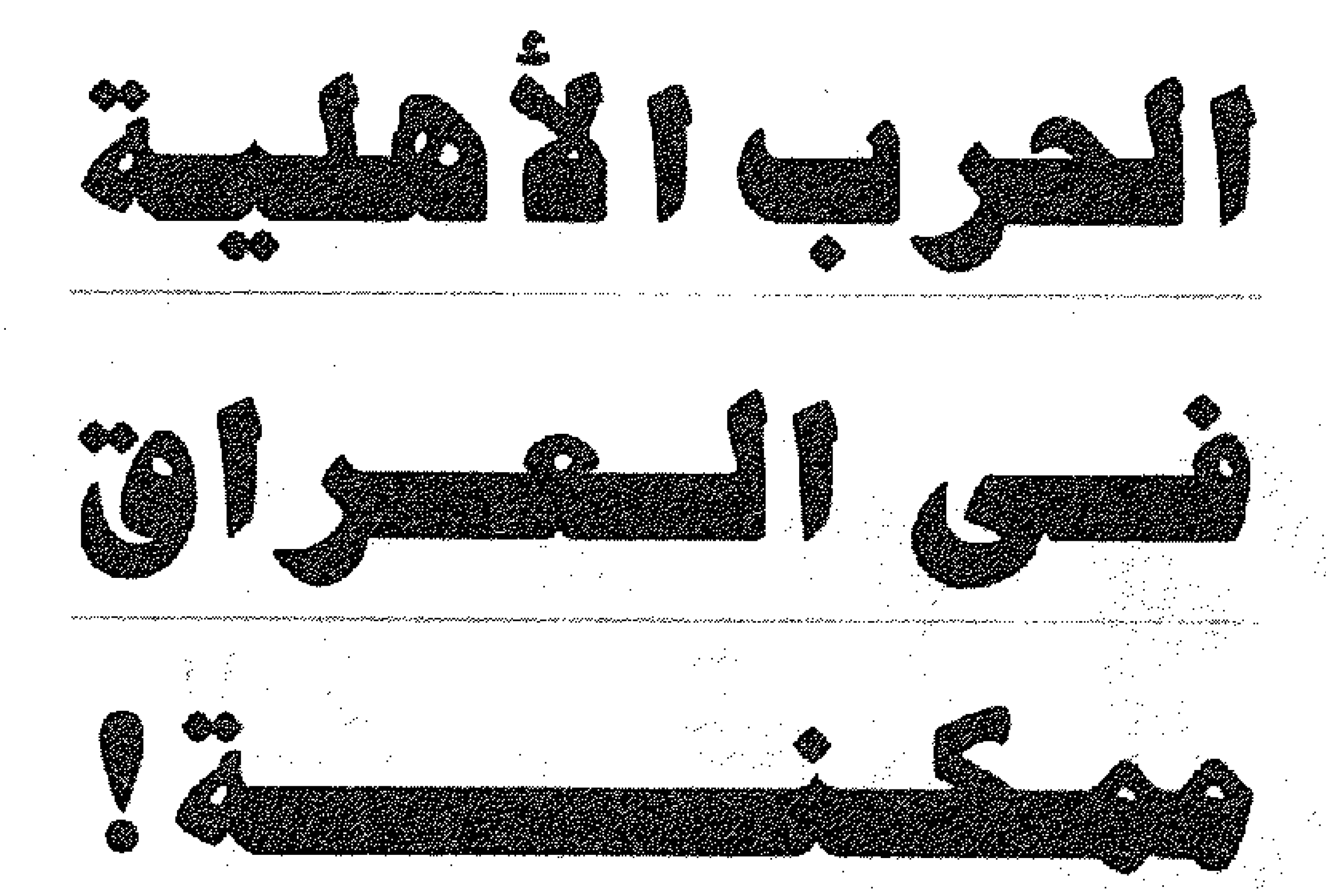
ترافق ذلك، مع محاولات مضنية من مجلس الحكم الانتقالى والإدارة المدنية للاحتلال لإعادة الاستقرار إلى العراق كل ذلك فى بيئة تسودها الفوضى ويسهل معها شن الهجمات دون معرفة هوية المهاجمين.

بعد عام على الحرب/ الغزو.. وسقوط بغداد، ننظر إلى ما جرى ويجرى من موقعين متباينين. ولعلهما الموقعين الأكثر صلة بالحدث.

فى واشنطن يلتقى محمد السطوحى بأنتونى كوردسمان أحد أبرز الخبراء العسكريين الأمريكيين والذى سبق له العمل كمدير لتحليل الاستخبارات بمكتب وزير الدفاع الأمريكى وذلك بعد عودته من زيارة تفقدية لبغداد. ليكتب تقريرًا يضمنه أيضًا حصيلة ما خرج به من المناقشات المستفيضة التى نظمتها مؤسسات بحثية أمريكية حول الموضوع.

ومن بغداد.. وبالأحرى من الفلوجة، والتى توصف كمعقل للمقاومة العراقية يكتب محمد عبدالعاطى مشاهداته المباشرة وما سمعه من الذين التقاهم هناك يحملون السلاح ويطلقون النار.

المحرر



كوردسمان فى حديث إلى وجهات نظر

الحرب الأهلية فى العراق ممكنة!

واشنطن - محمد السطوحى

لم يكن يفصل بين المؤتمرين سوى شارع واحد فقط. وكلاهما كان عن السياسة الأمريكية بشأن العراق. الأول فى مبنى الصحافة القومى بالعاصمة واشنطن، والآخر فى المبنى المقابل بأحد الفنادق. ولكن ما أن انتقلت من مبنى إلى آخر حتى شعرت بأنهما فى قارتين مختلفتين. فى الأول تنديد واتهامات لإدارة بوش وصلت إلى حد مطالبة وزير العدل الأسبق رامزى كلارك بعزل الرئيس الأمريكى، وفى الثانى إشادة وثناء من ريتشارد بيرل وصحبه من المحافظين الجدد على صلابة بوش فى مواجهة الإرهاب، وتأكيد على أن غزو العراق كان ضرورة كمعركة رئيسية فى هذه الحرب، وللإطاحة بنظام حكم صدام حسين وإنهاء مايمثله من خطر بشكل حاسم ونهائى.

هذا الجدل والخلاف ليس إلا نموذجا مصغرا للانقسام الحاد الذى يشهده الشارع الأمريكى بشأن العديد من القضايا الداخلية والخارجية، لكن الانقسام بشأن العراق هو أكثرها تباينا بحيث يعتقد الكثيرون أنه لأول مرة منذ عدة عقود، سيكون للسياسة الخارجية دور كبير فى تحديد نتيجة انتخابات الرئاسة التى ستجرى فى نوفمبر القادم.

هذا ما دعا الرئيس بوش إلى بدء حملته الانتخابية مبكرا لدعم فرص إعادة انتخابه، وما أن اقتربت مناسبة مرور عام على بدء الحرب، حتى أرسل البيت الأبيض كل مدافعه الثقيلة إلى كل (جميع) شبكات التليفزيون الأمريكية فى برامج (الأحد الصباحية) صباح الأحد. فوزير الخارجية كولين باول يتجه إلى شبكتى فوكس وABC ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد يتحدث إلى شبكتى CBS و CNN أما مستشارة الأمن القومى فذهبت إلى الصحفى الشهير تيم راسيرت بشبكة NBC لعلها تفلح فى إصلاح ما أفسده رئيسها فى البيت الأبيض عندما ظهر مع راسيرت قبلها بأسابيع ليبدو تائها وغير قادر على الإجابة عن تساؤلاته الحادة بشأن قرار شن الحرب، وأسلحة العراق ذات الدمار الشامل.

هذا الهجوم الإعلامى المكثف استمر طوال الأسبوع الذى واكب ذكرى بدء الحرب فى التاسع عشر من مارس، وتواصل بعدها بكلمات من الرئيس بوش ومسئولى إدارته، وكلها كانت تسعى بشكل متناغم لتحديد مضمون الرسالة الإعلامية بشأن العراق، وعدم السماح بطغيان الرأى المعارض على موجات الأثير. أما مضمون تلك الرسالة فيتلخص فى نقاط أساسية تمثل إعادة صياغة للأسباب التى استخدمتها الإدارة كمبرر لشن الحرب. فلم تعد تتمثل فى مخزونات الأسلحة الكيماوية والبيولوجية التى تحدث عنها كولين باول أمام مجلس الأمن فى فبراير ٢٠٠٢، وقال دونالد رامسفيلد أمام الكونجرس إننا نعرف مكان وجودها. ولم تعد تطوير العراق للأسلحة النووية التى قال بوش وكوندوليسا رايس إننا لايمكن أن ننتظر دليلا على وجودها، لأن الدليل ربما يتمثل فى سحابة عيش الغراب، (وهو تعبير مجازى عن السحابة التى يشكلها

يشير كوردسمان إلى مايراه من ميل البعض فى العالم العربى لإنكار الحقائق فى العراق لما فى ذلك من ملاءمة سياسية. فهناك زعم بعدم وجود خلافات بين السنة والشيعة، وتجاهل الأكراد والأقليات الأخرى

التفجير النووى و تكون فى شكل عيش الغراب).

أقول لم تعد تلك هى المبررات التى استمعنا إليها مرارا وتكرارا قبل شن الحرب، واستبدل بها الحديث عن وجود برامج لدى العراق وقدرة على إنتاج تلك الأسلحة ، و عن أهمية الإطاحة بنظام حكم صدام حسين، حتى إنه عندما سئل رامسفيلد عما إذا كان الأمر يستحق التضحية بأرواح ٥٦٤ جنديا أمريكيا قتلوا فى العراق، أجاب بحسم : نعم بالتأكيد، لقد حررنا ٢٥ مليون عراقى من صدام حسين. وهى إجابة تتفق مع طبيعة رامسفيلد باستخدام عبارات مباشرة وأحيانا قاسية ، ولابد أنه تعرض عليها للوم من البيت الأبيض الذى تتضمن عباراته (سابقة التجهيز) التأكيد على أن الرئيس بوش يقدر حياة كل جندى، فهو الذى يعانق أهالى الضحايا ويتألم لألمهم ، كما يحرص على التأكيد بأن تضحياتهم لم تذهب هباء ؛ فقد كانوا يؤدون واجبهم بالدفاع عن الوطن، دون أن يوضح المتحدثون دفاعا ضد ماذا. ولا بأس هنا من إضافة عبارة عن مأساة الحادى عشر من سبتمبر ، وأن هؤلاء الجنود يضحون لكى لا نتعرض لهجوم مشابه.

وقد استخدمت إدارة بوش هذا الأسلوب كثيرا قبل شن الحرب لخلق الربط لدى المتلقى بين العراق وهجمات سبتمبر ، دون توجيه الاتهام للعراق مباشرة بالمسئولية عن تلك الهجمات، حيث تسلم الإدارة علنا بعدم وجود دليل على تورط العراق فيها. إلا أن هذ الربط غير المباشر بوضع العراق مع هجمات سبتمبر فى عبارة واحدة، نجح فى خلق الانطباع بوجود ارتباط حقيقى بينهما، حتى إن سبعين فى المائة من الأمريكيين كانوا يعتقدون بأن للعراق علاقة بتلك الهجمات، وذلك حسب بعض الاستطلاعات التى أجريت منذ عدة أشهر. لذلك، فرغم اقتناع أغلبية الأمريكيين بأن إدارة بوش بالغت فى قضية الأسلحة العراقية إلا أن حوالى ستين فى المائة يعتقدون أن واشنطن فعلت الشىء الصحيح وإن كانت هذه القناعة قد اهتزت إلى حد ما بسبب التركيز على هذه القضية فى الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطى.

أهم نتائج هذه الانتخابات هى أنها ساعدت على تحديد ملامح موقف مختلف للديمقراطيين فيما يتعلق بالعراق. وعلينا أن نتذكر هنا أن نسبة كبيرة من الديمقراطيين فى الكونجرس صوتوا لصالح قرار يعطى الرئيس بوش تفويضا كاملا بشن الحرب، وكانوا بشكل عام لا يجرؤون على انتقاد سياسة بوش بشكل صريح فى أى قضية تتعلق بالأمن القومى . ورأينا بعض الأعضاء البارزين مثل السناتور جو بايدن، و زعيم الأقلية بمجلس الشيوخ توم داشل يسردون كل الأسباب التى تبرر التصويت ضد هذا القرار، ثم يصوتون فى النهاية لصالحه. ينطبق ذلك أيضا على السناتور جون كيرى الذى ضمن ترشيح الحزب الديمقراطى له لمواجهة بوش فى انتخابات الرئاسة القادمة. إلا أن مواقف كيرى ومنافسيه فى الانتخابات التمهيدية تشكلت إلى حد كبير بصعود نجم حاكم ولاية فيرمونت السابق هوارد دين ، الذى تزعم الحملة المناهضة لهذه الحرب، ووجد صدى كبيرا بين القاعدة الشعبية للديمقراطيين، مما اضطر كيرى و جون إدواردز و ريتشارد جيبهارت وآخرين إلى تغيير لغة خطابهم جزئيا بالتركيز على انتقاد الطريقة التى ذهب بها بوش الى الحرب دون تشكيل تحالف دولى قوى، مع انتقاد أسلوب إدارته لشئون العراق فى مرحلة مابعد صدام حسين. ومن المتوقع أن تشغل هذه المسألة مساحة كبيرة من اهتمام الرأى العام، ووسائل الإعلام فى الأشهر الباقية حتى إجراء الانتخابات فى نوفمبر القادم. إلا أنه ينبغى ألا يخفى غبار المعركة الانتخابية حقيقة مهمة : هى أن الديمقراطيين بترشيحهم جون كيرى على حساب هوارد دين، قد اختاروا مواجهة بوش فى أمور تتعلق بالتكتيك وليس الاستراتيجية. أو بمعنى آخر فإن الجدل المتصاعد من الآن وحتى نوفمبر لن يكون مرتبطا بفكرة الحرب ذاتها بقدر ما سيركز على أسلوب التوجه إلى الحرب، وإدارتها والتخطيط للمرحلة اللاحقة لها. هذا يرتبط بالطبع بالحملة الرئيسية لجون كيرى، ولن يمنع ذلك استمرار ارتفاع أصوات شخصيات بارزة مثل عضوى مجلس الشيوخ إدوارد كيندى وروبرت بيرد ، ونائب الرئيس السابق آل جور متهمة بوش بخداع الشعب الأمريكى ، أو الكذب فى إعطاء مبررات وهمية لشن الحرب. صحيح أن العبارة الأمريكية القديمة تؤكد على ضرورة أن تتوقف الصراعات السياسية الداخلية عند الحدود البحرية للولايات المتحدة، إلا أنه فى هذا الزمن لم يعد هناك مفر من تسييس كل شىء، بما فى ذلك هجمات الحادى عشر من سبتمبر التى وضعها الرئيس بوش فى أحد إعلاناته لتذكير الأمريكيين بمخاطر هذه المرحلة التى تحتاج إلى قيادة حاسمة. ورغم انتقاده من قبل أهالى الضحايا، إلا أن الرئيس الأمريكى تمسك بموقفه ؛ فهذه هى نقطة قوته لدى الناخبين، ولن يتخلى عنها من أجل إرضاء بعض أهالى الضحايا فى نيويورك التى ستصوت لصالح المرشح الديمقراطى فى كل الأحوال.



احتمالات نشوب حرب أهلية

إلا أنه بعيداً عن الصراعات الانتخابية وعباراتها الصاخبة، ينبغى الوقوف عند بعض الحقائق فيما يتعلق بالموقف تجاه العراق:

فهناك اتفاق بين مختلف التيارات السياسية الرئيسية، الأمريكية وحتى بين الذين عارضوا الحرب منذ البداية، على أن القوات الأمريكية أصبحت موجودة بالفعل فى بغداد، ولا مجال للتراجع عن ذلك أو الانسحاب دون استكمال مهمتها. فذلك سيؤدى إلى تدهور الوضع الأمنى فى العراق وخلق فراغ سياسى قد يؤدى إلى نشوب حرب أهلية بين الطوائف المختلفة فى العراق. إلا أن المهم هنا هو إمكانية وقوع تلك الحرب حتى مع وجود القوات الأمريكية فى العراق. صحيح أن جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية CIA استبعد ذلك فى شهادة له مؤخرا بمجلس الشيوخ ، إلا أن احتمالاتها تظل قائمة لدى عدد من المتخصصين فى شئون المنطقة، ومنهم أنتونى كوردسمان الخبير البارز بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن. وقد التقيت بكوردسمان بعد عودته من العراق ، حيث أعد دراسة مهمة عن الوضع الاستراتيجى هناك بعد الغزو، سأعرض لأجزاء منها فيما بعد. وعندما سألته عن رأيه فيما يثار بشأن إمكانية وقوع حرب أهلية قال بعبارات قصيرة محددة: «إن هذا الخطر حقيقى وممكن، لكنه ليس بالضرورة الأكثر احتمالا. فإذا أدركنا وجود هذا الخطر، وعمل العراقيون والولايات المتحدة والأمم المتحدة وآخرون على تجنبه، فإنه ربما يكون من الممكن منع هذه الكارثة. أما إذا أنكر الناس وجود المشكلة فإن ذلك لن يساعد ، بل قد يؤدى إلى تفاقم الوضع».

وهنا يشير كوردسمان إلى مايراه من ميل البعض فى العالم العربى لإنكار الحقائق فى العراق لما فى ذلك من ملاءمة سياسية. فهناك زعم بعدم وجود خلافات بين السنة والشيعة، وتجاهل الأكراد والأقليات الأخرى. وهنا يعود كوردسمان لاستعراض بعض الأمور التاريخية، فالانشقاق بين السنة والشيعة كما يقول كان أحد الأسباب التى دعت بريطانيا ، القوة المستعمرة فى ذلك الوقت ، لإقامة دولة العراق، فى محاولة لاستغلال الأقلية السنية على حساب الأغلبية الشيعية اتباعا للتكتيك الاستعمارى التقليدى: (فرق تسد). وقد استمر ذلك مع وجود نخبة سنية تحت قيادة صدام حسين، إلا أنها لم تكن نخبة واسعة ، بل عناصر من مناطق شمال وغرب بغداد. وآثار هذه التوترات تظهر الآن، مثلما حدث بشكل مختلف فى يوغوسلافيا بعد وفاة الرئيس تيتو. ويستدل كوردسمان على رأيه بدراسة أجرتها وزارة الخارجية الأمريكية فى شهر يناير الماضى. فعندما سئل العراقيون عن أكثر مايخشونه فيما يتعلق بالأمن والاستقرار، كانت إجابة الأغلبية تشير إلى تصاعد الاشتباكات بين القوات

الأمريكية وعناصر المقاومة باعتبارها عنصر القلق الأمنى على المدى القصير، أما القضية الأخطر لديهم فكانت وقوع صراع بين السنة والشيعة. وهنا يقول كوردسمان: إذا كان العراقيون يخشون ذلك الصراع، فإنه يجب على الجميع أن يخشاه.

تزايد الضحايا من المدنيين العراقيين

❖ ما قاله كوردسمان تؤيده الأرقام والإحصاءات التى حصلت عليها من مؤسسة بروكينجز بواشنطن. فنظرة سريعة إلى تلك الأرقام تشير إلى تزايد خطير فى عدد القتلى والجرحى من المدنيين العراقيين فى العمليات الانتحارية، ووصل إلى ٥٦٦ قتيلا و ١٥٤٧ جريحا (هذه هى الأرقام حتى العاشر من مارس، ولاتشمل ضحايا ما وقع بعدها من عمليات). والأمر الخطير ليس فقط فى ارتفاع هذا الرقم الإجمالى، ولكن فى تزايده المطّرد من شهر لآخر، وتوجه العمليات إلى استهداف فئات معينة على أساس عرقى أو دينى، مثلما حدث فى التفجيرات الأخيرة فى شهر مارس فى كل من بغداد و كربلاء التى أسفرت عن مصرع ١٨١ شخصا وإصابة ٤٠٠ آخرين من بين الشيعة، وكذلك اغتيال أحد أئمة السنة، وبعض التفجيرات فى المناطق الكردية. ويلفت النظر هنا أن عدد الهجمات قل فى هذا الشهر ، لكن عدد الضحايا ارتفع، وهو مايشير إلى تحسن فى التكتيكات المستخدمة، وتوجهها إلى إحداث أكبر قدر من الخسائر بما يحدث صدمة تخدم أهداف المسئولين عن تلك العمليات، و التى قد يكون من بينها إشعال الصراعات الداخلية بين فئات المجتمع العراقى . إن هذه النتيجة لا مهرب منها إذا نظرنا إلى الإحصاء الثانى الذى لا يقل أهمية، الخاص بالقتلى بين الجنود الأمريكيين وكذلك عدد المصابين منهم. فالخط البيانى لها يشير إلى انخفاضها التدريجى بشكل واضح ، وهذا يعود بدون شك إلى نجاح بعض التكتيكات (الأساليب) الجديدة التى تتبعها القوات الأمريكية لتفادى متفجرات الطرق ، أو تقليل فرص استهداف طائرات الهليوكوبتر التى أدى إسقاط عدد منها فى شهر نوفمبر الماضى إلى وقوع أكبر نسبة من الخسائر بين القوات الأمريكية. إلا أن المهم أيضا كما تشير هذه الأرقام، وكما يقول أنتونى كوردسمان هو حدوث تحول أساسى فى شكل العمليات العسكرية لما يوصف بعناصر المقاومة فى العراق من التركيز على القوات الأمريكية، لتصبح صراعا بين العراقيين أنفسهم. ولا توجد إحصاءات دقيقة فى هذا الشأن إلا أن كوردسمان يؤكد أن أغلب القتلى العراقيين خلال الأشهر الماضية، قتلوا بأيد عراقية وليس أمريكية. هذا بدوره يثير التساؤل حول طبيعة المقاومة العراقية، وعناصرها المختلفة، و حقيقة أهدافها من تلك العمليات. وقد ذكر الجنرال جون أبى زيد قائد المنطقة الوسطى المسئول عن منطقة الشرق الأوسط بما فيها العراق، أن العدد الإجمالى لعناصر المقاومة يصل إلى حوالى خمسة آلاف شخص. وكثيرا ما يذكر أنهم يمثلون عناصر من البعثيين السابقين أو الحرس الجمهورى من مؤيدى صدام حسين، أما المجموعة الثانية فهى المقاتلون الأجانب. ونتوقف أولا عند المجموعة الأولى حيث يعتقد الخبير الأمريكى جيرولد بوست إن اعتقال الرئيس العراقى المخلوع وظهوره على شاشات التلفزيون بينما يفحص الطبيب شعره وأسنانه بهذه الصورة المنفرة انهى هالته كزعيم بما يجعل أيا من مؤيديه يتساءل: هل هذا هو الشخص الذى كنت أتبعه وأرتعد منه طوال السنوات الماضية؟ وجيرولد بوست هو أحد العلماء المعدودين فى علم النفس السياسى، وقام بتأسيس ورئاسة مركز خاص لدراسة نفسية بعض الزعماء السياسيين ، فى وكالة الاستخبارات المركزية CIA وركز دراساته بشكل خاص على شخصية صدام حسين . و بوست لهذا السبب يعتقد أن أتباع صدام الذين يواصلون المقاومة فى العراق لايفعلون ذلك من أجله الآن، ولكن بحثا عن السلطة والنفوذ لأنفسهم.

وقد ثار جدل فى الأوساط الأمريكية بشأن قرار بول بريمر رئيس الإدارة المدنية الأمريكية فى العراق بحل الجيش العراقى، وهو ما يخالف الخطة التى كان قد وضعها سلفه الجنرال المتقاعد جى جارنر، وقد أدى هذا القرار إلى فقدان الآلاف من جنود الجيش العراقى وظائفهم ومصادر دخلهم بما جعلهم مصدرا للقلاقل ، بدلا من استخدامهم فى حفظ الأمن المتدهور فى البلاد. إلا أن وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفيلد دافع مؤخرا عن قرار حل الجيش، باعتبار أنه كان قد حل أصلا مع نهاية العمليات العسكرية الرئيسية، ولم يكن من الممكن استخدامهم لحفظ الأمن. إلا أن هناك فارقا بين توليهم حفظ الأمن ، وتجنب أن يكونوا هم أنفسهم مصدرا للإخلال بالأمن، وهو ما ساهم قرار حل الجيش فى حدوثه. إلا أن رامسفيلد بما هو معروف عنه من جرأة فى تصريحاته لم يشأ أن يعلن السبب الحقيقى، وهو كما ذكره راؤول جيريكت بمعهد انتربرايز، ألا يسمح باستمرار سيطرة السنة على الجيش كما كان الحال فى عهد صدام حسين، لأن ذلك كان سيثير غضب الشيعة والأكراد. وقد حاولت الإدارة الأمريكية فى العراق إعادة تشكيل قوات لسد الفراغ الأمنى وتخفيف العبء عن القوات الأمريكية خاصة مع امتناع دول كثيرة عن المشاركة بعدد كبير من القوات. وتم بالفعل تشكيل قوات أمنية يتجاوز حجمها مائتى ألف جندى. ويعزى الفضل جزئيا لهذه القوات فى تقليل حجم الإصابات

عدد العمليات الانتحارية فى العراق منذ الأول من مايو حتى العاشر من مارس ونتائجها

الشهر	عدد العلميات الانتحارية	القتلى	المصابون
مايو	٠	٠	٠
يونيو	٠	٠	٠
يوليو	٠	٠	٠
أغسطس	١	٢٢	١٠٠
سبتمبر	٢	١	٢١
أكتوبر	٩	٥٤	٢٠٦
نوفمبر	٤	٤٨	١٥٠
ديسمبر	١٢	٦٤	٢٢٣
يناير	٦	٤٧	٢٠٧
فبراير	١٦	١٤٩	٢٤٠
مارس ١٠	٤	١٨١	٤٠٠
العدد الاجمالى للمصابين	٥٤	٥٦٦	١,٥٤٧

المصدر: مؤسسة بروكينجز بواشنطن

بين الجنود الأمريكيين، وهو ما أشار إليه وزير الخارجية كولين باول فى جلسة استماع مؤخرا بمجلس الشيوخ. وقد تم توزيع هذه القوات على خمسة أفرع هى: الشرطة ويصل حجمها نحو ٧٧ ألف جندى، وفرق الدفاع المدنى: ٢٨ ألفا، وحرس الحدود: ١٨ ألفا، و حماية المنشآت: ٧٤ ألفا. إلا أن القوة الخامسة وهى الجيش لم يتجاوز حجمها ألفى جندى، بينما كان الهدف المبدئى لها نحو أربعين ألفا. وهو ما يعكس المشاكل الأمريكية فى تشكيل جيش عراقى، خاصة مع ما حدث من تهرب أغلب الجنود من الخدمة لعدم رضاهم عن مستوى الأجور، مقارنة بالأفرع الأخرى. وعندما سألت رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة الجنرال ريتشارد مايرز عن هذا الأمر أجاب بأن الجيش العراقى يجب ان يختلف عن الجيش السابق، بحيث تتركز مهمته فى حماية العراق من التهديدات الخارجية، ولا يشمل ذلك قمع العراقيين كما كان يحدث من قبل. وأضاف أن الأولوية أعطيت لتوفير الأمن الداخلى فى هذه المرحلة، لكن هذا لايعنى تجاهل الجيش الذى قال إنه سيتم تدريب عشرات الآلاف من المنضمين إليه فى خريف هذا العام.

تسيب بين القوات العراقية

إلا أن المثير للقلق حقيقة للجانب الأمريكى هو أن الأعداد الغفيرة للقوات العراقية بأفرعها المختلفة لا تعنى الكثير. فقد عاد كينيث بولاك، خبير الشئون العراقية السابق بوكالة الاستخبارات المركزية، والمحلل السياسى حاليا بمعهد بروكينجز، من زيارة للعراق مؤخرا ليتحدث عن نقص التدريب، والتسيب وعدم الانضباط بين الجنود، حتى إن نسبة كبيرة منهم لا تظهر إلا لقبض رواتبها، ثم تعود للاختفاء. كما أشار إلى استشراء الفساد بين نسبة كبيرة من العاملين فى هذه الخدمات الأمنية المهمة. وهو لذلك يفضل لو أن المسئولين هناك جندوا نصف هذه الأعداد، واهتموا أكثر بتدريبها وانضباطها، فهذا كما يقول كان سيؤدى إلى نتيجة أفضل من الناحية الأمنية.

* أما المجموعة الثانية للمقاومة العراقية فقد كثر حولها الكلام خلال الأسابيع والأشهر الماضية وهى تتعلق بالعناصر الأجنبية من الإسلاميين فى العراق وتتهم بالمسئولية عن بعض التفجيرات التى تزايد عددها فى الفترة الأخيرة. وقد سألت الجنرال مايرز عن تقديراته لعدد الأجانب فى العراق فقال إنهم حوالى ألف شخص، إلا أنه أشار ساخرا إلى أن ذلك الرقم غير دقيق، لأن هذه العناصر لاتسجل أسماءها فى الإحصاءات الرسمية. ومايرز يعتقد أيضا بعلاقة هؤلاء «الجهاديين الأجانب» بمنظمة القاعدة، وبتورطهم فى التفجيرات الأخيرة، مدللا على ذلك بالخطاب الذى سقط فى أيدى القوات الأمريكية من أبو مصعب الزرقاوى فى العراق إلى قيادة منظمة القاعدة، يطلب فيه مساندتها لعملياتهم التى قال إنها تهدف لخلق صراع بين الشيعة والسنة لخلخلة الأمن.

و أبو مصعب الزرقاوى هذا حظى باهتمام كبير منذ ورد اسمه فى البيان المهم الذى أدلى به وزير الخارجية كولين باول فى شهر فبراير من العام الماضى أمام مجلس الأمن الدولى. و قد ذكر باول حينها أن الزرقاوى موجود فى العراق وذلك فى إطار محاولة الربط بين منظمة القاعدة التى قيل إن الزرقاوى على اتصال بها، ونظام حكم صدام حسين.

مبالغة فى تقدير دور الأجانب

إلا أن المتابعة الدقيقة لوضع الأجانب فى العراق، تشير أيضا إلى إمكانية وجود بعض المبالغة فى تقدير دورهم. وقد عدت للأرقام التى أوردها أنتونى كوردسمان فى دراسته التى سبقت الإشارة إليها، فوجدت أنه تم إلقاء القبض على اثنى عشر ألفا للاشتباه فى انتمائهم للمقاومة، كان من بينهم خمسمائة فقط من الأجانب، وكان المشتبه فى وجود علاقة لهم بالقاعدة لا يتجاوز عددهم ٢٥ شخصا، وكان الاشتباه القوى قاصرا على خمسة أفراد فقط. وتجب الإشارة هنا إلى أن هذه الأرقام روجعت فى ديسمبر الماضى، وهى تحتمل بعض التعديل الآن بالزيادة، لكنها لن تغير كثيرا من النسب الموجودة خاصة للأجانب.

وهنا يحدث خلط كثير بين القاعدة وما يحدث فى العراق كما يقول أنتونى كوردسمان.

حيث تتم الإشارة إلى الإسلاميين المتطرفين باعتبارهم ينتمون إلى القاعدة بشكل آلى.

ويضيف الخبير الأمريكى أن ارتباط شخص ما بالقاعدة أو حصوله منها على أموال، لا يعنى بالضرورة أنه عضو فيها بالمعنى الضيق.

فهناك جماعات متطرفة كثيرة فى العراق لديها استعداد للقيام بهجمات وتفجيرات واسعة النطاق، دون أن تكون مرتبطة بالقاعدة بشكل مباشر.

* وربما يكون الربط بين القاعدة وما يحدث فى العراق الآن ملائما سياسيا لإدارة الرئيس بوش.

فقد حاولت أجهزة عديدة الربط بين حكومة صدام حسين وهجمات الحادى عشر من سبتمبر، لكنها فشلت فى ذلك، رغم تأكيدات مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق جيمس وولزى على أن لقاء تم بين محمد عطا أحد المشاركين فى تلك الهجمات، ومسئول فى الاستخبارات العراقية. إلا أن مدير «السى آى إيه» الحالى جورج تينيت شهد فى جلسة استماع بالكونجرس مؤخرا بأنه لا يوجد دليل على ذلك.

وإن كان ارتفاع نسبة

القتلى الأمريكيون فى العراق منذ الأول من مايو ٢٠٠٣

	المقاومة	حوادث	الاجمالى
مايو	٩	٣١	٤٠
يونيو	١٥	١٤	٢٩
يوليو	٣٥	١٢	٤٧
أغسطس	١٤	٢٢	٣٦
سبتمبر	١٣	١٣	٢٦
أكتوبر	٣٣	١٠	٤٣
نوفمبر	٦٨	١٢	٨٠
ديسمبر	٢٥	١٤	٣٩
يناير	٣٧	٧	٤٤
فبراير	١٤	١١	٢٥
مارس ١٠	١	٥	٦
إجمالى القتلى	٢٦٤	١٥١	٤١٥

الأمريكيين الذين يعتقدون بأن للعراق دورا فى هجمات سبتمبر مؤشرا على نجاح جهود الإدارة فى الربط بين العراق والإرهاب، وهو ما استخدمته كأحد مبررات شن الحرب، بحجة تفادى وقوع أسلحة العراق ذات الدمار الشامل فى أيدى عناصر إرهابية.

والمدهش أن ريتشارد بيرل أحد مهندسى الحرب ضد العراق، والرئيس السابق لمجلس سياسات الدفاع فى البنتاجون، اتخذ من الهجمات التى وقعت فى العاصمة الإسبانية مدريد، دليلا على ذلك الارتباط بين القاعدة وصدام حسين.

فالبيان المزعوم لمنفذى الهجمات يقول إنها جاءت ردا على مساندة إسبانيا للولايات المتحدة فى العراق.

وهكذا يعتبر بيرل أن رفض تلك العناصر لوجود القوات الأمريكية فى العراق، هو فى ذاته تأييد لصدام حسين، يؤكد علاقتها به. وهو خلط متعمد تعودنا عليه كثيرا فى الاشهر التى سبقت الحرب وبعدها.

إلا أن القول بوجود أنشطة للقاعدة فى العراق، أصبح فى ذاته سلاحا ذا حدين، حيث يستخدم ذلك الآن من قبل الديمقراطيين، ومرشحهم للرئاسة جون كيرى، للتأكيد على أن سياسة بوش حولت العراق إلى بؤرة للإرهاب جذبت إليها عناصر القاعدة وغيرها من الإسلاميين الذين فشلوا فى إصابة أهداف داخل الولايات المتحدة، واكتشفوا فى العراق طريقا أقرب وأسهل لضرب المصالح الأمريكية.

هل حققت واشنطن أهدافها؟

إذا اعتبرنا أن الإطاحة بصدام حسين فى ذاتها تمثل هدفا استراتيجيا، فمن تحصيل الحاصل القول إن الولايات المتحدة نجحت فى تحقيق هذا الهدف، ولكن باستثناء ذلك تبدو الأهداف الأمريكية الأخرى أقل وضوحا فى طبيعتها أو مدى النجاح فى تحقيقها.

أنتونى كوردسمان يقول إن الولايات المتحدة نجحت فى منع العراق من انتاج أو نشر الأسلحة، ولكن أى أسلحة تلك؟

ماذا إذن عن القضاء على التهديد العراقى الملح؟ هنا يسلم كوردسمان بأن واشنطن فشلت فى ذلك، فالتهديد الملح لم يكن له وجود أصلا. (يلاحظ هنا أن الإدارة الأمريكية غيرت إلى حد ما من توصيفها لطبيعة التهديد العراقى. فقد تحول من كونه تهديدا ملحا أو وشيكا، إلى القول الآن بأنه لم يكن من الممكن الانتظار إلى أن يصبح الخطر وشيكا، كما ورد فى خطاب أخير للرئيس بوش بقاعدة عسكرية بولاية كينتاكى)

❖ الهدف الاستراتيجى الآخر لواشنطن كان مرتبطا بالإرهاب، ومنع إمكانية وقوع أسلحة العراق ذات الدمار الشامل فى أيدى الإرهابيين. وعلى فرض أن العراق كانت لديه بالفعل هذه الأسلحة، فهو كما قال لى مستشار الامن القومى السابق برنت سكوكروفت الذى يعمل حاليا كمستشار للرئيس بوش لشئون الاستخبارات الخارجية، قال إن العراق يمثل مشكلة، لكنها ليست مشكلة إرهابية.

❖ أما عن الهدف الاستراتيجى بتحويل العراق إلى دولة ديمقراطية عصرية تتمتع بالحريات، وباقتصاد السوق الحرة، فإن هذا الأمر كما يقول أنتونى كوردسمان، يستغرق سنوات طويلة وربما عقودا لكى يتحقق، وسوف يتعين على الولايات المتحدة أن تغادر قبل أن تظهر نتائج هذه التحولات إلى النور.

❖ أحد الأهداف التى تحدث عنها كوردسمان أيضا هو إزالة تهديد عسكرى محتمل لإسرائيل، إلا أنه يشكك فى أن يكون النظام الجديد أكثر تعاطفا مع إسرائيل من أى دولة عربية أخرى.

وحقيقة الأمر أن العامل الإسرائيلى لايمكن إغفاله هنا، رغم عدم اتفاقنا مع القول بأن العراق المحاصر المنهك كان يمثل تهديدا حقيقيا أو محتملا لإسرائيل، ومع هذا فإن المؤكد أن أنصار إسرائيل فى واشنطن دفعوا بقوة تجاه هذه الحرب. وقد كانت إحدى حججهم العلنية، أن الإطاحة بنظام صدام حسين سيضعف من القوى الراديكالية فى المنطقة، بما يساعد على تحقيق السلام. فالطريق إلى القدس كما قالوا، يمر عبر بغداد. والآن يبدو هذا الكلام ساذجا مع تصاعد العنف فى الأراضى الفلسطينية أكثر مما كان عليه، بما يؤثر سلبا على فرص الاستقرار فى العراق، حتى إن وزير الدفاع السابق ويليام كوهين قلب العبارة السابقة ليقول إن الطريق إلى بغداد، يمر عبر القدس.

الأمر اللافت للنظر هنا، أن تلك المجموعة من مؤيدى إسرائيل هى التى تقول الآن إنه لا سلام فى المنطقة بدون تحقيق الديمقراطية فى الدول العربية. وهذا يجرنا إلى النقطة التالية، التى يكررها الرئيس بوش فى كل أحاديثه الآن، وهى أن العراق يمثل نموذجا يحتذى به فى العالم العربى فى عملية الإصلاح والتحول الديمقراطى. إلا أن هذا يستدعى أولا نجاح هذا التحول فى العراق.

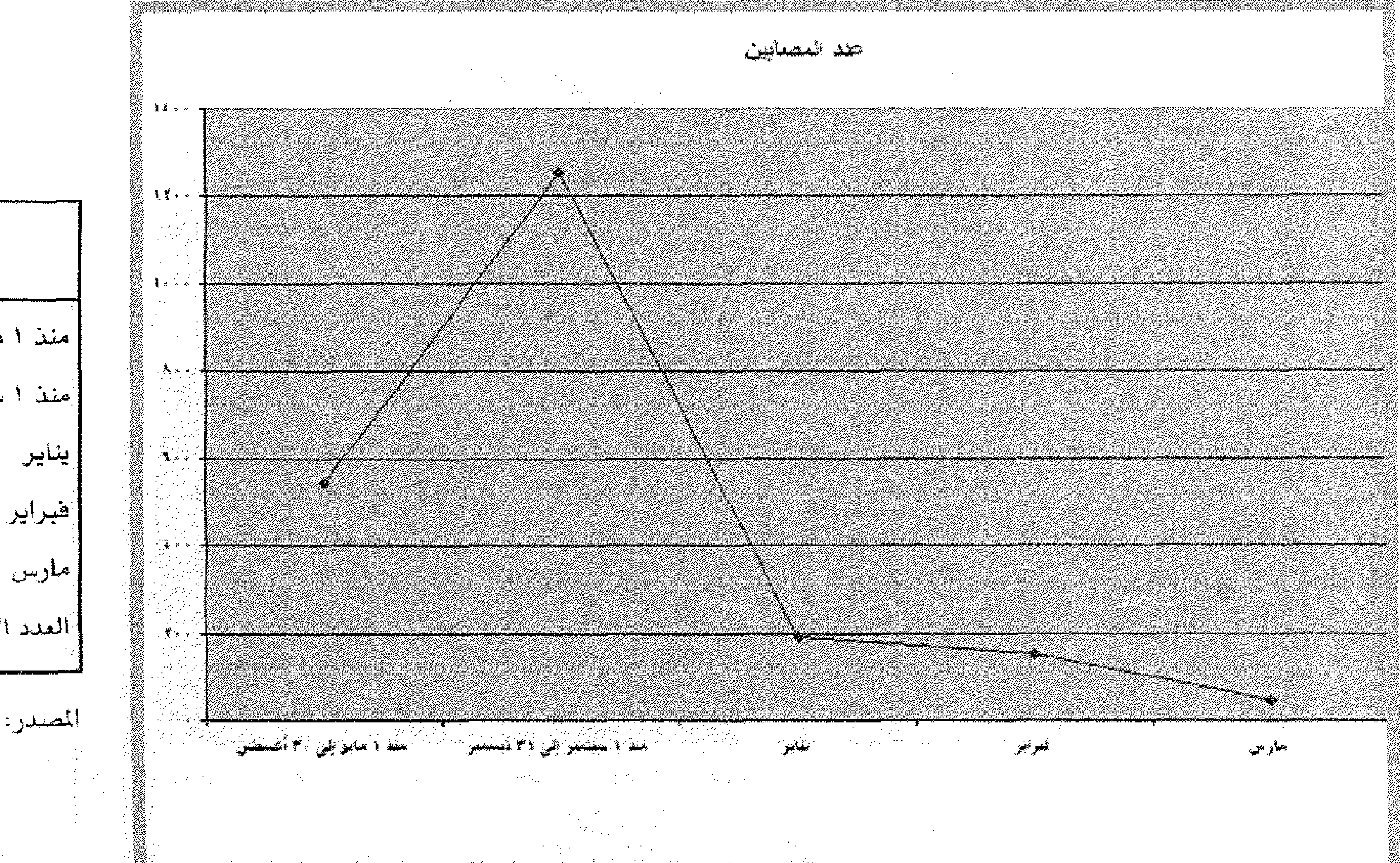
وواشنطن تحتفى كثيرا هذه الأيام بالتوقيع على الدستور العراقى المؤقت باعتباره إنجازا مهما على هذا الطريق. لكن توقيع أعضاء المجلس الحاكم الذين عينتهم واشنطن على تلك الوثيقة شىء، وخلق ديمقراطية تستند للتعددية والحريات المدنية وحقوق الإنسان واقتصاد السوق، والتوازن العرقى والطائفى فى الواقع العراقى المعقد شىء آخر تماما.

وهذا إن نجح فإنه سيستغرق وقتا طويلا، لا يعتقد كوردسمان كما ذكرنا سالفا أن الولايات المتحدة يمكنها أن تستمر فى العراق إلى أن يتحقق.

وحتى إن حدث ذلك، فإن الخبير الأمريكى يرى من غير المنطقى الحديث عن تطبيق التجربة العراقية فى أى دولة أخرى مجاورة.

فلكل دولة كما يقول ظروفها المختلفة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، بما يستدعى وصفة خاصة بكل دولة على حدة.

عدد المصابين الأمريكيين فى العمليات العسكرية منذ الأول من مايو



الفترة الزمنية	عدد المصابين
منذ ١ مايو إلى ٣٠ أغسطس	٥٤٧
منذ ١ سبتمبر إلى ٣١ ديسمبر	١,٢٥٦
يناير	١٩١
فبراير	١٥١
مارس	٤٤
العدد الإجمالى حتى ١٠ مارس	٢,٢١٦

المصدر: مؤسسة بروكينجز بواشنطن

الاستخبارات الخاطئة:

مع عودة دافيد كي الرئيس السابق لفرق التفتيش الأمريكية عن أسلحة العراق ذات الدمار الشامل بتقرير يؤكد عدم العثور على تلك الأسلحة ، بدأت زوبعة سياسية زاد منها المنافسة بين المرشحين الديمقراطيين فى انتخابات الرئاسة. ووجهت الاتهامات المتعاقبة للإدارة بالتلاعب بالمعلومات الاستخبارية قبل الحرب لإقناع الرأى العام الأمريكى والكونجرس، بضرورة غزو العراق، تنفيذا لاستراتيجية الحرب الاستباقية التى تبناها بوش بعد هجمات سبتمبر.

أغلب الجمهوريين من جانبهم، ركزوا على ان ما حدث كان خطأ فى تقدير أجهزة الاستخبارات ، ساعد عليه تاريخ صدام حسين وعدم تعاونه مع فرق التفتيش الدولية بالكشف الكامل عما حدث لأسلحته. ولا تزال هذه القضية ساخنة وربما لن تهدأ قبل انتخابات نوفمبر القادم. إلا أن تأثيراتها الحقيقية ربما تنعكس على مفهوم الحرب الاستباقية ذاته. فإذا كانت الولايات المتحدة تصر على مهاجمة أى دولة أو جماعة تعتقد أنها تمثل تهديدا لها، فمن المهم أن تستند فى ذلك إلى معلومات استخبارية دقيقة، فلا يمكن شن الحرب بناء على تكهنات أو تخمينات. ولو استمعنا إلى مايقوله الرئيس بوش، فهو ببساطة يقول أنه لو علم قبل الحرب بما يعرفه الآن، لما تردد فى فعل الشىء ذاته بمهاجمة العراق.

ولاشك أن بوش يعنى مايقوله. يؤكد ذلك ما أظهره من حسم وتصميم فى السنتين الماضيتين إلا أن المشكلة تبدو فى الدول التى تحتاج الولايات المتحدة إلى مساندتها فى الحرب ضد الإرهاب. فبعد الخلاف الكبير مع ثلاثى المعارضة: روسيا وفرنسا و ألمانيا، فإن بوش يواجه الآن تمردا من إسبانيا بقيادتها الاشتراكية الجديدة، وحتى بولندا التى تقود مجموعة من القوات متعددة الجنسيات، ألمح رئيسها لإمكانية سحب قواته مبكرا فى بداية العام الماضى، بعد أن ذكر أن بلاده خدعت فى مسألة الأسلحة العراقية.

ورغم بوادر التراجع البولندى عن هذا التهديد، فإن السؤال يظل قائما: ماذا لو طلبت واشنطن من تلك الدول مساندتها فى حملة مشابهة ضد إيران، أو سوريا أو كوريا الشمالية، بحجة أن هذه الدول تنتج أسلحة دمار شامل أو لأسباب أخرى؟

الأمر الواضح أنها ستواجه صعوبة أكبر حتى من تلك التى وجدتها فى بناء تحالف لمواجهة العراق.

تحالف الديمقراطيات:

ويقول الخبير الأمريكى كينيث بولاك إنه من خلال اتصالاته بعدد من المسئولين فى بعض الدول، لا يعتقد أن الحكومات الأجنبية سترد بأنها لم تعد تثق فى المعلومات المقدمة من واشنطن، فاستخبارات هذه الدول وصلت إلى نفس النتيجة الخاطئة بشأن أسلحة العراق، لكن هذه الحكومات ستتعرض لضغوط شعبية أكبر لمواجهة الضغوط الأمريكية، ورفض الانسياق وراء أى مغامرة عسكرية جديدة. فهذه كما يقول هى معضلة بناء التحالفات الديمقراطية. وهنا يجب أن نتوقف عند نتائج استطلاع هام للرأى العام فى أربع دول أوربية وأربع دول إسلامية بالإضافة للولايات المتحدة، أجرته مؤسسة PEW للأبحاث، وأشرفت عليه وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت. وقد أوضحت نتائج هذا الاستطلاع بما لا يدع مجالا للشك تزايد الفجوة الأطلسية بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين. فالأمر ليس متعلقا فقط بمعارضة أغلبية الشعوب الأوروبية للحرب على العراق، فقد زادت الحرب أيضا من حنق الأوروبيين على سياسات واشنطن، وأثرت سلبا على النظرة للولايات المتحدة فى أوروبا والعالم الإسلامى.

لقد تعودنا خلال العامين الماضيين على سماع الكليشيهات المحفوظة فى وسائل الإعلام الأمريكية عن أن النظرة المعادية للولايات المتحدة فى الدول الإسلامية ترتبط بافتقادها الديمقراطية، وأن المعلومات الصحيحة لا تصل إلى الناس لعدم توافر حرية الإعلام، وهى مبررات لايمكن تكرارها عن أوروبا، وهو مايعنى أن واشنطن تواجه تحديا كبيرا ليس فقط لكسب الشعوب الإسلامية، ولكن أيضا الشعوب الأوروبية. و مواجهة هذا التحدى لاتكون بالاكتفاء بإنشاء محطات تليفزيونية وإذاعية موجهة، ولكن بنظرة جادة و نقدية إلى الذات لاتكتفى بلوم الآخرين، بل تتفهم أسبابهم ودوافعهم وتستجيب لمخاوفهم ومشاكلهم مع السياسات الأمريكية، وهو ما يتطلب حوارا جادا فى الأوساط السياسية والفكرية والإعلامية بالولايات المتحدة. ومن المؤسف أنه بعد عام من غزو العراق، لم يكن لدى أحد وقت لذلك وسط غبار المعركة الانتخابية. ■

كوردسمان: عن العراق والمستقبل



● أعتقد أن جعل المجلس الحاكم مسئولاً عن أى شىء يعنى ببساطة إصابة العراق بالشلل. فأنا لا أرى فيه زعماء يمكنهم الزعم بتمثيل الشعب العراقى أو حتى إظهار قدرتهم على القيادة أو العمل معاً. وهم مهتمون أكثر بمناصبهم وبالبقاء فى السلطة أكثر من اهتمامهم بمصالح البلاد، لذلك يوجد الآن خياران لنقل السلطة: الأول هو توسيع المجلس الحاكم بضم عراقيين من غير العائدين من المنفى وهذا سيساعد على المدى القصير، أما الخيار الثانى فهو إجراء انتخابات بأسرع وقت ممكن، وليس بالضرورة فى يونيو أو يوليو، فالمهم هو تشكيل حكومة أكثر شعبية وأن تكون مسئولة أمام الشعب.

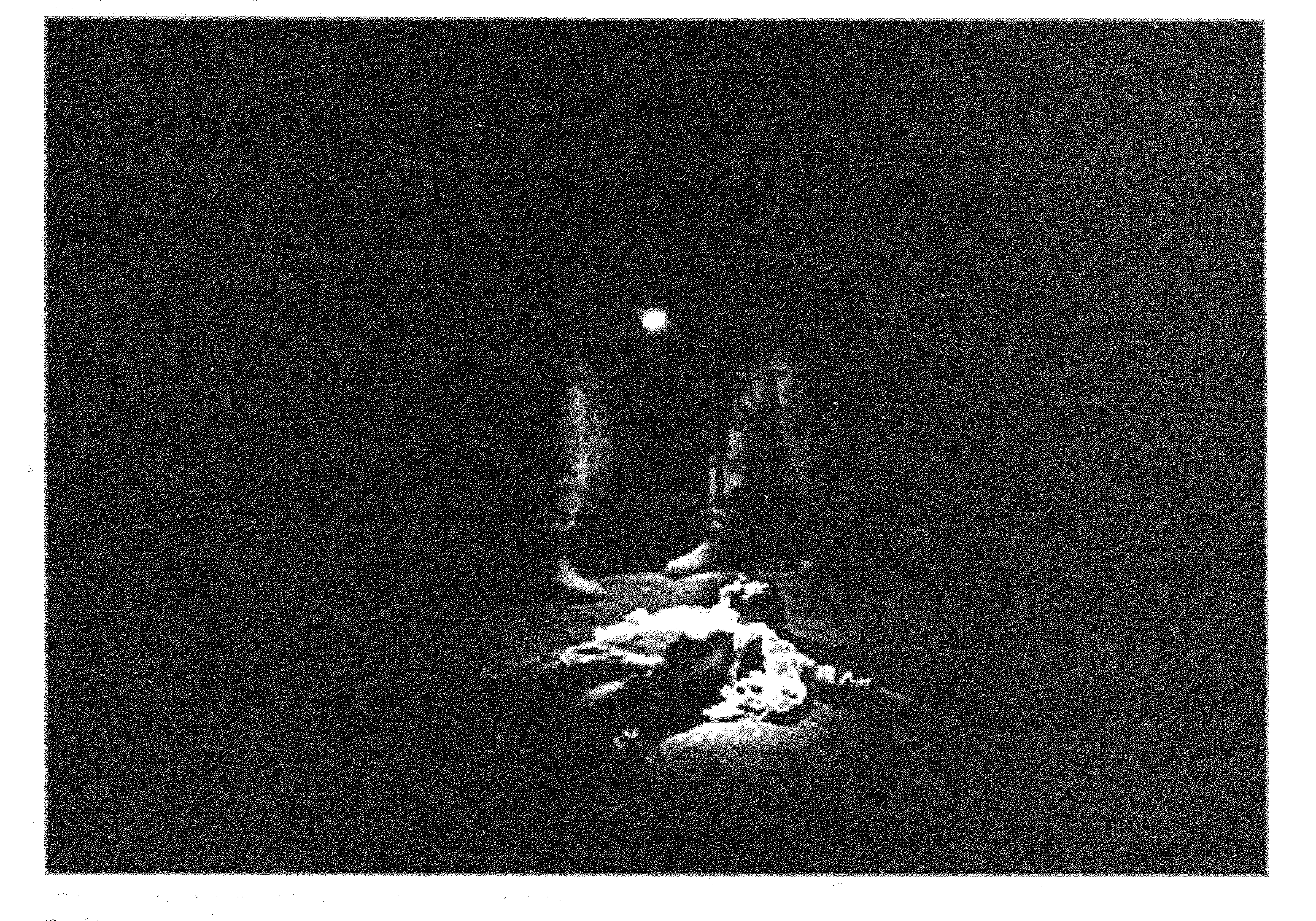
● المهم هو خلق فرص للعراقيين. فالبعض يتحدث عن دور صدام حسين فى إعادة تشغيل البنية الأساسية فى العراق، لكن أغلب الاستثمارات فى هذا المجال توقفت منذ عام ١٩٨٤ عندما كان تعداد سكان العراق ١٦ مليونًا، بينما تعداده الآن ٢٦ مليونًا. كذلك يتحدث البعض عن قدرات الشعب العراقى المتعلم جيداً، لكن نظام التعليم هناك انهار منذ عام ١٩٨٢. وهذا يعنى أن أكثر من ٤٠٪ من العراقيين ولدوا بعد انهيار التعليم، مع تصاعد الحرب العراقية الإيرانية. والآن أمام العراقيين الفرصة للتحرك للأمام نحو التنمية والديمقراطية وبمساعدات أجنبية كبيرة، لكن ذلك سيستغرق عقداً من الزمان على الأقل لتحقيق النجاح والاستقرار.

● العراق لن يكون نموذجاً للتغيير والإصلاح فى المنطقة، فهناك ٢٣ دولة لها نظم سياسية متنوعة، ومستويات مختلفة للتنمية، كما أن التغيير سيأتى أساسا من داخل كل دولة على حدة. والتجربة التاريخية للتنمية بعد الحرب العالمية الثانية تثبت أن الدول التى التزمت بالإصلاح الاقتصادى والديمقراطى حققت تقدما سريعا كما حدث فى آسيا، أما الدول التى انتظرت الآخرين، أو اعتمدت على المساعدات الخارجية فهى إما تجمدت فى موقعها ، أو تأخرت.

● بعد عام من الآن، أتوقع أن تكون الانتخابات أجريت، مع استمرار التوتر، ربما تكون هناك عمليات مقاومة ، ولكن بدرجة أقل. الإصلاحات الاقتصادية ستكون بدأت، ولكن مجرد بداية.

● إذا كان التفاؤل هو إنكار وجود التاريخ، أو أن القوى التى شكلته فى الماضى هى نفسها التى ستشكل المستقبل، فإننى لست متفائلاً. ولكن إذا كان هذا هو تعريف التفاؤل، فهو يقترب كثيراً من تعريف الحماقة.

● النظام الفيدرالى يضع قيودا على الأغلبية، ويعطى نفوذا للبعض يفوق نسبتهم السكانية. وهذا سيكون الأساس لإقامة دولة ديمقراطية فى العراق، لذلك فإن أغلبية السنة لن تكون من الخاسرين. فهى أساساً لم تكن لديها السلطة فى عهد صدام حسين، باستثناء عناصر قليلة من كوادر حزب البعث، بينما كانت أغلبية السنة تعانى مثل بقية الشعب العراقى، ونشأ جيل كامل من السنة فى عراق أفقره صدام حسين قبل حرب الخليج بفترة طويلة، واستمر الحال بعد ذلك مع العقوبات الدولية. ومن هنا فلو أن الحكومة الجديدة حفظت حقوق السنة وتحركت لتحقيق التنمية الاقتصادية، فإن الأغلبية العظمى من السنة ستكون هى الرابحة حتى لو لم يكن منها ديكتاتور مسيطر. ولكن من المهم الإشارة إلى أن الفراغ السياسى الذى نتحدث عنه هو موجود أساساً فى المناطق السنية، لأن القادة السنيين لايمكنهم الظهور وسط مقاومة عسكرية مستمرة، لذلك فإن عمليات المقاومة التى يخطط لها باسم حماية السنة أو استعادة سلطتهم، هى فى الحقيقة تضعف دورهم. على الأقل فى المستقبل القريب. فى تشكيل الحكومة والانتخابات.



من يطلق النار

الفلوجة: محمد عبد العاطى

اشتهر عن الرصاص فى العراق أنه غالبا مجهول النسب والهوية، وكثيرا ما يغلق ملف ضحيته بسرعة ويقيد الحادث ضد مجهول. فهل حقا من يطلق الرصاص فى العراق مجهول؟

كنت مهموما طوال أسبوعين قضيتهما فى العراق مؤخرا (٢٠ فبراير إلى ٣ مارس) بالبحث عن إجابة لهذا السؤال.

طرحته على كل من تسنى لى مقابلته هناك، سائقى السيارات، باعة الأسواق، رواد المقاهى، نزلاء الفندق، علماء الدين سنة وشيعة وصابئة ومسيحيين، سياسيين شيوعيين وليبراليين وإسلاميين، أمريكان عسكريين ومدنيين.

لكنى رغم كل ذلك لم أشعر بارتواء معرفى يقربنى ولو قليلا مما أريد. سمعت مئات القصص وعرضت على عشرات التفسيرات لكنها جميعا لم تكن مقنعة بالقدر الكافى، كثيرا ما اختلطت فيها المعلومات بالظنون، وتلونت التحليلات بميول وأهواء وتوجهات مصادرها.

وكثيرا أيضا ما شعرت -خاصة فى بعض الليالى التى كنت أقوم فيها فزعا على أصوات انفجارات أو طلقات أعيرة نارية تشق صمت ليل بغداد المخيف وتهتك ستره- أن رحلتى ستنتهى دون أن أعرف من وعلى من ولماذا وكيف ينطلق الرصاص فى العراق.

بت حقا فى حيرة من أمرى. هل أحزم أمتعتى وأرحل من هذا المكان حاملا معى تساؤلاتى الحائرة وأعود إلى بيتى وأولادى راضيا من الغنيمة بالإياب؟ أم أختم رحلتى بتلك المحاولة التى ترددت فى تنفيذها وحاولت أن أجد لنفسى الأعذار للابتعاد عن خوضها تارة تحت مبرر: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وتارة أخرى عملا بالمثل الشهير «من خاف سلم»؟

بالفعل كان القرار صعبا. اختلطت لدى قبل الإقدام عليه معانى الشجاعة بالتهور، وماعت تقديرات عواقب الأمور فلم أعد أعرف أهى مغامرة أم مخاطرة، وتلاشت الفواصل بين حقيقة الدوافع التى تحركنى.

لكنى فى النهاية لململت كل خواطرى واستجمعت ما تبقى لدى من عزيمة وأخبرت السائق أننا سنتوجه فجر غد إلى إحدى أخطر بقاع العراق «مدينة الفلوجة» لنستكمل من هناك تكوينات مهمة فى الصورة، ونتحاور وجها لوجه مع أطراف مؤثرة تضغط على الزناد. وكان بالفعل تحركا يستحق، حيث أضاف لقراءة المشهد الكثير. وفى النهاية كانت بانوراما إطلاق الرصاص فى ساحة الرماية العراقية على النحو التالى:

أولا: الرصاص الأمريكى

أول أنواع الرصاص المنطلق فى ساحات الرماية العراقية هو الرصاص الأمريكى، وله من وجهة نظرى حالات ثلاث، اثنتان منها معلومتان لأنهما مشاهدتان للعيان والثالثة لا تزال تنتظر كشف اللثام لتخرج من كونها مجرد تخمينات إلى حيز الحقائق والمعلومات. ويمكن إدراج الحالات الثلاث هذه تحت العناوين التالية:

١. رصاص يستهدف عناصر للمقاومة مرصودة استخباراتيا أو غير مرصودة.

٢. رصاص عشوائى ضد المواطنين العاديين لأسباب سيأتى ذكرها.

٣. رصاص سرى «مباشر» يخدم أهدافا سياسية غير مرئية ورصاص «غير مباشر» ينطلق بعد أن تمهد له القوات الأمريكية البيئة وتحضر له الأجواء.

ولكل حالة من الحالات الثلاث هذه دوافع خاصة وأساليب معينة.

بعد تحليل عشرات العمليات التى قامت بها القوات الأمريكية ضد المقاومة العراقية على مدى العام المنصرم يمكن القول إن هناك شكلين بارزين يتخذهما إطلاق الرصاص، الأول: يأتى بعد معلومات استخباراتية مسبقة تحصل عليها القوات الأمريكية تكنولوجيا بالتنصت على المكالمات التليفونية سواء أكانت عبر خطوط أرضية أو خطوط الهواتف الجوالة أو على أجهزة الفاكس والبريد الإليكترونى داخل العراق.

الرصاص الأمريكى المتسرع العشوائى أحد أبرز سمات مشهد إطلاق النار فى العراق فى البيئة التى يعمل فيها الجندى الأمريكى والمشاعر المسيطرة عليه طوال فترة إقامته وخدمته فى العراق

فى العـــــــراق؟

أو من خلال معلومات تأتيها فى تقارير يبعث بها عملاء عراقيون يعملون فرادى أو تابعين لمؤسسات أو أحزاب قائمة بذاتها (سألت العضو الديمقراطى فى مجلس الشيوخ الأمريكى هيلارى كلنتون الأميرال لويل جاكوبى رئيس وكالة استخبارات الدفاع فى جلسة استماع عقدتها لجنة القوات المسلحة بالمجلس فى شهر مارس ٢٠٠٤: هل تدفعون أموالا لحزب المؤتمر الوطنى العراقى (٣٤٠ ألف دولار شهريا) نظير معلومات استخباراتية؟ فرد عليها قائلا «إنك تضعيننى فى موقف الأفضل فيه أن يتم تناول هذا الأمر فى جلسة مغلقة حيث أستطيع أن أقدم لك التفاصيل» وفى يوم الأحد ٢٠٠٤/٣/٨ سألت محطة CBS الأمريكية رئيس الحزب أحمد الجلبى عن حجم هذه الأموال فرد قائلا «إنه برنامج صغير جدا فى ما يتعلق بالتكلفة».

وبعد الحصول على المعلومات الاستخباراتية هذه تستعد القوات الأمريكية للانتقال إلى أماكن خلايا المقاومة، وفى الغالب يكون هذا ليلا وبصحبة عملاء عراقيين محليين يدلونهم على المنازل أو الأماكن التى يريدون الوصول إليها داخل القرى والمدن بشوارعها وأزقتها الكثيرة والمتعرجة والتى لا يعرف أجنبى الدخول إليها أو الخروج منها إلا بمساعدة هؤلاء (ذكرت بعض عناصر المقاومة التى تسنى لى مقابلتها فى الفلوجة إنهم شاهدوا الجنود الأمريكان يأتون لاعتقالهم بصحبة عملاء عراقيين ملثمين تعرفوا عليهم من خلال اللغة واللهجة التى لا تخطئها الأذن) فيأتى الجنود الأمريكان فجأة بعرباتهم المدرعة ومعززين بمروحيات ويباشرون مداهمة المكان فى محاولة لاعتقال من يجدونه بالداخل وإذا واجهتهم نيران مضادة فإنهم يفتحون نيرانهم الكثيفة مما يسفر عن أعداد كبيرة من القتلى والجرحى خاصة إذا كان مكان اختباء الخلية داخل حى مكتظ بالسكان.

الشكل الثانى هو المتعلق بالرصاص المتسرع والعشوائى والذى يكون معظم ضحاياه من المدنيين الأبرياء (قدرت مؤسسة بحثية غربية مستقلة يرمز لها اختصارا بـ IBM يقوم عليها باحثون مناهضون للحرب بتقدير أعداد القتلى من المدنيين العراقيين على مدى العام الماضى بحوالى ١٠ آلاف قتيل، وقد اعتمدت فى ذلك على متوسط الأعداد التى اعترف بها المسئولون العسكريون لقوات الاحتلال وما اتفقت عليه ثلاث وكالات أنباء كبرى على الأقل إضافة إلى مصادر عراقية محلية) هذا الرصاص العشوائى له أسباب وظروف لمسناها من خلال أحاديثنا مع بعض الجنود الأمريكان وأكدها لنا أيضا المتحدث العسكرى باسم قوات الاحتلال الرائد كارول باتريك حينما حاورناه فى مقر قوات الاحتلال بالمنطقة الخضراء على نهر دجلة.

وتمثلت خلاصة هذه الظروف التى جعلت من الرصاص الأمريكى المتسرع العشوائى أحد أبرز سمات مشهد إطلاق النار فى العراق فى البيئة التى يعمل فيها الجندى الأمريكى والمشاعر المسيطرة عليه طوال فترة إقامته وخدمته فى العراق.

فالعراق بالنسبة للجندى الأمريكى بيئة قاسية لم يعتد العيش فى أجواء مشابهة لها من قبل، حيث ترتفع درجات الحرارة ومعدلات الرطوبة فى أشهر الصيف إلى قرابة الخمسين درجة مئوية، وتثور فى أشهر الشتاء رياح وعواصف رملية خاصة فى الأماكن الخالية وتتخلل حبيبات الرمال الناعمة ملابسه وتسبب أضرارا للأجهزة والمعدات الحديثة التى بحوزته. هذه البيئة غير المواتية للإقامة والعمل جعلت من قرار الخدمة فى العراق بالنسبة لهذا الجندى نوعا من العقاب البدنى.

هذا عن البيئة المادية والتى يمكن ولو بصعوبة وبعد فترة التكيف معها والتغلب على بعض مظاهرها أما البيئة المعنوية والظروف النفسية المحيطة بهذا الجندى فإنها تظل دائما ملازمة له وهى الأكثر تأثيرا فى معرفة ما نحن بصدده من أسباب الإطلاق العشوائى والمتسرع للرصاص الأمريكى.

وأول عنوان يواجهك وأنت تتحدث مع الجنود الأمريكان فى العراق هو عنوان «التمييز العنصرى». فكثير من الجنود الأمريكان المرتزقة (غالبيتهم من الملونين ولا يوجد لدينا إحصاء دقيق بأعدادهم) الذين التحقوا بالقوات المسلحة الأمريكية وقبلوا بالعمل فى العراق بغرض الحصول على الإقامة الشرعية الدائمة فى الولايات المتحدة بعد عودتهم يشعرون بنوع من التمييز فى المعاملة خاصة مع الجنود الأمريكان الخُلّص Pure American ويستشهدون على ذلك بنسب توزيعهم غير العادلة فى الأماكن الأكثر خطورة فى العراق مثل الرمادى والفلوجة وبعقوبة مقارنة بغيرهم من الجنود الأمريكان البيض.



ويتحدثون كذلك عن تمييز عنصرى ضدهم حتى بعد مماتهم فى مسرح العمليات حيث يهتم الجنود الأمريكان الخلص بنقل جثث زملائهم حتى ولو كلفهم ذلك الكثير من المخاطر بينما يتساهل هؤلاء فى نقل القتلى من الجنود الملونين. (حدثنى بعض أهالى الفلوجة إنهم عاينوا بأنفسهم جثثا طافية لجنود أمريكان ملونين فى بحيرة قريبة من نهر الثرثار على أطراف مدينتهم تركهم زملاؤهم واكتفوا بأخذ جثث نظرائهم الأمريكان البيض وقد صورت المقاومة العراقية بعض هذه المشاهد فى أقراص مدمجة يتم تبادلها فى الشارع العراقى حاليا).

ما يهمنا هنا من هذه الروايات هو تأثيرها على نفسية العديد من هؤلاء الجنود وعلاقة ذلك بالإطلاق المتسرع والعشوائى للنار. فغالبية هؤلاء الجنود الذين يشعرون بصعوبة العمل فى بيئة كالعراق وباضطهاد وتمييز عنصرى ضدهم باتوا على قناعة بأنه لن يحميهم من الموت المحقق إلا الإفراط فى استعمال القوة كما سنأتى على ذكر الأمثلة بعد قليل.

يأتى بعد كل ذلك مشاعر الاغتراب التى تؤرق عامة الجنود الأمريكان العاملين فى العراق. فطول فترة الخدمة والابتعاد عن عوائلهم وأصدقائهم وعدم وجود أماكن للتسلية والترفيه كلها تجعل من هذا الجندى عدادا يعد بتثاقل وبطء الساعات والأيام والأسابيع المتبقية على نهاية خدمته هذه فى العراق.

هذا الخليط من البيئة القاسية والمشاعر القلقة والأفكار المضطربة جعلت من هذا الجندى إنسانا مستثارا دائما، عصبى المزاج أغلب الأوقات، غير هانئ بنوم عميق مريح، مضطرب المشاعر باستمرار، الأمر الذى سهل عليه إطلاق الرصاص بشكل متسرع وعشوائى ودون مبرر بل وأحيانا مستهتر. وسوف نكتفى فى الاستدلال على ذلك بنموذجين فقط اطلعنا عليهما أثناء وجودنا هناك:

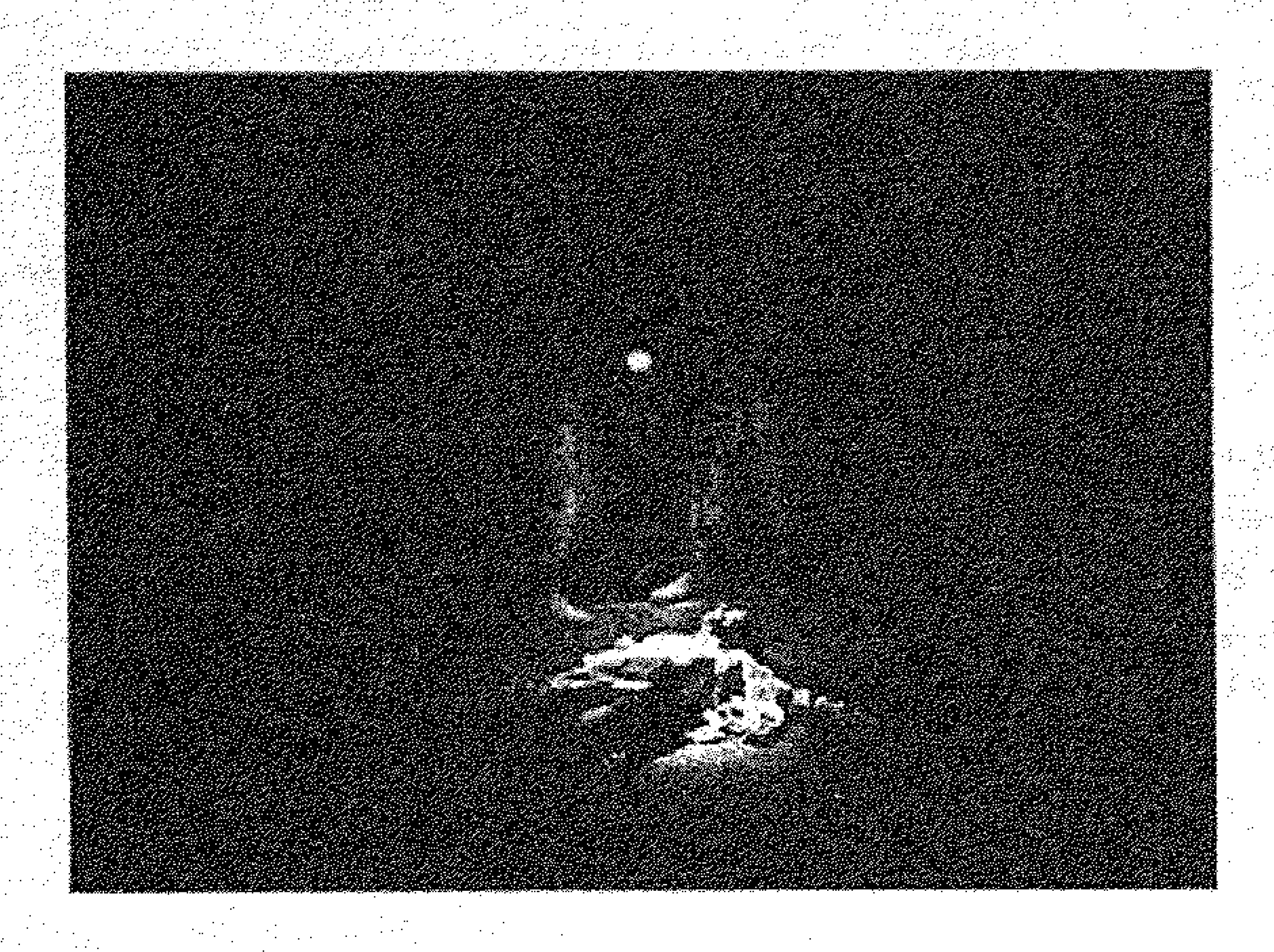
النموذج الأول: الشابان زيدون ومروان حسون

زيدون حسون وابن عمه مروان عبد الحكيم حسون شابان فى مقتبل العمر، كانا يمرحان فوق جسر يعبر نهر الثرثار فى سامراء، فوجئا بدورية أمريكية تأمرهما بالتوقف وبعد التفتيش الدقيق قيد بعض جنود الدورية يدى كل واحد منهما خلف ظهره، ثم -وباستهتار شديد- دفع أحد الجنود زيدون وبعده بثوان ابن عمه مروان من فوق الجسر فسقطا فى النهر حيث لقى زيدون حتفه فى الحال ونجح مروان بمعجزة فى النجاة ليروى لنا ما حل به وبابن عمه.

النموذج الثانى: عائلة أم حيدر

أم حيدر كانت تستقل سيارة خاصة هى وزوجها وابن لها يدرس فى كلية الصيدلة وبنتان إحداهما تبلغ ١٦ عاما والأخرى ٨ أعوام، وسارت بهما السيارة ليلا فى أحد شوارع بغداد، وفجأة انقطعت الكهرباء -وهو أمر معتاد حيث تتبادل الأحياء انقطاع الكهرباء لتخفيف الحمل على شبكة التوزيع- لكن حظ عائلة أم حيدر العثر أن الكهرباء انقطعت أثناء مرور دورية أمريكية، وفى وسط الظلام الدامس فوجئت أم حيدر -كما تروى مأساتها- بوابل من الرصاص يخترق السيارة وينطلق بصورة عشوائية فى كل مكان، وصرخ زوجها «عائلة، عائلة» لكن أحدا لم يسمعه، وبعد دقائق توقف إطلاق النار ونظرت أم حيدر حواليها فوجدت الرصاص الأمريكى قد حصد أرواح زوجها وابنها وبنتيها، ولم ينج من هذه الحادثة سوى أم حيدر وجنينها الذى كان يتحرك فزعا فى أحشائها.

تقول أم حيدر «تقدمت بشكوى للقوات الأمريكية فردوا على قائلين إنكم وضعتم أنفسكم فى المكان الخطأ وفى الظرف الخطأ، ومنحونى ١١ ألف دولار مؤكدين أن هذا المبلغ «للمساعدة فى تدبير أمور المعيشة وليس تعويضا، لأننا لم نرتكب ما يوجب علينا دفع تعويض».



هذان النموذجان يطرحان فيما يطرحانه قضية المساءلة القانونية للجندى الأمريكى العامل فى الميدان ومحاسبته عما يرتكبه من أخطاء تودى بحياة العراقيين. طرحت هذا السؤال على الرائد كارول باتريك المتحدث العسكرى باسم قوات الاحتلال فرد قائلا: إننى مكلف فقط بقتل أو اعتقال من «أشعر» أنه «يهددنى».

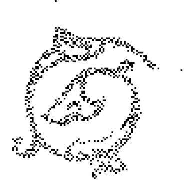
الشكل الثالث للرصاص الأمريكى المنطلق فى العراق والذى وضعناه تحت عنوان رصاص سرى مباشر وآخر غير مباشر فهو أخطر أنواع الرصاص حيث لا يتوقف تأثيره على إزهاق أرواح مقصود التخلص منها، لكنه وبسبب طبيعته السرية الغامضة تطول شظاياه ثوابت عراقية تتمثل فى الوحدة الوطنية بين طوائف وأعراق هذا المجتمع وهو ما يخشاه الكثيرون ويشعرون أن العراق ينزلق باتجاه حرب أهلية لا سيما أن الكوابح الوطنية غير فعالة بالقدر الكافى -لأسباب كثيرة لا مجال هنا الآن للخوض فيها- فى توقيف هذا الزحف الشيطانى.

ورغم خطورة تداعيات هذا الرصاص فإنه للأسف لم يحظ بما يستحق من البحث والتقصى وتجميع الحقائق والمعلومات، ولا ندعى أننا استطعنا فى المدة القصيرة التى قضيناها هناك أن نقوم بذلك، فالأمر بحاجة إلى عمل جماعى منظم، ولكننا اطلعنا على نموذجين نعرض لهما فقط دون الخوض فى التحليل والاستنتاج.

النموذج الأول: ما رواه لنا أكثر من سياسى عراقى وخلاصته أن اتباعهم شاهدوا جنودا أمريكان يلصقون صورا لعلماء دين وسياسيين سنّة فوق صور ملصوقة من قبل لمرجعيات شيعية مهمة فوق العديد من الجدران فى شوارع بغداد. ولم ينف أحد من الجانب الأمريكى هذه الرواية حتى الآن.

النموذج الثانى: يتعلق بتفجيرات الكاظمية وكربلاء التى تمت قبل يوم واحد فقط من رحيلى من بغداد والتى أسفرت عن مقتل حوالى ٢٠٠ زائر شيعى فى ذلك اليوم الدامى والتى ألقى القادة الشيعة وعلى رأسهم آية الله على السيستانى وعبد العزيز الحكيم بالمسئولية (فقط) على القوات الأمريكية التى لم تقم بواجبها كما ينبغى فى حفظ الأمن -ولا أحد يعرف السبب حتى الآن فى ذلك- رغم علمها المسبق بأن هذا اليوم «سوف يشهد تفجيرات إرهابية» كما يتضح من العرض التالى:

فى يوم السبت ٢٨ فبراير عقد فى مقر قيادة شرطة كربلاء اجتماع عالى المستوى ضم قادة شرطة محافظات جنوب الوسط وحضره المستشار الأمنى فى سلطة الاحتلال العقيد بروس لمناقشة التحضيرات والإجراءات الأمنية التى ستتخذ أثناء زيارة العاشر من محرم، وذكر القادة المجتمعون أن من مهام اجتماعهم هذا «بحث التعاون مع المحافظات الأخرى فى عمليات حفظ الأمن والطرق الكفيلة للحد من «العمليات الإرهابية» التى «سيقوم» بها «الإرهابيون» مستغلين الازدحام الذى ستشهده مدينة كربلاء خلال أيام الزيارة.



وفى اليوم نفسه أيضا (٢٨ فبراير والتفجيرات تمت ضحى يوم الثانى من مارس) أعلن العميد عباس فاضل الحسنى قائد قوات شرطة كربلاء -التى تعمل بالتنسيق مع الجانب الأمريكى- أن قواته شاركت مع قوات «الائتلاف» المتواجدة فى المحافظة بعملية اقتحام كبرى لأحد المواقع فى كربلاء وتم العثور على كميات من المواد شديدة الانفجار وقاذفات آر بى جى ورشاشات وهاونات وأعلن إنه تم إلقاء القبض على مجموعة من الأشخاص فى جهاز الأمن الخاص «للنظام المقبور» فى نفس التوقيت الذى أعلن فيه قائد قوات بابل إنه تم إلقاء القبض على أربعة أشخاص، اثنان منهم من ضباط الجيش العراقى وبحوزتهم خمسة صواريخ كاتيوشا وأن «جميع الدلائل تشير إلى أن جميع هذه العناصر لها ارتباطات خارجية».

ومع كل هذه الإشارات الواضحة «بإمكانية» حدوث تفجيرات أثناء الاحتفالات ومع التأكيد الأمريكى بأن من «سيكون» وراءها هم أتباع النظام السابق وعناصر من تنظيم القاعدة فإن الإجراءات الأمنية التى كان من المؤمل أن توفرها قوات الاحتلال لاحتفال كهذا شابها «قصور غير مبرر» على حد وصف محمد الصافى ممثل آية الله على السيستانى فى كربلاء الذى أضاف «إنهم -أى القوات الأمريكية- اهتموا بحماية أنفسهم أكثر من حماية الوافدين واعتمدوا على شرطة عراقية لا تملك وسائل حماية لنفسها ناهيك عن أن تحمى تكتلات بشرية كبيرة الحجم كتلك الموجودة فى كربلاء والكاظمية حاليا، ثم كان أخطر ما قاله فى نهاية تصريحه هذا «.. رغم أننا لنا رؤية مختلفة تماما لما حدث ولمن كان وراءه».

بعد هذه التصريحات والاتهامات خرجت الجماهير الشيعية فى كربلاء تعلن غضبها من القوات الأمريكية فألقت عليها الحجارة واتهمها هؤلاء الغاضبون صراحة باستغلال الحدث لتحقيق مآرب خاصة بها».

علماء السنة كانوا أكثر صراحة فى عباراتهم ومفردات خطابهم فقال أكثر من واحد منهم «إن الهدف هو توريط السنة والشيعة فى فتنة طائفية تستنزف طاقة السنة الذين يتزعمون المقاومة حاليا من جهة وتقضى على أى احتمال ولو ضعيف لتحول الشيعة إلى صف المقاومة العسكرية فى أى وقت فى المستقبل من جهة ثانية».

ثانيا: رصاص المقاومة

فى الساحة العراقية عناصر كثيرة تصنف نفسها تحت عنوان المقاومة، هذه العناصر ليس لها علامات بازغة أو مميزات واضحة يمكن القول إن هذا الفصيل المقاوم هو قومى أو إسلامى أو عشائرى كما يغلب على الظن وكما هى الصورة النمطية فى أذهان الكثيرين. فواقع المقاومة العراقية حاليا لم يعد بهذه الصورة المبسطة التى ربما تكون قد بدأت على هذا النحو فى الأيام الأولى من العام المنصرم.

فبمرور الشهور أعيد تشكيل هذه المقاومة فى قوالب جديدة وعقدت مع بعضها تحالفات عديدة حتى باتت تكويناتها مزيجا يصعب تصنيفه بشكل مبسط كما سبق القول.

ففى مدينة الفلوجة اتضح أنه فى خلية المقاومة الواحدة عناصر من الإسلاميين والضباط الميدانيين وأفراد تابعين للاستخبارات العسكرية فى الجيش العراقى المنحل إضافة إلى من يقدمون مساعدات على الأرض من العشائريين العاديين.

كان من نتيجة ذلك تطور وتغير نوعى فى المقاومة العراقية كما يتضح من تحليل عشرات العمليات التى قامت بها والتى سنأتى على ذكرها تباعا فى الأسطر القادمة.

ورغم أن محاولة التصنيف المحدد كما قيل مسألة غير دقيقة ومختلفة إلى حد كبير على أرض الواقع إلا أننا مضطرون إليها هنا لفهم دقائق الصورة ولو على المستوى النظرى فقط.

١- مقاومة إسلامية: تقوم على فرضية أن العراق أرض جهاد واضح لا لبس فيه حيث توجد قوات غازية وأن مقاومتها جهاد والموت دون ذلك شهادة.

الإسلاميون هؤلاء خليط من معظم الجماعات والتيارات الإسلامية المعروفة على الساحة، وإن كان أبرز من يعملون منهم فى الساحة العراقية حاليا أولئك الذين يحملون أفكار الإخوان المسلمين والإسلاميون السلفيون الجهاديون الذين يحملون أفكارا قريبة بدرجة أو بأخرى من أفكار أيمن الظواهرى وأسامة بن لادن وإن كان بعضهم ليسوا بالضرورة أعضاء منتظمين فى تنظيم القاعدة.

وغير بعيد عن هؤلاء يوجد فى ساحة المقاومة الإسلامية العراقية متدينون عاديون لم ينضموا فى حياتهم إلى أى جماعة أو تنظيم إسلامى ولكنهم يتحركون بدوافع دينية عادية يبحثون كما يقول بعضهم عن الشهادة فقط.

لكن السؤال الأبرز هنا: هل يوجد أفراد تابعون لتنظيم القاعدة يعملون ضمن صفوف المقاومة الإسلامية حاليا ويطلقون الرصاص -وهذا هو موضوعنا- فى الساحة العراقية؟

طرحت هذا السؤال على بعض عناصر المقاومة التى تسنى لى مقابلتها فى الفلوجة وطرحته كذلك على بعض أئمة المساجد الذين لهم دور ما فى المقاومة فكانت الإجابة بالنفى على ألسنة البعض وبالإيجاب على ألسنة البعض الآخر.

كنت أتوقع أن يقول لى من سألتهم كلمة «لا» لكننى فوجئت عند سماعى من بعض شباب المقاومة من يقولون «نعم» والسبب ليس لغرابة الأمر فبالفعل العراق فرصة لمواجهات عسكرية على أسس دينية لمن يبحثون عن ذلك ولكن مبعث المفاجأة هو فى ضخامة أعداد من يحملون أفكار تنظيم القاعدة فى العراق.

قال هؤلاء الشباب إن الذى يتبادر إلى

الأذهان حينما يطلق لفظ تنظيم القاعدة أن عناصر إسلامية غير عراقية تسللت عبر الحدود وأنهم تابعون تنظيميا لأسامة بن لادن وأيمن الظواهرى لكن الحال مختلف تماما عن هذا الفهم، فهم -والكلام لشباب من المقاومة- عراقيون يحملون أفكار تنظيم القاعدة وبالأخص تلك الفكرة التى تتلخص فى ضرورة طرد المشركين من جزيرة العرب، وإن عددا كبيرا من هؤلاء قد شارك فى الجهاد الأفغانى ضد الاتحاد السوفيتى السابق وفى الشيشان والبوسنة ولم يتسن لهم العودة إلى بلدهم إلا بعد زوال حكم صدام حسين حينما فتحت الحدود، وقد نشطوا فى المقاومة مستفيدين من الخبرات التى تراكمت لديهم عبر سنوات الجهاد فى تلك البلدان».

٢- جنود وضباط الجيش العراقى السابق: هؤلاء رقم مهم ومؤثر فى المقاومة أو فى قضية من يطلق النار التى نحن بصددها. فبعد أن أصدر الحاكم الأمريكى بول بريمر قراره الشهير بحل الجيش العراقى وتسريح ضباطه وجنوده وجد أكثر من ٤٠٠ ألف عراقى أنفسهم وجها لوجه مع المجهول حيث البطالة المهينة وتأثيراتها المذلة على أسر وعائلات هؤلاء.

مواجهة البطالة والجوع والرغبة فى الانتقام أحد الأسباب التى باتت معروفة فى الشأن العراقى، لكن مع الاقتراب أكثر من الصورة يتضح أن للأمر آفاقا وأبعادا ودوافع أكثر اتساعا.

فالكثير من هؤلاء الضباط الذين انخرطوا فى المقاومة رغبوا من وراء ذلك تحقيق هدفين الأول استرداد شرفهم العسكرى «الذى تمرغ فى التراب» على حد وصف أحد هؤلاء الضباط الذين تحدثوا إلينا، والثانى محاولة لتصحيح الصورة الذهنية التى اتخذت عن كثير منهم فى أعقاب سقوط بغداد بهذه السهولة التى تمت يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣.

٣- أجهزة الاستخبارات والأمن العراقية السابقة: وقد رغبنا فى إفرادها بعنوان خاص وعدم إلحاقها بضباط وجنود الجيش المنحل وذلك لدورها المختلف فى ساحة رماية الرصاص عن غيرهم.

عناصر هذه الأجهزة وبالأخص الأجهزة الاستخباراتية سواء أكانت مخابرات عسكرية أو غير عسكرية تخصصت فى نقل خبراتها إلى -أو العمل بالتنسيق مع- فصائل المقاومة المختلفة.

وقد ساعد هذا الأمر فى إحداث نقلة نوعية خاصة فيما يتعلق بتحديد الأهداف التى تعاملت معها المقاومة العراقية وبالأخص عمليتا محاولة اغتيال بول ولفوويتز وجون أبى زيد فى بغداد قبل أشهر.

٤- ميليشيات وأعضاء حزب البعث: وهؤلاء لهم دور معقد وشديد التباين فى قضية من يطلق النار فى العراق. فقد كانوا هم أنفسهم وبخاصة فى الأسابيع الأولى من انطلاق المقاومة وحتى مقتل عدى وقصى صدام حسين ثم إلقاء القبض على صدام نفسه أحد العناصر الفاعلة فى هذه المقاومة وكانوا فى الوقت نفسه وكما اتضح لنا بعد الاطلاع على حجم ما لحق بهم عن قرب أحد الأهداف التى كثر إطلاق النار عليها ثأرا وانتقاما وتصفية لحسابات شخصية. وكان قتلهم يتم بشكل لا أقول إنه وحشى حيث قتل العديد منهم أمام أزواجهم وأولادهم - وهذا ليس محاولة لاستدرار العطف عليهم فليس من مهمتى هنا أن أفعل ذلك- ولكنى أقول فقط إن هذا القتل تم بشكل متسرع ودون تمحيص كاف لحقيقة الدور الذى كان يقوم به هذا العضو أو ذاك فى ظل نظام الحكم السابق.

وبالطبع كان إطلاق النار فرصة لا تزال مواتية إلى حد كبير الآن خاصة فى ظل انعدام جهاز أمنى قادر ومؤسسة قضائية ذات كفاءة تفصل فى الخصومات وحكومة وطنية منتخبة تعيد للقانون هيبته.

٥- العشائر: وقصة العشائر العراقية تحتاج وحدها إلى صفحات خاصة بها، فبعضها يقوم بدور وطنى فى الدفاع والمقاومة عن بلاده، وبعضها الآخر عرف كيف يستفيد من حاجة القوات الأمريكية المحتلة له، فراح يساومها وراحت تلك القوات تقدم له عروض أسعار نظير خدماته (قضية شرطة العشائر المكلفة بحماية أنابيب النفط ضد هجمات المقاومة العراقية والتى بلغ عدد أفرادها ١٤ ألفا يتقاضون رواتبهم من شركات أمن بريطانية وأمريكية لم تأخذ حظها من إلقاء الضوء بما تستحقه من أهمية).

أسباب ودوافع هؤلاء العشائريين المقاومين للاحتلال تتفق وتختلف فى بعض جوانبها مع كل من يضغطون على الزناد ويطلقون رصاص المقاومة.

السبب السهل المباشر والمعروف هو رغبتهم فى إخراج المحتل وتحرير الوطن. لكن -وأيضا مع الاقتراب أكثر من الصورة- فإن لهذه الشريحة المقاومة أسبابا لصيقة بها أكثر من غيرها.

حدثنا عنها بعض شيوخ العشائر، وخلاصة ما قالوه هو رغبتهم فى الانتقام لشرف العشيرة وكرامة شيوخها الذين تعرض بعضهم للإهانة على يد جندى أمريكى لا يعرف الخصائص النفسية والأبعاد الثقافية للمجتمع الذى يحتل شعبه. وهذه بعض النماذج التى رواها لنا هؤلاء الشيوخ والوجهاء:

- قال لى أحد شيوخ العشائر فى الفلوجة بعد لحظة صمت ارتسمت على وجهه فيها علامات الحزن بالغضب إنه فوجئ وهو يقود سيارته على طريق الفلوجة/بغداد السريع بدورية أمريكية توقفه، وبعد التفتيش الدقيق، ألقى أحد الجنود الأمريكان بعقال هذا الشيخ على الأرض -وهو أمر بالنسبة لهم مهين إلى حد كبير- وقيد يديه خلف ظهره وتركه فى الشمس فترة طويلة، ولما قال له هذا الشيخ «اتركنى لخاطر الله» رد عليه الجندى الأمريكى بقوله (No Allah) فما كان من هذا الشيخ ومن عشيرته - وكانوا حتى هذا الوقت يقفون على الحياد فيما يخص مقاومة الاحتلال- إلا أن قرروا الانتقام على طريقتهم الخاصة.

ونبادر بالقول إن رصاص المقاومة - وبعد تحليل عينة من العمليات على مدى العام المنصرم- يتخذ أساليب وأشكالاً متعددة، بعضها يتم باستخدام المدافع الرشاشة سريعة الطلقات، وبعضها الآخر يتم بقذائف أربى جى أو بمدافع الهاون، ومجموعة من العمليات تتم باستخدام صواريخ خفيفة أو بزرع عبوات ناسفة من مواد شديدة الانفجار أو ألغام أرضية وبالطبع عن طريق الوسيلة الأشهر حاليا وهى السيارات المفخخة، وهناك بعض العمليات التى تمت باستخدام تشكيلة متنوعة من أكثر من نوع من هذه الأنواع.

أما الأسلحة -وهذا ليس بجديد- فقد تم الحصول عليها من أكثر من طريق أحد هذه الطرق هى من الأسلحة التى وزعها النظام العراقى السابق نفسه على المواطنين استعدادا لحرب شوارع ومدن إذا فكر الأمريكان فى اجتياح العراق.

والبعض الآخر حصلت عليه المقاومة من مخازن أسلحة الجيش العراقى فى الأيام الأولى التى أعقبت سقوط بغداد.

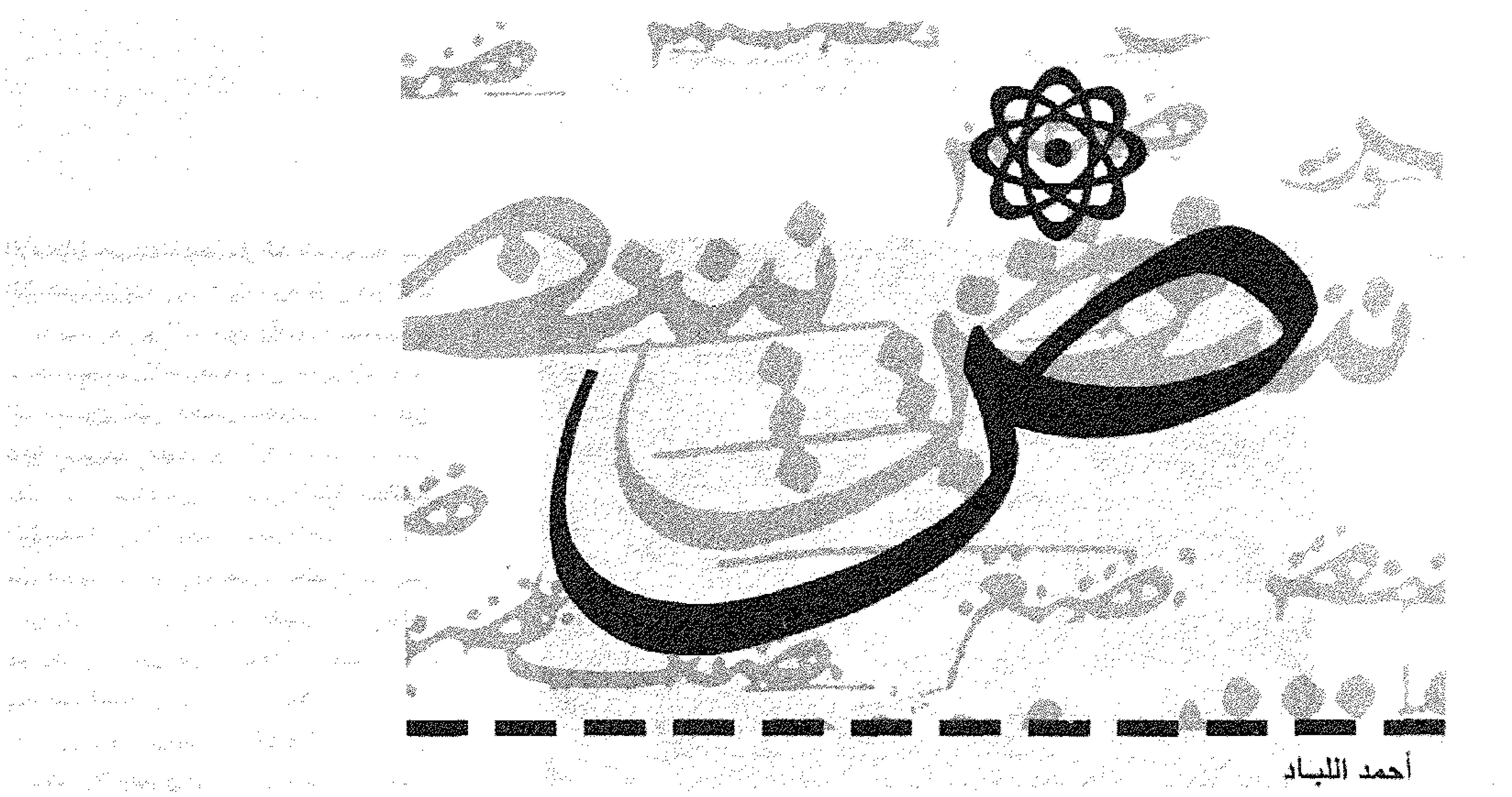
ثالثا: أصابع خفية

أخيرا بقى فى بانوراما المشهد العراقى وبالأخص فى الزاوية الأمنية منه هذا الفريق المكون من ثلاثة عناصر الأول فقط منه معروف ولا يمثل ذكره مصدرا للجدال ونعنى به أولئك اللصوص وقطاع الطرق، وهؤلاء لا هم لهم إلا السرقة، وقد كثر عددهم بعد إطلاق النظام السابق سراحهم قبيل شن الحرب العام الماضى، وتسببت نوازعهم وتحركاتهم الإجرامية فى سفك دماء لوثت بقعها الحمراء ثوب المجتمع العراقى.

والعنصران الثانى والثالث -وإن كان حديث الكثير من السياسيين العراقيين الذين تطرقوا إليهما أثناء حديثهم معنا مهم فى استكمال الصورة- إلا أنه يبقى كلاما مرسلا لا دليل عليه ما لم يدعم بالحقائق والمعلومات الموثقة.

هذان العنصران هما: عملاء الموساد الإسرائيلى الذين ينشطون فى إطلاق النار فى منطقة التماس الخطرة بين السنة والشيعة، وفيلق بدر وجيش المهدى (الأول تابع للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية والثانى لجماعة مقتدى الصدر) اللذين يعملان -الكلام المرسل هذا مرة أخرى لبعض السياسيين العراقيين- بالتنسيق مع استخبارات بعض دول الجوار وتحديدا مع إيران التى يهمها توريط الولايات المتحدة فى المستنقع العراقى حتى لا تجد وقتا للتفكير فى الانتقال إلى ساحة قتال جديدة تكون هذه المرة على أراضيها.

هذه هى ساحة الرماية فى العراق، فهل لا يزال رصاصها مجهول النسب والهوية؟ ■



خريطة العرب

محمد عزت عبدالعزيز

في عالمنا المعاصر هناك وجهان بارزان للطاقة الذرية.. الأول مشرق يتمثل في الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية لخدمة البشرية في مجالات عديدة: كالمفاعلات النووية لتوليد الطاقة الكهربية، والنظائر والمصادر المشعة المستخدمة في التشخيص والعلاج الإشعاعي وفي تعقيم المستحضرات الطبية والصيدلانية، وفي المعالجة الإشعاعية للأغذية لتطهيرها من الميكروبات والطفيليات المرضة ولتقليل الفاقد منها، فضلاً عن التطبيقات الصناعية لتكنولوجيا الإشعاع بهدف تحسين خصائص المواد الصناعية وتخليق مواد جديدة.. إضافة إلى العديد من التطبيقات ذات الصلة بالبيئة، مثل المعالجة الإشعاعية للصرف الصحي وتحويله من مواد شديدة الضرر بالبيئة إلى منتج مفيد حيث يستخدم في ري وتسميد التربة الزراعية.

أما الوجه القبيح فيظهر، إلى جانب أشياء أخرى، في الأسلحة النووية: أخطر أسلحة الدمار الشامل. وقد كان أول استخدام للطاقة الذرية في عام ١٩٤٥ بإلقاء قنبلة ذرية على هيروشيما في السادس من أغسطس من هذا العام أدت إلى قتل ١٤٠ ألف شخص ثم ألقيت قنبلة ذرية ثانية على ناجازاكي في التاسع من أغسطس من نفس العام، راح ضحيتها ٢٠٠ ألف قتيل، إضافة إلى الآثار الإشعاعية التي أحدثت تشوهات خطيرة وقتلت الأجنة في بطون أمهاتهن، بل واستمرت هذه الإشعاعات المدمرة لعشرات السنين. كانت هذه أول جريمة دمار شامل ترتكبها أمريكا حتى تحسم الحرب العالمية الثانية ضد اليابان لصالحها.

وقبل أن نتطرق للحديث عن التسلح النووي في الدول العربية سنعطي لمحة عن الجوانب التقنية للقنابل الذرية والمواد الانشطارية المستخدمة وقوداً لها وتأثيراتها التدميرية، مع تقديم حصر للرءوس النووية على مستوى العالم من خلال سرد تاريخي للتسليح النووي في الدول التي تمتلك أسلحة نووية. إن الوقود النووي المستخدم في الأسلحة النووية هو البلوتونيوم ـ ٢٣٩ أو البلوتونيوم ـ ٢٤٠، في حين تستخدم المفاعلات الذرية يورانيوم ـ ٢٣٥ بنسبة تخصيب ٢٠٪.



وتحتاج قنبلة اليورانيوم ١٥ (خمسة عشر) أو ٣٠ (ثلاثين) كيلوجراماً من اليورانيوم بنسبة تخصيب ٨٠٪ أو ٩٠٪. مع العلم بأن انشطار كيلوجرام واحد من اليورانيوم يعادل حرق ٢٢٠٠ طن من الفحم الحجري، أو حرق ١٦٠٠ طن من البترول.

ويمكن إحداث تفجير نووي بواحد من نظامين: الأول بأن توضع كتلتان من المادة الانشطارية بالقرب من بعضهما على طرف وعاء أسطواني، وفي لحظة التفجير تُطلق الكتلتان بقوة شديدة في اتجاه بعضهما بواسطة متفجرات عادية، وعند التحام الكتلتين ببعضهما بقوة يصل مجموع كتلتيهما إلى الكتلة الحرجية ويحدث الانشطار، أما النظام الثاني فيعتمد على وضع كتلة من المادة الانشطارية تحت ضغط شديد يؤدي إلى تضاعف كثافتها لتصل إلى الكتلة الحرجة (Critical Mass) نتيجة إحاطة الكتلة بمتفجرات عادية تعمل على الزيادة المفرطة في كثافتها وانطلاق الانفجار.

واستخدم النظام الأول في قنبلة هيروشيما باليورانيوم ٢٣٥، بينما جرى استخدام النظام الثاني في قنبلة نجازاكي. وقد حدث تطوير هائل في قوة القنابل الذرية حدث بمقتضاه رفع القوة التفجيرية لقنبلة هيروشيما من ٢٠ (عشرين) ألف طن من المادة المتفجرة TNT إلى ٥٠ (خمسين) مليون طن TNT.

تتميز المتفجرات النووية بصغر حجمها وعدم اعتماد قوة التفجير على الحجم؛ لنأخذ مثلاً متفجراً قوته ١٠٠ (مائة) كيلو طن TNT، مثل هذا المتفجر يكون حجمه بالمتفجرات العادية ٨٠,٠٠٠ (ثمانين ألف) متر مكعب، (أي حجم عمارة من عشرة طوابق بكل طابق ثماني شقق، في حين يكون المتفجر النووي بنفس هذه القوة على هيئة أسطوانة طولها خمسة أمتار وقطرها حوالي ٣٥سم فقط، أي بحجم ٢ (اثنين) متر مكعب.

أما التأثيرات الناجمة عن تفجير نووي فهي ثلاثة: الأول، الوهج الحراري حيث تصل درجة الحرارة في مركز التفجير إلى حوالي ١٠ (عشرة) ملايين درجة مئوية، أي قريباً من درجة حرارة باطن الشمس؛ ويؤدي هذا الوهج إلى احتراق جميع الأحياء والأشياء احتراقاً كاملاً في دائرة قطرها سبعة كيلومترات، ثاني التأثيرات حدوث ضغط يصل إلى عشرة ملايين قيمة الضغط الجوي، بما يؤدي إلى موجات عاصفة تنتشر في جميع الاتجاهات وتحدث تدميراً لكل ما يقع في دائرة قطرها خمسة كيلومترات، أما التأثير الثالث فيتمثل في انبعاث إشعاعات ذرية لا يقل في خطورته عن التأثيرين السابقين حيث تتكون من أشعة جاما (Gama Rays) شديدة الاختراق، إضافة إلى سيل منهمر من النيوترونات ونواتج الانشطار من النظائر المشعة التي تنتشر في سحابة ذرية شديدة الخطورة وحيث تتساقط على مساحات شاسعة محدثة تشوهات خلقية وتأثيرات سرطانية قاتلة، وتؤثر على الأجنة في السيدات الحوامل يمتد أثرها لعشرات السنين.

المخزون العالمي من الرؤوس النووية:

في أعقاب إلقاء أمريكا قنابل ذرية على كل من هيروشيما ونجازاكي في عام ١٩٤٥، سعى الاتحاد السوفيتي إلى حيازة أسلحة نووية.. وقد صار لدى كل من أمريكا وروسيا حالياً ٩٦٠٠ رأس نووي، ويأتي بعد ذلك في تسلسل تاريخي حيازة

النـــوويـــة



كانت بداية النشاط النووي الحقيقي في مصر إنشاء مؤسسة الطاقة الذرية سنة ١٩٥٧ والتي تحولت بعد تزايد أنشطتها في أقسامها العلمية الاثنى عشر إلى هيئة الطاقة الذرية، وتعمل في جميع مجالات البحوث الأساسية وبعض البحوث التطبيقية



الدول الآتية للأسلحة النووية: فرنسا ٤٥٠ رأساً نووياً (أول تفجير نووي) عام ١٩٦٠، والصين ٤٠٠ رأس نووي (١٩٦٤)، والمملكة المتحدة ١٨٥ رأساً نووياً (١٩٥٢)، ليتكون بذلك النادي النووي الذي يضم الدول الخمس الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن.

أما إسرائيل، فيقدر ما تمتلكه من ترسانة نووية من ١٠٠ إلى ٢٠٠ رأس نووي، يذكر أن مفاعل ديمونة الذي رفعت قدرته إلى ١٥٠ ميجاوات ينتج حوالي ٤٠ كيلوجراماً من البلوتونيوم من الوقود المحترق في المفاعل، تكفي لتصنيع عشر قنابل سنوياً. وقد باح التقرير الفني لموردخاي فانونو الهارب من إسرائيل بتفاصيل دقيقة عن ذلك.

ومن دول العالم الثالث تمكنت الهند من تطوير قدراتها النووية وبناء مفاعلات من نوع «الكاندو» (Candu Reactor) الذي يتميز بإنتاج البلوتونيوم من الوقود المحترق.. وهكذا تمكنت الهند من دخول النادي النووي بترسانة تضم ٦٠ رأساً نووياً.

وإزاء التهديد الهندي لباكستان، والصراع القائم بين الدولتين استشعرت باكستان خطورة التسليح النووي الهندي، وعبر عن ذلك رئيسها ذو الفقار علي بوتو بمقولته الشهيرة «سنأكل العشب وورق الشجر، بل حتى سنجوع، في سبيل تصنيع السلاح النووي». وحدث فعلاً أن طورت باكستان قدراتها النووية ونجحت في تصنيع ٣٠ رأساً نووياً، وقد انضم إلى النادي النووي كل من جنوب أفريقيا التي ذكر فيما بعد أنها قامت بتفكيك قنابلها الذرية، وأوكرانيا ثم كوريا الشمالية.

إن تصنيع، أو الحصول على نظام توصيل وإلقاء الرأس النووي لم يعد بعيد المنال لو أن الهدف كان مدينة، والوسيلة هنا الطائرة، ومع التطور التكنولوجي صارت الوسيلة الفعالة هي صاروخ من نوع «سكود» (Scud)، أو «إكزوسيت» (Exocet). على أن الصواريخ البالستية صارت قادرة على نقل السلاح النووي إلى مسافات تصل إلى ١٥٠٠٠ كيلو متر بالنسبة لأقصى مدى. وهو الصاروخ الذي لدى الصين. ولأقل مدى وهو ٦٥ كيلومتراً للجزائر.

الدول العربية والتسليح النووي:

قبل تصنيف الدول العربية فيما يتعلق بسياستها تجاه التسليح النووي يلزم التنويه إلى الاعتبارات والعوامل التي تحكم إمكانية حيازة أسلحة نووية، سواء بالاعتماد على الذات في تصنيعها، أو بالحصول عليها من طرف آخر وليكن إحدى دول النادي النووي؛ بالشراء أو من خلال صفقة تدخل فيها عدة اعتبارات، أولها الرؤية السياسية وثانيها النواحي الاقتصادية المتعلقة بتكلفة حيازة أسلحة نووية، ثم القدرات التكنولوجية متمثلة في التجهيزات المعملية والخبرات المتخصصة في بعض المجالات النووية.

إن من البديهي عند اتخاذ قرار حيازة أسلحة نووية أن تفحص العلاقات السياسية للدولة، وعلى الأخص بالنسبة للوفاء بمعاهدة حظر الانتشار النووي (Nuclear Profeleration Treaty) المعروفة اختصاراً بالمعاهدة، حيث تنص المادة الأولى من المعاهدة على: «تتعهد الدول الحائزة للأسلحة النووية بعدم تشجيع أو حفز أي دولة غير حائزة على الأسلحة النووية على صنعها أو اقتنائها»، وتشير المادة الثانية إلى «تعهد الدول غير الحائزة للأسلحة النووية بألا تقبل أي نقل أو تقتني أو تصنع أسلحة نووية أو أجهزة متفجرة نووية».

وتعتبر المعاهدة بهذه المواد أول المعوقات لتصنيع أو اقتناء سلاح نووي، وبمعنى آخر يمكن القول بأن المعاهدة تكبل الدول غير الحائزة، وعليه يستحيل من البداية لأي دولة عربية طرف في المعاهدة أن تسعى للحصول على أسلحة نووية إلا إذا سلكت طريقاً بعيداً عن المعاهدة وأصبحت بذلك منتهكة لها. كما أن القيد الآخر الذي تفرضه المعاهدة يتمثل في المادة الثالثة التي تشير إلى «تعهد الدول غير الحائزة للأسلحة النووية، أطراف المعاهدة، أن تقبل نظماً للضمانات يتم الاتفاق عليها مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية بغية الحيلولة دون انحراف استخدام الطاقة النووية عن الأغراض السلمية صوب الأسلحة النووية، وتنص على تعهد كل الدول، أطراف المعاهدة، بعدم تقديم مواد مصدرية أو مواد انشطارية خاصة إلى أي دولة غير حائزة للأسلحة النووية للاستخدام السلمي إلا إذا كان ذلك خاضعاً لنظام الضمانات. ومع ذلك فإن المادة العاشرة تنص على أنه «يكون لكل طرف ممارسة منه لسيادته القومية، حق الانسحاب من المعاهدة إذا قرر أن ثمة أحداثاً استثنائية ذات صلة بالمعاهدة قد أضرت بمصالحه الوطنية العليا».

وبعيداً عن طرح المشكلة النووية في إطار «عالمية» المعاهدة، يمكن أن يقال أن تطوراً قد حدث برغم عدم مصداقية قرارات الأمم المتحدة فيما يتعلق بإسرائيل، الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي تمتلك الردع النووي، إذ أن مؤتمر مراجعة وتمديد معاهدة عام ١٩٩٥ قد اعتمد قراراً محدداً حول الشرق الأوسط «يطالب جميع دول المنطقة التي لم تنضم إلى المعاهدة بأن تنضم لها بدون استثناء، وفي أقرب وقت ممكن، كما يطالب جميع دول المنطقة بأن تتخذ خطوات عملية لإحراز تقدم في اتجاه إنشاء منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل في النهاية». فإذا طبقنا هذه المفاهيم على الدول العربية نجد ما يلي:

أ. مصر والتسليح النووي:

لقد شاركت مصر خلال الستينيات في صياغة المعاهدة التي فتحت للتوقيع عام ١٩٦٨، واستمر دور مصر في التعاظم حتى وصل إلى مستوى رفيع بتولي الدكتور/ محمد البرادعي منصب مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية، مع قيادة مصر لجبهة الدول غير المالكة للأسلحة النووية بمطالبتها للدول الحائزة على الأسلحة النووية اتخاذ إجراءات محددة في اتجاه التخلص من أسلحتها النووية لتحقيق حلم «عالم خال من تلك الأسلحة». على أن تعهد مصر بعدم الحصول على أسلحة نووية يكون في مقابل أن تعاونها الدول النووية الكبرى في تطوير إمكاناتها في الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية.

وإضافة إلى ما تقدم فإن الحكومة المصرية أعلنت مبادرتها بإقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط، وفي عام ١٩٩١ أكد الرئيس حسني مبارك المبادرة بإقامة منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل وأكد أنه بدون هاتين المبادرتين لن يستقيم وضع الأمن في منطقة الشرق الأوسط.

لقد كانت مصر من أوائل دول العالم الثالث التي دخلت المجال النووي مع الهند في عام ١٩٥٥. وكانت سياستها مركزة في ثلاثة اتجاهات: أولها الجانب الاستراتيجي المتعلق بالأمن القومي للبلاد، وثانيها يتعلق بالنواحي العلمية وإعداد الكوادر الفنية المتخصصة، والاتجاه الثالث يتعلق بالاستخدامات السلمية للطاقة الذرية تحقيقاً لرفاهية المواطن المصري.

وقد كانت بداية النشاط النووي الحقيقي في مصر إنشاء مؤسسة الطاقة الذرية في إنشاص بصدور قرار رئيس الجمهورية رقم ٢٨٨ لسنة ١٩٥٧ والتي تحولت بعد تزايد أنشطتها في أقسامها العلمية الاثنى عشر إلى هيئة الطاقة الذرية، والتي تعمل في جميع المجالات للبحوث الأساسية وبعض البحوث التطبيقية، وتكونت قاعدة علمية نووية رصينة، تتكون الهيئة من أربعة مراكز للبحوث:

❖ مركز البحوث النووية في إنشاص الذي استجد عليه عدة مشروعات كبرى مثل مفاعل الأبحاث الثاني ٢٢ ميجاوات، ومعجل «السيكلوترون» ٢٠ مليون فولت الكتروني ومصنع للوقود النووي، والمزرعة التجريبية لاستخدام الوسائل النووية لتنمية الإنتاج الزراعي والحيواني وغيرها من الإمكانات الأخرى المدمجة للبحوث مثل الورش والمختبرات الإلكترونية والتفريغ العالي وتطوير المواد.

❖ المركز القومي لبحوث وتكنولوجيا الإشعاع الذي يضم أول وحدة كوبالت - ٦٠ صناعية في المنطقة العربية ومعجلاً للإلكترونات بطاقة ٢ مليون فولت الكتروني. تستخدم في تعقيم المستحضرات الطبية والصيدلانية ومعالجة المواد لتخليق مواد ذات صفات متميزة، إضافة



إن التطور الذى أحرزته مصر فى التكنولوجيا النووية للاستخدامات السلمية حفز العراق وليبيا لتعزيز برامجهما النووية سعياً إلى ارتقاء منزلة سياسية ومن أجل مواجهة التحدى الإسرائيلى



إلى التطبيقات ذات الصلة بالبيئة ذات الطابع الإنمائى.

❖ المركز القومى للأمان النووى والرقابة الإشعاعية المناط به إصدار التنظيمات ووضع التشريعات لإحكام الرقابة والتفتيش على الأنشطة النووية لضمان تطبيق المعايير السليمة لوقاية الجمهور والبيئة من التلوث الإشعاعى من خلال المسح الإشعاعى على مستوى مناطق مصر بواسطة شبكة الرصد الإشعاعى والتحليل الإشعاعى للأغذية المستوردة.

❖ مركز المعامل الحارة الذى يضم خلايا مدرعة إشعاعياً لإدارة النفايات المشعة السائلة والصلبة ذات المستويات الإشعاعية المختلفة، وإجراء البحوث فى الطرف الخلفى لدائرة الوقود النووى لاستخلاص العناصر المهمة.

إضافة إلى ما تقدم انبثق عن مؤسسة الطاقة الذرية هيئة المواد النووية المنوط بها التنقيب عن المواد الذرية فى المناطق المختلفة من جمهورية مصر العربية واستخلاصها وتقدير نسبة اليورانيوم الخام والجدوى الاقتصادية لركازة اليورانيوم، مقر هذه الهيئة حالياً منطقة القطامية.

الهيئة الأخرى التى انبثقت من مؤسسة الطاقة الذرية هى هيئة المحطات النووية لإنشاء وتشغيل المحطات النووية لتوليد الطاقة الكهربية حيث كان المخطط إنشاء ثمانية مفاعلات نووية للطاقة. وبعد أن تم عمل دراسات اختيار الموقع ودراسة الجدوى الاقتصادية تعذر تنفيذ هذه المشروعات لأسباب اقتصادية وسياسية، وبقيت هيئة المحطات النووية بدون برنامج حتى اليوم.

ب. العراق والتسليح النووى

تعتبر العراق أكثر الدول العربية سعياً لاقتناء تكنولوجيا نووية استراتيجية، فقد قطعت شوطاً طويلاً فى مجال تخصيب اليورانيوم قبل حرب الخليج الأولى، واستخدمت جميع وسائل التخصيب مع التركيز بصفة خاصة على تكنولوجيا إثراء اليورانيوم باستخدام «الفصل بالمجالات الكهرومغناطيسية (EMIS).

قد يكون من الملائم تقويم البرنامج النووى العراقى على ثلاث مراحل: الأولى قبل حرب الخليج الأولى، أى قبل عام ١٩٩١، فيما يعتبر مرحلة الإعداد للبرنامج النووى. كانت البداية بالحصول على مفاعل «أوزيراك» الذى سُمى مفاعل تموز تيمنا بثورة شهر تموز، وكانت إسرائيل قد ضربته فى يونيو ١٩٨١ بطائرات حربية، وتواصل بناء القدرات النووية بإنشاء مركز البحوث النووية فى «تويثا» فى جنوب العراق، وقد أشارت بعض المصادر الأمريكية إلى اهتمام العراق بالحصول على البلوتونيوم من السوق السوداء وقيل أنها تستحوذ على كمية صغيرة من اليورانيوم عالى التثرية يصلح وقوداً للقنبلة الذرية. وكان الاعتقاد السائد أن قوة العراق تكمن فى علمائها ذوى الخبرة والتأهيل العالى نووياً، وأن الثروة البترولية للعراق تعتبر قوة ضغط على الدول التى كانت تزود العراق بالإمكانات النووية. على أن العراقيين أكدوا مراراً وتكراراً عدم اتجاههم للتسليح النووى، خاصة أنهم أعضاء فى المعاهدة كدليل على حسن نواياهم.



ذكر فى أحد المراجع. كتاب «الانتشار النووى فى الشرق الأوسط» (Nuclear Rivals in the Middle East) تأليف: Shyam Bhatia أن التطور الذى كانت مصر قد أحرزته فى التكنولوجيا النووية للاستخدامات السلمية قد حفز كلا من العراق وليبيا لتعزيز برامجهما النووية سعياً إلى تقوية الوضع الاستراتيجى وارتقاء منزلة سياسية ومن أجل مواجهة التحدى الإسرائيلى، خاصة أن العراق كان يمتلك أكبر مفاعلات الأبحاث فى المنطقة. مفاعل ٧٠ (سبعين) ميجاوات تصنيع شركة «تكناتوم» الفرنسية، من ناحية أخرى أفادت التقارير أن العراق كان يمتلك ١٥ (خمسة عشر) كيلو جراماً من اليورانيوم عالى التثرية حصل عليها من فرنسا مقابل ١٥ (خمسة عشر) مليون فرنك سويسرى والحصول على البترول العراقى بأسعار تقل عن الأسعار العالمية بمقدار ٢٠ فى المائة بما فى ذلك السماح للعلماء الفرنسيين بالبقاء فى تويثا بعد تركيب المفاعل.

وقد قطع مركز البحوث النووية الذى أنشئ تحت إشراف العالم العراقى المعروف دكتور/ جمال كيتال. شوطاً طويلاً فى برنامج استغلال الطاقة الذرية للاستخدامات السلمية فى مجالات الفيزياء النووية والكيمياء الإشعاعية والبيولوجيا الإشعاعية، إضافة إلى التطبيقات الطبية والزراعية والصناعية. هذه البرامج بدأت بعد الإطاحة بالنظام الملكى فى بغداد وكان تدريب الدارسين العراقيين فى الاتحاد السوفيتى، وفى عام ١٩٦١ حصل العراق من الاتحاد السوفيتى على مفاعل أبحاث بقدرة ٢ (اثنين) ميجاوات يماثل مفاعل الأبحاث الأول فى إنشاص، وبمساعدة السوفييت كذلك أجريت عمليات المسح الجيولوجى للتنقيب عن رواسب المواد المشعة على طول الحدود مع سوريا وإيران وتركيا. وتشير التقارير إلى أن العراق أوفدت خبراءها إلى الهند للتدريب فى مركز «بهابها» للبحوث الذرية تحت إشراف الفيزيائى النووى «راجامانا»، برز منهم علماء وصلوا إلى العالمية.

كانت أخطر مراحل التطوير دخول العراق مجال دورة الوقود النووى ومحاولة الحصول على مفاعل إيطالى قدرته ٤٠ (أربعون) ميجاوات يعمل بالماء الثقيل للحصول على البلوتونيوم، وكان ذلك إشارة إلى رغبة العراق دخول المجال العسكرى، خاصة أن إيطاليا ساعدت العراق فى مجال معالجة الوقود (Reprocessing) وتدريب ١٠٠ (مائة) فنى عراقى.

وبعد أن صار العراق على مقربة سنة أو سنتين من تصنيع سلاح نووى؛ تصاعدت محاولات تدمير القدرات النووية العراقية بدأت هذه المرحلة باغتيال العالم المصرى الذى ساعد العراق فى تطوير برنامجها النووى: دكتور يحيى المشد الذى اغتيل فى باريس بواسطة الموساد الإسرائيلى وهو فى مهمة رسمية، ثم كانت الطامة الكبرى لإجهاض البرنامج النووى العراقى ومحوه من الوجود من خلال هجوم أمريكى للطائرات الحربية فى عام ١٩٩١ فى أعقاب حرب الخليج الأولى، وهكذا كان القضاء على البرنامج العراقى النووى بمثابة نكسة خيبت آمال العرب.

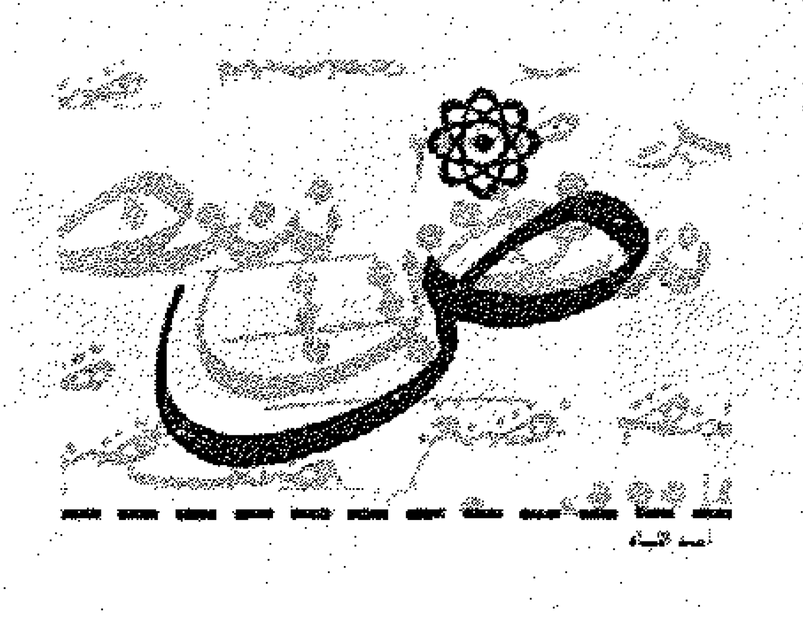
ثم تأتى المرحلة للبرنامج النووى العراقى فى ظل العقوبات التى فرضتها الأمم المتحدة على العراق والتى أدت إلى الكساد الذى طال جميع المجالات، بما فى ذلك الجوانب الاقتصادية والصناعية وتأثرت المؤسسات العلمية والبحثية وحدثت نكسة للبرنامج النووى. ثم زادت الأحوال سوءاً نتيجة الاجتياح الأمريكى للعراق والحرب التى دمرت كل مقومات العراق بما فيها البرنامج النووى العراقى بحجة حيازة العراق لأسلحة الدمار الشامل. وهى حجة أثبتت فرق التفتيش كذبها.

ج. ليبيا والتسليح النووى

الدولة الثالثة التى يمكن تصنيفها على أنها «ذات نشاط نووى ملحوظ» هى الجماهيرية الليبية، على أن هذا النشاط هو للاستخدامات السلمية.

بدأت المحاولات الليبية الحصول على تقنية نووية استراتيجية بالاتجاه نحو الصين من خلال زيارة قام بها عبد السلام جلود للصين فى عام ١٩٧٠ حيث طلب شراء سلاح نووى أو الحصول على تكنولوجيا نووية تؤدى إلى تصنيع أسلحة نووية. وقد قوبل الطلب الليبى بالرفض؛ ولكن الصين أبدت استعدادها لتدريب الكوادر الليبية فى مجال العلوم النووية.. ولم تستطع ليبيا تحقيق أملها فى حيازة ما كانت تسعى إليه».

ويكشف كتاب «الانتشار النووى فى الشرق الأوسط» أن المحاولة الثانية كانت فى عام ١٩٧٤. فى أعقاب التفجير النووى الذى أجرته الهند، ولجأت ليبيا إلى باكستان بهدف الحصول على نوع من التعاون فى المجال النووى فى مقابل تمويل كبير تقدمه ليبيا لباكستان؛ وكان الطلب الليبى أن يكون التعاون فى مجال تكنولوجيا «دائرة الوقود النووى» (nuclery Fuel Cycle) .. ولم يتحقق هذا المشروع بسبب الظروف التى نشأت بعد اغتيال «بوتو» رئيس وزراء باكستان.



بعد أن صار العراق
على مسافة سنة أو سنتين
من تصنيع سلاح نووى؛ تصاعدت محاولات تدمير
قدراته النووية وكانت البداية اغتيال
العالم المصرى يحيى المشد



لعل المحاولة الوحيدة التى نجحت لبدء برنامج طموح لخلق قاعدة عالمية نووية فى ليبيا كانت عندما طلبت من الحكومة المصرية معاونتها فى بناء تكنولوجيا نووية، واستجابة من الجانب المصرى لطلب ليبيا بصدور قرار اختيار أحد العلماء المصريين الذى أمضى فترة طويلة عالمًا زائرًا (visting Scientist) فى الطاقة الذرية بأمريكا، هو دكتور عزت عبد العزيز الذى كان مديرًا لمركز البحوث النووية فى إنشاص آنذاك، وصدر فعلاً قرار جمهورى فى عام ١٩٧١ بإعارته إلى ليبيا لأسباب قومية لإنشاء الطاقة الذرية الليبية. تضمن برنامج عمله ثلاثة محاور رئيسية: أولها إنشاء قسم للطبيعة النووية فى كلية العلوم بجامعة الفاتح فى طرابلس ثم تزويده بمختبرات لكل من مصادر الأيونات الذرية ونظام متطور لبحوث الاندماج النووى بالاشتراك مع الطاقة الذرية البريطانية فى «هارويل» بإنجلترا، المحور الثانى كان إعداد الكوادر العلمية لخدمة البرنامج النووى الليبى من خلال إيفاد خريجى كليات العلوم والهندسة الليبيين إلى الجامعات الأمريكية للحصول على درجات الماجستير والدكتوراة فى العلوم النووية . على أن تكون هذه الكوادر هى المناط إليها إدارة وتشغيل البرنامج النووى الليبى «مستقبلاً»، وكان المحور الثالث والأهم، هو إنشاء مركز للبحوث النووية يضم التجهيزات والإمكانات والمختبرات الرئيسية لبرنامج متطور وطموح لكل من البحوث والتطبيقات الذرية. وقد استغرق تنفيذ مشروع إنشاء «مركز البحوث النووية» تسع سنوات. من عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٨٠ . فى موقع على الساحل الشمالى شرق طرابلس العاصمة عند بلدة تاجوراء.

يضم هذا المركز مفاعلاً للأبحاث قدرته ١٠ (عشرة) ميجاوات (كان فى السبعينيات أكبر مفاعلات الأبحاث فى المنطقة العربية)، كما يضم مختبراً لبحوث «البلازما والاندماج النووى» تم تزويده بنظام يسمى «التوكاماك». الذى يعتبر نواة توليد الطاقة الكهربية بواسطة اندماج أنوية نظائر الإيدروجين (الإيدروجين الثقيل) وهو النظام الذى يعتبر أساسًا لتصنيع القنابل الأيدروجينية التى تكون قوة تفجيرها أضعاف قوة تفجير القنابل الذرية.

لابد من التأكيد هنا على أن إمكانات مركز البحوث النووية فى ليبيا تندرج تحت مسمى التطبيقات السلمية للطاقة الذرية.

إضافة إلى ما تقدم من تجهيزات رئيسية يضم المركز بعض المعامل الأخرى، يذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: معجلان (Two Accelerators) طاقة كل منهما ١٥٠ إلى ٢٠٠ كيلو فولت إلكترونى لتوليد حزم من النيوترونات تستخدم فى العديد من البحوث والتطبيقات.

وكان معهد الإنماء العربى فى ليبيا الذى يقوم بنشاط ملحوظ فى مجال الدراسات الاستراتيجية والسياسية والاجتماعية بواسطة خبراء من الدول العربية كان قد قام بنشاط نووى من خلال تكوين «فريق التقنية النووية والدول النامية» وتم تكليف دكتور/ عزت عبد العزيز برئاسة هذا الفريق ووضع برنامج لعمل دراسات فى جميع فروع التقنيات النووية وتم اختيار علماء نوويين بارزين من كل من مصر وإنجلترا وبلجيكا ويوغوسلافيا كل فى مجال تخصصه.. أسفرت الدراسات عن تأليف سبعة مجلدات بالعناوين التالية:

الاندماج النووى، معجلات الجسيمات الذرية، المفاعلات النووية لتوليد الطاقة، النظائر والمصادر الإشعاعية، ترسيبات اليورانيوم عالميًا، التفجيرات النووية للأغراض السلمية. تناول كل مجال من هذه التكنولوجيات الوضع الحالى (State-of-the Art)، ثم الجوانب الاقتصادية والآثار البيئية والاستراتيجية، وأخيراً دور الدول النامية والخيارات التى تلائم الدول النامية، وعلى الأخص الدول العربية وإمكانية تنفيذ مشروع إقليمى كبير، على نمط التكامل فى الدول الأوروبية المعروف باسم «سيرن» (CERN) فى جنيف بسويسرا.

أما الدول العربية الأخرى التى لديها برامج نووية ذات مستويات محدودة فهى: الجزائر التى تمتلك مفاعلين للأبحاث وبعض الأنشطة الأخرى، وقد ذكرت بعض التقارير أن الجزائر تسعى لتصنيع نووى استراتيجى، وسوريا تمارس نشاطًا نوويًا فى مجالات سلمية مختلفة، يذكر منها بحوث البلازما والاندماج النووى. ولبنان تهتم فى برامج بحوثها بالتحليل العناصرى للمواد باستخدام معجل يعرف باسم «تاندم فان دى جراف» (Tandum Van de Graff)، أما تونس فإن برنامج الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية يتضمن. إلى جانب أنشطة أخرى . بحوث وتطبيقات النظائر المشعة فى الطب والصناعة.

وأخيراً، أنشأت مصر مركزًا يضم أنشطة فى برامج تطبيقات النظائر المشعة يسمى: «المركز الإقليمى للدول العربية للنظائر المشعة»، يقوم عدد من الأساتذة والخبراء المصريين بعقد دورات تدريبية لوفود من الدول العربية، من الفيزيائيين والأطباء، والمهندسين وغيرهم فى تخصصات أخرى تعطى لهم محاضرات تتفق مع تخصصات كل فريق من المتدربين.

الجوانب الاقتصادية للتسليح النووى

إن عامل التكلفة والتمويل لبرامج التسليح النووى يعتبر أحد المعوقات الرئيسية لتطوير الأسلحة النووية فى الدول التى يتوافر لديها خبراء متخصصون، كما أن المعوقات ذاتها تعرقل التسليح النووى بسبب نقص الخبرات فى الدول الأخرى التى يتوافر فيها التمويل. وعلى أى حال، فإن أى دولة تخطط لحيازة أسلحة نووية يتعين عليها تقويم كل من التكلفة المباشرة وغير المباشرة التى تكون أكثر أهمية أحيانًا، فعلى سبيل المثال، كان تقدير أحد العلماء فى «معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MTT) فى أمريكا (فى عام ١٩٩٢) لأول سلاح نووى يستخدم البلوتونيوم فى حدود ٣٠٠ (ثلاثمائة) مليون دولار أمريكى (بتقويم التسعينيات)، وأن التكلفة الابتدائية لعدد يقدر بعشرة إلى عشرين سلاحًا نوويًا تكون حوالى بليون دولار، على أن ذلك يستغرق عدة سنوات تتحدد بنوعية وخبرة الفريق الفنى وإمكانية الحصول على استشارات خارجية وضمان استمرارية الدعم المادى، وفى جميع الأحوال تكون تكلفة التشغيل السنوية ما بين عُشر وخُمس هذه المبالغ؛ وهذه التقديرات قد تزيد أو تقل بناء على ما إذا حدثت أخطاء من عدمه، وعلى إمكانية إخفاء الأنشطة، فعلى سبيل المثال، يذكر تقرير «لمعهد العلوم والأمن الدولى» فى واشنطن بأمريكا، أن تكلفة الأسلحة ذاتها فى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية تمثل جزءًا صغيرًا من التكلفة الكلية للقدرات النووية لكل من الدولتين، فقد أنفقت الدولتان خلال الحرب الباردة للتسليح النووى مبالغ طائلة على الغواصات النووية والصواريخ وقاذفات القنابل وأنظمة الإنذار، إضافة إلى ما يتكلفه الفنيون القائمون بالعمل فى المشروع، فبالنسبة للدول المائة الأكثر فقرًا فى العالم. وقد تكون معظم الدول العربية من ضمنها. فإن أبواب التكلفة المذكورة، إضافة إلى القيود التى فُرضت على هذه الدول منذ عام ١٩٩٢ على استيراد المواد والتكنولوجيات الأكثر احتياجًا؛ ربما تكون عائقًا لحيازة أسلحة نووية، إلا إذا حاولت هذه الدول الحصول عليها بطرق غير مشروعة.

لقد أثبتت الأحداث الأخيرة فى منطقة الشرق الأوسط الأهمية القصوى لهذه التكاليف غير المباشرة؛ فالعراق مثلاً قد هوجمت مرتين بادعاء حيازتها لأسلحة الدمار الشامل.

وكانت الآثار المتعلقة بذلك مُقاسة من منظور اقتصادى باعتبارها آثارًا تدميرية تعتبر أكبر بنسبة كبيرة من التكاليف المباشرة لبرنامج التسليح النووى وما بين الدول الأكثر ثراء، وتلك الأكثر فقرًا، تقع مجموعة مهمة من الدول تكون تكلفة البليون دولار المطلوبة لتطوير أو حيازة تسليح نووى باهظة بدرجة كبيرة وقد يستحيل تحملها، إن عددًا من الدول العربية تدخل ضمن هذه المجموعة، فضلاً عن تعرض الدول العربية للمراقبة الشديدة من قبل أمريكا. والحالة العراقية خير دليل على ذلك.

العرب وجهة نظر يابانيّة

■ المكتبات اليابانية عامرة وزاخرة بعدد لا بأس به من الكتب والدراسات الجيدة عن أوضاع وأحوال الدول العربية على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كتبت أصلا باللغة اليابانية أو ترجمت من العربية والإنجليزية إلى اليابانية، وتقريبا لم يسبق لأحد من المتخصصين اليابانيين فى الشئون العربية خوض تجربة تأليف كتاب عن عالمنا العربى باللغة العربية.

ولذا يستحق المستعرب اليابانى نوبوأكى نوتوهارا مؤلف كتاب «العرب وجهة نظر يابانية» الصادر عن دار الجمل فى ألمانيا تسجيل اسمه كصاحب السبق فى هذا المجال، ونيل قدر وافر من التقدير والثناء على الجهد الكبير المبذول فى كتابه الذى لا يتجاوز عدد صفحاته ١٤٠ صفحة وإجادته ودقته فى تشخيص علل الشخصية العربية المعاصرة، بعد ٤٠ عاما أمضاها مقيما وزائرا ودارسا للدول العربية من المحيط إلى الخليج.

ويوضح نوتوهارا السر وراء إصراره على التأليف بالعربية بل واعتباره أن من واجبه فعل ذلك بقوله «اعرف سلفًا كم سترهقنى الكتابة بالعربية ولكننى قلت لنفسى، لقد كتبت للقارئ اليابانى باليابانية وقليلا بالإنجليزية فلماذا لا اكتب للقارئ العربى بلغته لمناقشة ما يهمه من قضايا تتعلق ببناء مستقبل أفضل حالا؟».



وقيمة الكتاب الحقيقية ليست فقط فى انه كتب بلغة عربية رصينة وجميلة تنم عن إتقان المؤلف لها، وإنما لكون نوتوهارا من الأسماء اليابانية اللامعة فى حركة ترجمة الأدب العربى على وجه العموم والمصرى على وجه الخصوص، ابتداء من نهاية عقد الستينيات من القرن الماضى، ومن ابرز الأعمال التى ترجمها رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوى و«الحرام» و«العسكرى الأسود» و«أرخص ليالى» ليوسف إدريس و«تلك الرائحة» لصنع الله إبراهيم وعائد إلى حيفا للكاتب الفلسطينى غسان كنفانى وغيرها من الأعمال لكبار الكتاب العرب.

وثمة ملاحظات نحسبها مهمة يستحسن إيرادها من البداية قبل الانشغال بتقويم ما ورد فى الكتاب وتمحيصه لبيان صحته حتى نتمكن من فهم واستيعاب أفكاره وآرائه، ونبدأها أولا بأن مصر كانت نقطة الارتكاز الرئيسية فى تشكيل هذه الآراء بحكم إنها الدولة التى درس فيها وأقام فيها أكثر من غيرها من الدول العربية.

ثانيا: أن المؤلف عقب فترة من الإقامة فى المدن العربية فقد اهتمامه بثقافة المدينة التى يصفها بثقافة المستقرين، فبدأ يبحث عن ثقافة مختلفة ومعنى جديد وجدها فى البادية والريف المصرى فأقبل على دراسة سكانهما واتجه إلى قراءة أعمال عبد الرحمن منيف وعبد السلام العجيلى وإبراهيم الكونى، وقد تأثر كثيرا بالأخير وهو كاتب ليبى ينتمى إلى الطوارق وترجم بعض مؤلفاته لليابانية.



ولم يخف نوتوهارا أن المصادفة وروح المغامرة قادته للانشغال بالثقافة العربية والبحث عن أشياء مختلفة عما تعود عليه فى اليابان، فمثل غالبية اليابانيين لم يكن يعرف شيئا عن الدول العربية باستثناء إنتاجها للبترول إلى أن افتتح قسم للدراسات العربية فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية عام ١٩٦١ حيث التحق به تحت إغراء تجربة المجهول، ثم تخرج منه وعمل أستاذا به إلى أن حصل على منحة من الحكومة المصرية للالتحاق بجامعة القاهرة كطالب مستمع فى عام ١٩٧٤.

ثالثا: انه رغم تأكيد نوتوهارا حتمية تجنب الأفكار الجاهزة عن الآخرين. العرب. وقبول قيم المجتمعات الاخرى كما هى دون تعريضها للتشويه فقد غلب على نظرته للعرب تأثره بالثقافة اليابانية ونمط تفكير اليابانيين وأسلوب التنشئة

العرب: وجهة نظر يابانية
نوبوأكى نوتوهارا
كولون: منشورات الجمل، ٢٠٠٣،
١٤١ صفحة

محمـــد إبراهيـم الدســوقى

المتبع فى اليابان والمختلف تماما عن أسلوب تنشئتنا لأولادنا وبناتنا مما وضعنا أحيانا فى مقارنة ظالمة مع اليابان.

فمثلا يتعجب كاتبنا بصورة غير مباشرة من توجيه سؤال متكرر فى الدول العربية متعلق باندهاش العرب من تعامل اليابانيين مع الولايات المتحدة التى دمرت المدن اليابانية فى الحرب العالمية الثانية مستخدمة القنبلة الذرية ضد مدينتى هيروشيما ونجازاكى؟ ويشير إلى أن العرب يتوقعون عداء يابانيا تجاه أمريكا بسبب ما فعلته وأن اليابانيين يتعاملون مع الأمر من منطلق عاطفى وليس بطريقة عملية.

ويرى نوتوهارا أن المسألة ليست كراهية أمريكا من عدمه، وإنما وعى اليابانيين بما ارتكبوه من أخطاء قبل وأثناء الحرب وتصحيحها عبر النقد الذاتى للاستفادة من التجارب والسير على الطريق السليم، ونقر بأن هذه الجزئية من بين الأمور الغائبة عن عالمنا العربى فنحن لا نتعلم من أخطائنا مهما بلغت فداحتها ولا نمارس النقد الذاتى إلا فى حدود ضيقة وعادة تحت ضغط خارجى مثلما جرى اثر هجمات الحادى عشر من سبتمبر.



غير أن رأى نوتوهارا السابق يفترض أن اليابان بلغت خط النهاية فى سباق المصالحة مع التاريخ وأنها اعترفت وندمت على أخطاء الماضى وأغلقت دفاترها وفتحت صفحة جديدة، لكن الواقع يظهر إنها لم تبلغ تلك المرحلة بعد بدليل أن التاريخ ما يزال السبب الحيوى والرئيسى وراء توتر العلاقات اليابانية الآسيوية بين الحين والآخر، نعم اليابان تغيرت وحريصة على التمسك بمبدأ السلم والتعايش مع جيرانها، غير أن قطاعا كبيرا من الساسة والمواطنين اليابانيين لا يزالون يؤمنون بأن بلادهم ظلمت وأن الدول الآسيوية يجب أن تشكرها على احتلالها إياها لأن الاحتلال وضعها على طريق التقدم والخروج من غياهب الظلام التى كانت تعيش فيها، ثم إن العديد من اليابانيين أعربوا فى مواقف عديدة عن إحساسهم بالضيق من الأمريكيين بسبب تصرفاتهم الطائشة وبالذات الجنود الذين ينتشرون فى الأراضى اليابانية. نحو ٥٠ ألف جندى.. وبالنظر فى تاريخ العلاقات الأمريكية اليابانية سنصل إلى حقيقة أن إعجاب غالبية اليابانيين بالنموذج الأمريكى مرده أن الولايات المتحدة كانت الدولة الوحيدة التى نجحت فى هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية مما جعل مواطنيها يعتقدون فى وقت من الأوقات أن الأمريكيين يملكون عناصر خاصة تمنحهم التفوق عليهم وبدأوا يفتشون عنها لغسل عار الهزيمة على يدهم.

على كل فإن المقارنات ما بين حالنا غير السعيد فى وطننا العربى وحال اليابان الآنى وبين المجتمعين العربى واليابانى تطل برأسها فى كل أجزاء الكتاب الذى أنصح كل مهتم بقضية التغيير فى الدول العربية بقراءته.

وفى الواقع فقد أجرى نوتوهارا تشريحا واقعيا مؤلما للشخصية العربية المعاصرة ووضع يده على مواطن الخلل والعيوب وجذور ما نعانيه من ضعف وهوان وقلة حيلة وتعثر جهودنا لإحراز تقدم اقتصادى وسياسى يواكب المتغيرات على الساحتين الإقليمية والدولية، وفى رأى المؤلف فان القمع هو أساس كل مشكلات العالم العربى.

وتعامل الكاتب مع آفة القمع لم يتم من خلال استعراض ما تحويه الدساتير والقوانين العربية من مواد تكبل وتعوق مسيرة الديمقراطية وحركة المجتمع المدنى وحرية التعبير وإصدار الصحف وخلافه بل بواسطة سرد مواقف وحكايات تكشف عن آليات القمع اليومية فى المجتمعات العربية وفضل فى معظم ذكرياته عدم تحديد البلد والأشخاص خوفا من تعرضهم لأذى، ويركز فى هذا الإطار على معاملة الأجهزة الأمنية للعرب والأجانب وكيف أن الأجنبى يهان فى المطار على يد قوات الأمن التى يتصرف أفرادها بغطرسة وتعال، فضلا عن الاضطرار لدفع رشوة لإنهاء إجراءات هنا أو هناك وحكى عن مشاهدته راهبة تدفع رشوة لكى تستطيع إنهاء إجراءات فى مكتب الهجرة وأن موظفة فى المطار أخبرت زوجة صديق كانت تودعه فى المطار «هل تريدين أن تتخلصى من هذا الخواجا وتصرفيه؟ بدون أن تضع فى حسبانها أنه قد يتحدث العربية».

ولا يفهم نوتوهارا السر خلف الإغراق فى القمع فى البلاد العربية، فاليابانى يشب على أن مهمة الشرطة ملاحقة المخالفات للقانون ومحاسبة المسئولين عنها مهما كانت مناصبهم ويسوق المثال باعتقال رئيس الوزراء الراحل تاناكا بتهمة تلقى رشوة من شركة أمريكية فى السبعينيات وإيداعه السجن تطبيقا لقاعدة أن الجميع سواء أمام القانون.

ومع عدم إنكار صحة ما ذهب إليه فإن ما لم يذكره الكاتب أن السجناء فى السجون اليابانية يلقون معاملة قاسية ومن يرجع إلى تقارير منظمة العفو الدولية سيجدها مليئة بوقائع ونماذج القسوة، ومنها الحبس الانفرادى لمدة طويلة تصل فى بعض الحالات إلى أشهر، كما يجبر من تعتقلهم الشرطة على الاعتراف أحيانا بارتكابهم جرائم يشتبه فى ارتكابهم إياها هربا من الضرب والتهديد الذى يتعرضون له فى اقسام البوليس.

ويربط الكاتب ما بين القمع وغياب شعور المواطنين العرب بالمسئولية تجاه الوطن والآخرين من العرب والأجانب، فانعدام الإحساس بالمسئولية يدفع المواطنين إلى تعمد تدمير الممتلكات العامة من حدائق ووسائل مواصلات وتحطيم المصابيح فى الشوارع وعدم المحافظة على نظافة دورات المياه العامة.

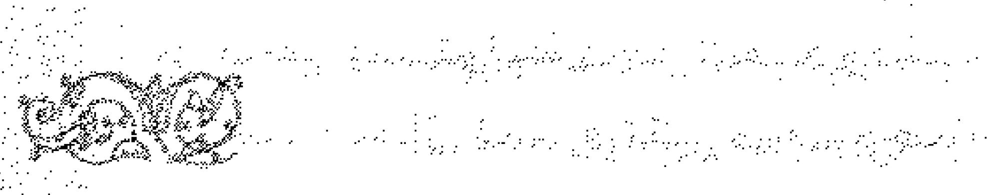
تلك المظاهر السلبية تجاوزتها اليابان منذ سنوات، ومن خلال معايشتى وعملى مراسلا للأهرام فى طوكيو لخمس سنوات لم أر أحداً يلحق أى ضرر بالحدائق العامة المنتشرة فى كل مكان أو يكتب بذاءات فى الحمامات العامة، فاليابانى ينظر لممتلكات العامة على أنها جزء من ثروته الشخصية ومن واجبه كمواطن صالح الحفاظ عليها حتى يتمتع بها هو وأطفاله وجيرانه.

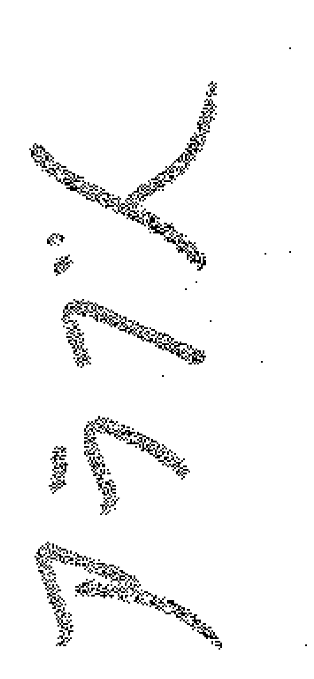
ويستشهد المؤلف بحديث دلالات ذات مغزى دار بينه وبين كاتبنا الراحل يوسف إدريس «الكاتب المعروف يوسف إدريس زار اليابان عدة مرات ولقد قال لى: انه كان يبحث عن سر نهضة اليابان التى أدهشت العالم وبعد زيارته الثالثة سألته: هل وجدت الإجابة فى اليابان؟ قال نعم عرفت السبب فمرة كنت عائدا إلى الفندق فى وسط طوكيو فى منتصف الليل ورأيت عاملا لم يكن يراقبه أحد يعمل وحيدا بجد ومثابرة، كما لو أن العمل ملكه عندئذ عرفت سبب نهضة اليابان، وهو شعور العامل بالمسئولية النابعة من داخله بلا رقابة ولا قسر».

نوتوهارا ذهب إلى حد ابعد فى تناوله لقضية المسئولية الاجتماعية بقوله «السجناء السياسيون ضحوا من اجل شعوبهم، لكن هذه الشعوب تضحى بأولئك الأفراد الشجعان، فلم نسمع عن مظاهرة أو إضراب عام أو احتجاج فى أى بلد عربى من



المجتمع العربى عامة ليس عنده استعداد لرعاية المواهب وصقلها، كما أن الرجل العربى له وجهان متناقضان فى المنزل وخارجه ينتج عنهما أشكال لا حصر لها من الرياء والخداع والقمع





كتاب الزاوية

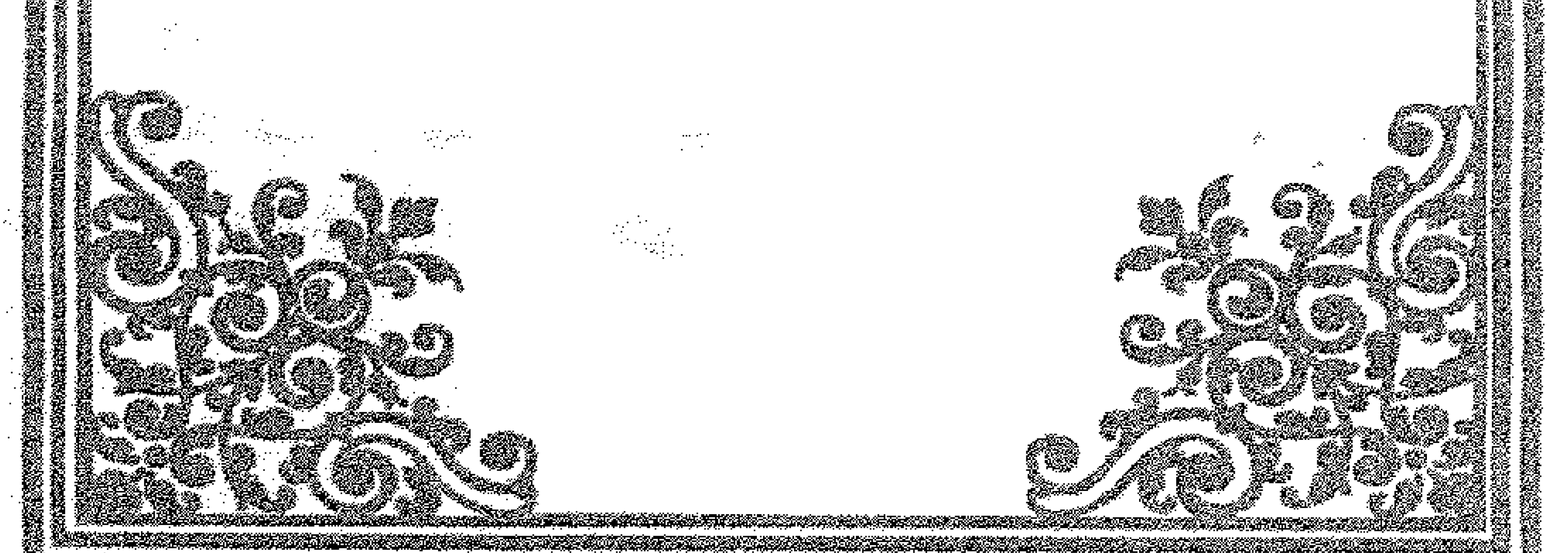
٢ - مذكرات الإمام محمد عبده

نشأتى وتربيتى

تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى، ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن.. قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة، ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين، أدركنى فى ثانيتهما صبيان من أهل القرية..

بعد ذلك حملنى والدى إلى طنطا، حيث كان أخى لأمى الشيخ مجاهد رحمه الله، لأجود القرآن فى المسجد الأحمدى لشهرة قرائه بفنون التجويد. وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ الهجرية. ورجعت إلى محلة نصر على نية ألا أعود إلى طلب العلم، وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ على هذه النية.

فهذا أول أثر وجدت فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا، وهى بعينها طريقته فى الأزهر.. وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل فى التعليم.. سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو مالا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئًا.. فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال، وهم فى أحلام الأطفال، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة، فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد، ويؤذون بدعاواهم من يكون على شىء من العلم، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعمله.



اجل قضية السجناء السياسيين، ويتصرفون معها بوصفها قضية فردية على أسرة السجين وحدها أن تواجه أعباءها».



ولم يجد المؤلف سوى نفر قليل بين المثقفين العرب الذين اتسمت مواقفهم بالصدق ودفعوا ثمن هذا الموقف وخص بالذكر منهم الكاتب المغربى عبد اللطيف اللعبى الذى امضى فى السجن عدة سنوات قبل اطلاق سراحه والاستقرار فى باريس، والكاتب المصرى يوسف إدريس الذى وصفه بأنه كان طريقه إلى معرفة المجتمع المصرى.

وفى اعتقاد نوتوهارا فإن اختفاء الإحساس بالمسئولية يتمخض عنه انعدام الثقة داخل المجتمعات العربية ويحل محلها المنفعة المتبادلة وفتح عشرات القنوات المسهلة لمخالفة القوانين وبسط الحماية لهذه الفئة تعظيما لمكاسبها، فالثقة جهاز يضبط المجتمع ويحافظ عليه سلميا.

وفى هذا السياق يطرح نوتوهارا التساؤلات الآتية:

. هل يثق المواطن العربى بأحزابه السياسية وحكامه؟

. هل يثق المواطن بالصحافة والقضاء والقوانين المعمول بها؟

. هل يثق العاملون بأرباب أعمالهم؟

. هل يثق الفلاح بالتاجر الذى يشترى محصوله والمشترى بالبائع؟

يتصل بما سبق أن غياب الشعور بالمسئولية ينعكس فى كيفية حكم البلدان العربية، فالحاكم العربى المتمتع بامتيازات تعود أصولها للعصور القديمة مع استثناءات قليلة يبقى فى سدة الرئاسة مدى الحياة ولا يغادرها إلا فى حالة الوفاة أو الاغتيال أو الانقلاب، فالحاكم من وجهة النظر اليابانية يجب أن يشعر بمسئولية نحو شعبه وعليه إعطاء مجال لغيره لكى يخدم هذا الشعب.

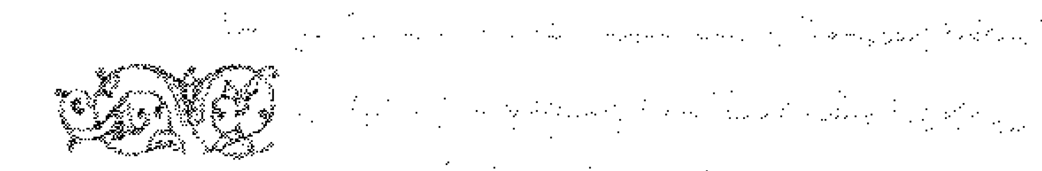
أما أحزاب المعارضة فإن أغلبها مجرد أحزاب تطمح للسيطرة والسلطة دون أن تقدم مشروعا مغايرا لمشروع النظام القائم. إن وجد أساسا. مما يوفر المناخ المطلوب لاستمرارية أنظمة الحكم وبسط قبضتها على السلطة، وبالنسبة لطبقة المثقفين فإن معظم الكتاب العرب قد تعبوا أو يئسوا أو انهزموا وفضلوا السير فى معية السلطة بمدحها والتغزل فى محاسنها ومآثرها ويمارس بعض المثقفين الديكتاتورية مع تشدقهم آناء الليل وأطراف النهار بالديمقراطية.

ويؤكد المؤلف أن عقول اليابانيين عاجزة عن فهم معنى امتداح الشاعر أو الكاتب للسلطة أو أحد رموزها، فالمنتظر من الكاتب مساعدة المواطنين وإرشادهم للمستقبل.



وغاب عن نوتوهارا الإشارة إلى أن اختيار رؤساء الوزراء فى بلاده لا يتم أغلب الوقت وفقا للمصلحة العامة إنما وفقا لمصالح جهات معينة فى عالم المال والتجارة والاقتصاد، فرئيس الوزراء اليابانى يمكث فى السلطة ٩ أشهر أو عام على الأكثر يتعين عليه بعدها مغادرة منصبه لإفساح الطريق لتولى آخر يقف فى طابور الطامحين لشغله، وتحضرنى قصة اختيار يوشيرو مورى رئيسا للوزراء خلفا لكيزو اوبوتشى أواخر عقد التسعينيات، فالعادة جرت أن يجتمع كبار مسئولى الحزب الليبرالى الديمقراطى الحاكم فى احدى غرف فندق من فئة خمسة نجوم لاختيار المسئول الأول وبعد فترة من المناقشة وترشيح أسماء عديدة لم يقبلها الحضور صاح احدهم لماذا لا نختار مورى الموجود معنا؟ وبالفعل اصبح رئيسا للوزراء واتسمت فترة ولايته بكثير من المشكلات الناتجة عن سوء تصرفاته وتصريحاته غير المحسوبة.

واستكمالا لتشخيصه المستفيض والعلمى للشخصية العربية المعاصرة توقف نوتوهارا عند تفاصيل الحالة



يؤكد المؤلف أن عقـــول اليـــابانيين عاجـــزة عن فهـم معنى امتداح الشاعر أوالكاتب للسلطة أو أحد رموزها، فالمنتظر من الكاتب مساعدة المواطنين وارشـــادهم للمســـتقبل



الاجتماعية فى البلاد العربية ليكشف مزيدا من جوانب القصور والعيوب المعطلة للطاقات وتنمية القدرات البشرية والإبداع، ونقطة تركيزه كانت الأطفال الذين يتعرضون لألوان وصنوف شتى من القمع الذى يبدأ بسلطة الأب فى المنزل والمعلم فى المدرسة مما يجعل الطفل يألف القمع كجزء من وجوده، ناهيك عن قمع الفقر والجوع الذى يطال قسما كبيرا من أطفال الوطن العربى. بالإضافة إلى سوء استغلال الأطفال وتوظيفهم كباعة جائلين وكماسحى أحذية وحرمانهم من الحصول على قسط وافر من التعليم، ويقر المؤلف بأن وضع المعلمين فى الدول العربية غير المنتجة للبترول بائس: فالمرتبات متواضعة للغاية والعلاوات غائبة، علاوة على غياب التقدير الاجتماعى لمكانة المعلم على عكس اليابان.

فلا يحق لأى شخص فى اليابان فصل المعلم والأستاذ الجامعى من عمله بما فى ذلك البرلمان والقانون يحميه والى جواره التقدير الاجتماعى ما لم يتورط فى جريمة تمس الشرف، فاليابان تتشدد فى التعليم لإخراج عناصر قادرة على العمل والتطوير ولا تمانع لأجل هذا الغرض فى إرهاق التلميذ منذ نعومة أظافره لتحصيل اكبر قدر من الخبرات والمهارات، وغنى عن البيان أن الراغب فى التطوير والتغيير عليه أن يبدأ بالتعليم.

فوق ما سلف فإن المجتمع العربى عامة ليس عنده استعداد لرعاية المواهب وصقلها، وأضيف إلى ذلك ممارسة العنصرية ضد بعضهم البعض والازدواجية فى الشخصية العربية، فالرجل العربى له وجهان متناقضان فى المنزل وخارجه ينتج عنهما أشكال لا حصر لها من الرياء والخداع والقمع.

ومما يحمد لنوتوهارا أنه لم يغفل القضية الفلسطينية التى فضل تناولها من باب أدب غسان كنفانى وقدم عرضا رائعا فند فيه ملامح هذه القضية ومأساة الشعب الفلسطينى ليس بعيون الغرب ولكن بعيون شخص دقق وحلل وتوصل إلى نتيجة فحواها أن العالم كله مسئول عن الجريمة التى ارتكبت بحق الشعب الفلسطينى وانه لا يزال يتفرج على ما يحدث له دون أن يعمل جديا لحل الأزمة الفلسطينية جوهر الصراع فى منطقة الشرق الأوسط.

بدورنا علينا عدم التقليل من أهمية تكوين شخص مثل نوتوهارا رؤية سليمة للقضية الفلسطينية، فالجزء الأكبر من اليابانيين اليوم ينظرون للقضية نظرة غير واقعية بالمرة بسبب تأثرهم بما يصل إليهم من معلومات مصدرها الصحافة الغربية التى حولت المقاومة الفلسطينية إلى فرع من أفرع الإرهاب الدولى وان إسرائيل مظلومة لان شعبها يقتل فى العمليات الانتحارية بلا ذنب وإن الفلسطينيين لا يعرفون سوى لغة العنف والقتل ورفضوا كل الاقتراحات ومشاريع التسوية السلمية المعروضة عليهم من جهة الولايات المتحدة وإسرائيل والعرب.



ولعل الفصل الخاص بما تعلمه المؤلف من ثقافة البدو من أمتع فصول الكتاب، والمتعة ليس مصدرها سرده للجوانب التقليدية من المأكل والمشرب والترحال بحثا عن الماء ولكن لغوصه فى فلسفة حياة البدو ومغزى عاداتهم وتقاليدهم بعيدا عن التضليل الذى مارسه الإعلام الغربى بحقهم، وكيف أن معظم المثقفين العرب ينظرون بتعال إلى ثقافة البدو ولا يمنحونها ما تستحق من التقدير والدراسة، والفصل فى مجمله صورة فائقة الدقة لعالم البدو بمنظور أدبى وحياتى.

ونختم بسؤال منطقى وجهه نوتوهارا بخصوص ماذا يفكر العرب أن يفعلوه للمستقبل؟

إجابة التساؤل ستظل فى نظر المؤلف مرهونة بالتصدى لمشكلة القمع والحرية حتى يختفى التوتر المهيمن على الشارع العربى ويشعر المواطن العربى بالسعادة، حينئذ يمكن رسم مستقبل أفضل لوطننا العربى. ■

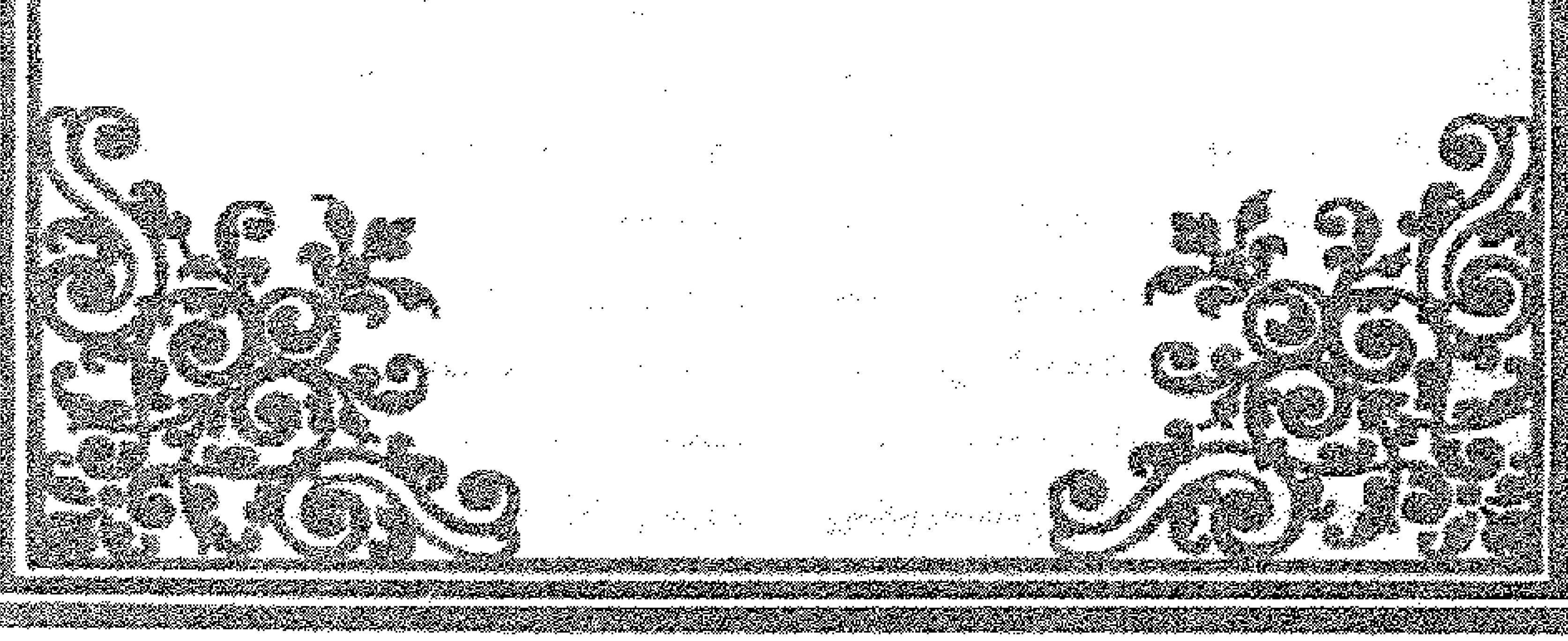


٣ـ مذكرات الإمام محمد عبده

ماذا صنع محمد على؟

ما الذى صنع محمد على؟ لم يستطع أن يحيى، ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة.. فأخذ يستعين بالجيش، وبمن يستميله من الأحزاب، على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً، وأعانه على الخصم الزائل، فيمحقه.. وهكذا، حتى إذا سحقت الأحزاب القوية، وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالى، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها، فلم يبق فى البلاد رأس يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثة عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة، وعلى أى وجه.. فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده، على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة.



بدايات التاريخ

كان غامضا وغائبا

محمد البهى عيسوى

يقول المتنبى:

ومن جهلت نفسه قدرها
رأى غيره فيه ما لا يرى

ومنذ أكثر من نصف قرن رأى العميد طه حسين أن هذا البيت يصف حال المصريين المعاصرين بالتواضع والتضاؤل لا بالعظمة والكبرياء. ويستطرد العميد فى كتابه «من لغو الصيف» فيقول: «فالمصريون يجهلون من أمر مصر أكثر مما يعلمون. فيرونها صغيرة، ويرون أنفسهم معًا صغارًا.. والأجانب يعلمون من أمر مصر ومن أمر المصريين أكثر مما نعلم نحن.. وينشأ عن جهل المصريين بشئون بلادهم فى قديمها وحديثها أن تكون آمالهم فى مستقبلها ملائمة لما يعلمون من أمرها.. دع هذه الناحية وخذ ناحية أخرى هى ناحية التعليم، فسترى التفكير فيه صغيرًا، والنظر إليه قصيرًا، والعناية به على قد المصريين لا على قد مصر. فمصر عظيمة التاريخ ولكن أهلها يجهلون هذا التاريخ جهلاً مخزيًا. وحسبك أن التعليم الحديث قد بعد عهده بمصر، وأن اللغة العربية التى هى لغة المصريين لا تعرف كتابًا مقنعًا فى تاريخ مصر يطمئن إليه أوساط الناس، وإنما هم مضطرون إلى الجهل أو إلى التماس تاريخهم عند الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان. فما أقل المصريين الذين يعرفون بلادهم معرفة جغرافية مقاربة.. تحدث إلى من شئت من المصريين عن هذه الصحراء التى تأخذهم شرقًا وغربًا، ثم انتظر رجع حديثك، فلن تجد لحديثك رجعًا ولا صدى، لأن أكثر هؤلاء المصريين لا يكادون يعرفون من أمر هذه الصحراء شيئًا، تحدث إليهم عن النيل، تحدث إليهم عن البحر الأبيض أو عن البحر الأحمر، فلن تجد لحديثك رجعًا ولا صدى».

تذكرت هذه الكلمات وأنا أقف مع كوكبة من علماء العالم. ٦٧ عالمًا من أكثر من سبع عشرة دولة. يجتمعون أمام جبل صغير فى قرية من قرى الصعيد تعرف باسم «الدبابية» إلى الجنوب الشرقى من الأقصر بحوالى ٣٥ كم. وكان المصريون المشاركون لا يزيد عددهم على ١٢ عالمًا من جامعات مصر التى يصل عددها الآن إلى ١٤ جامعة غير الجامعات الخاصة!!. لمدة أربع سنوات كاملة اهتم العالم الجيولوجى فى شتى أنحاء الأرض بهذه المنطقة وكافح بعض علماء مصر من أجل أن يتم اختيار منطقة «الدبابية» دون مناطق أخرى فى حوض البحر الأبيض كقطاع نموذجى لتاريخ معين ظل غامضًا وغائبًا حتى كشف علماء جامعة أسيوط. قسم الجيولوجيا. عن تواجد هذا القطاع الجبلى النموذجى فى قرية الدبابية. وكافح واستبسل د. خالد عوده حتى تمكن من إقناع اللجنة الدولية للعلوم الجيولوجية فى اختيار هذه المنطقة بمصر ممثلاً لحقبة زمنية معينة وتمت الموافقة على ذلك فى فبراير ٢٠٠٢ وعلى أن تعقد اللجنة الدولية اجتماعها التالى فى فبراير ٢٠٠٤ بمنطقة الدبابية. وهو ما حدث بالفعل. هذا الحدث العالمى الذى لم يحدث أبدًا بمصر مرّ دون أن يعيره المصريون أو وسائل إعلامهم ما يستحق وقارن ذلك بمباريات كرة القدم التى ننهزم فيها دائمًا أو بأخبار هذا الممثل أو تلك «الفنانة». ثم نتحدث بعد ذلك عن تخلف مصر العلمى والاقتصادى!!. والآن ما هى حقيقة القصة؟





يُقسم التاريخ الجيولوجى للأرض إلى عدة أحقاب تمتد داخل أغوار الزمن من ٤,٦ بليون سنة. بداية تكون الأرض. إلى أيامنا الحالية. وقسمت هذه الأحقاب إلى عصور جيولوجية والعصور إلى فترات. وكل من الأحقاب والعصور والفترات لها تاريخ بداية وتاريخ نهاية. ومن ثم فإنه يمكن مقارنة تاريخ هذا العصر أو تلك الفترة فى مصر، مثلاً، مع مواقع لها نفس التاريخ فى ليبيا أو السودان.. ويمثل كل عصر أو فترة بقطاع صخرى معين يمكن تتبعه داخل كل قطر وامتداداته فى منطقة ما حول هذا القطر. وسميت العصور والفترات باسم المكان الأول الذى اكتشفت فيه صخور هذا العصر أو تلك الفترة. وأول أو أقدم العصور الجيولوجية التى يوجد فى صخورها حيوانات واضحة ومفصلة هو العصر الكامبرى والذى بدأ منذ ٥٤٥ (خمسمائة وخمسة وأربعين) مليون سنة. واستمر لمدة ٥٠ (خمسين) مليون سنة. وسمى بهذا الاسم لأن صخوره عرفت لأول مرة فى إنجلترا فى منطقة كامبريا حيث عاشت قبيلة بهذا الاسم فى القرون القديمة (القرن العاشر والحادى عشر) بهذا المكان. وقبل العصر الكامبرى لم يعثر على حفريات واضحة داخل الصخور غير بعض آثار لحيوانات الخلية الواحدة والتى ظهرت على الأرض منذ أكثر من ٢٥٠٠ (ألفين وخمسمائة) مليون سنة. ومن ذلك يمكن القول إن أول الحيوانات الواضحة والتى أمكن تعريفها وتوجد الآن على هيئة حفريات (بقايا حيوانية أو نباتية) داخل صخور هذا العصر.

وتعتبر الحفريات هى الساعة الزمنية التى يمكن معها تحديد الوقت الذى وجدت فيه الصخور الحاملة لحفريات معينة. ومع تقدم العلوم الجيولوجية وخاصة علم الحفريات والذى يعرف باسم الباليونتولوجى Paleontology أمكن تقسيم الفترة الزمنية من ٥٤٥ مليون سنة. بداية العصر الكامبرى. إلى الوقت الحالى والذى يعرف باسم الهولوسين Holocene والذى بدأ تاريخه منذ عشرة آلاف سنة فقط واستمر حتى اليوم إلى ١٦ (ستة عشر) عصرًا. وتفصل هذه العصور عن بعضها أحداث جسام مثل ظهور أو اختفاء حيوانات معينة أو حدوث حركات تركيبية غيرت من شكل القشرة الأرضية أو تكون الثلوج على قطبى الأرض أو ذوبانها.. إلخ. المهم أن الفاصل الجيولوجى بين أى عصرين هو فاصل واضح يمكن تتبعه فى أنحاء الأرض قاطبة ولا يمكن زحزحته إلى أعلى أو إلى أسفل وفقًا لتغير المكان. والسؤال الذى يتبادر إلى ذهن غير المتخصص هو ما أهمية ذلك؟ يمكن الرد على ذلك بطريقة علمية. فالبترول يوجد فى السعودية داخل صخور السيلورى الأعلى (٤٢٨ مليون سنة) لارتفاع سطح البحر وكثرة المياه بالبحار والمحيطات بعد ذوبان الثلوج التى غطت سطح قطبى الأرض فى العصر السابق: الأوردوفيسى الأعلى والسيلورى الأسفل (من ٤٥٨ مليون سنة حتى ٤٢٨ مليون سنة). وداخل مياه البحار والمحيطات التى زادت كثيرًا وطفت على الأرض، انتشرت حيوانات صغيرة تعرف باسم الجرابتوليت فى المياه. ونتج عن موت هذه الحيوانات وسقوطها بأعداد لا حصر لها تكون مواد عضوية أدت فى النهاية إلى تكون مخزون ضخم من البترول فى حقول السعودية. على نفس النمط وخلال نفس التاريخ تكون مخزون بترول ليبيا. وكان على الجيولوجيين المصريين البحث عن هذه الفترة الزمنية داخل الصحراوات المصرية واستكشاف ما فى صخورها. ولكن للأسف كانت مصر خلال هذه الفترة مرتفعة فوق سطح مياه المحيطات ومن ثم لم تترسب صخور هذا العصر بمصر سوى فى مناطق حدودية مع ليبيا. وكان الترسيب ضعيفًا لم يعط سوى أمتار قليلة من الصخور لا تحتوى على حفريات كثيرة من الجرابتوليت.

ومن الأحداث الكبيرة والمهمة فى تاريخ الأرض، اختفاء الديناصورات فجأة عند نهاية العصر الطباشيرى أى منذ نحو ٦٥ مليون سنة. سادت هذه الحيوانات الضخمة، التى يصل طولها إلى أكثر من ٢٥ مترًا وارتفاعها (بعض أجناسها) إلى أكثر من عشرة أمتار ووزن بعض الأجناس الضخمة منها إلى عشرة

«الدبابية» فى جنوب مصر



فى جبـــل «الدبابيـــة»

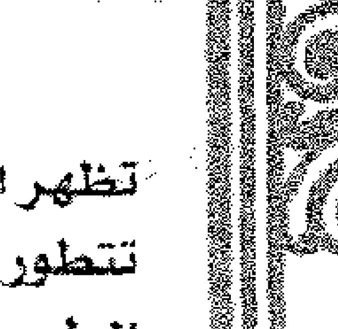
أطنان أو أقل. بينما توجد بعض من هذه الحيوانات فى حجم الفراخ الصغيرة. ورغم هذا الحجم والوزن الكبيرين فإن وزن المخ لم يزد على بضعة أوقيات. وهناك رأيان علميان عن سبب اختفاء هذه الحيوانات الأول: هو تعرض الأرض لنيزك ضخم سقط عليها نتيجة انفجار أحد الكواكب فى المجرة التى تعيش بداخلها. وأدى ذلك إلى انبعاث كمية كبيرة من الغبار حجبت قرص الشمس عن الأرض لمدة زمنية طويلة قد تصل إلى بضع سنوات. ومن ثم فقدت أو انعدمت الحياة على الأرض. والرأى الثانى يقول: إن غباء الديناصورات وعدم تأقلمها مع الظروف المحيطة كان عاملاً أساسياً لاندثارها. عموماً فإن نهاية الديناصورات وضعت حداً فاصلاً بين عصرين.

كذلك كان انتهاء واختفاء البرمائيات الضخمة والتى يصل بعض أحجامها إلى درجة أنها كانت تضع أقدامها على الأرض ورؤوسها على بعد أكثر من ١٥ متراً!! حداً فاصلاً بين الكربونى والبرميان أى عند ٢٩٠ (مائتين وتسعين) مليون سنة.

ولما كانت بعض الحشرات الطائرة عند فرد أجنحتها تصل إلى ستة أمتار، وكذلك فإن طيران بعض الديناصورات أكد أن كمية الأكسجين بالجو القديم كانت أكبر بكثير من الموجود حالياً، وهذا ساعد على وجود هذه الحيوانات الضخمة.

أعطيت بعض الأمثلة عن أهمية الحد الفاصل بين عصرين جيولوجيين وبعض الأسباب التى أدت إلى اهتمام العلماء بهذه الحدود الفاصلة. ومن ثم فقد أقر العلماء مناطق معينة تكون صخورها هى القطاع النموذجى لهذا العصر أو ذاك. وكلما كان القطاع الرسوبى متكاملاً، أى أن الصخور التى تتبع هذا العصر أو تلك الفترة الزمنية ترسبت فى قيعان البحار والمحيطات دون انقطاع أو دون حركات رفع للأرض يترتب عليها عدم ترسيب بعض الصخور، كلما حدث ذلك كان القطاع نموذجياً. ففى نهاية عصر الباليوسين أى منذ نحو ٥٥,٥ مليون سنة (خمسة وخمسين ونصف) حدث ارتفاع حاد فى درجة حرارة الأرض وفى قيعان المحيطات والبحار ارتفاعاً مفاجئاً أدى إلى وفاة غالبية الأحياء التى تعيش فى البحار والمحيطات سواء أكانت هائمة على السطح أو فى الأعماق. ولعل هذا الارتفاع المفاجئ فى الحرارة نتج عن ثورات بركانية داخل مياه المحيطات وكذلك لاتساع رقعة أرضيات المحيطات حيث استمرت أمريكا الجنوبية فى الابتعاد عن أفريقيا وكذلك أمريكا الشمالية عن أوروبا. وبموت الأحياء البحرية وتحللها بالقرب من أرضيات البحار ارتفعت نسبة ثانى أكسيد الكربون فى المياه وتدريجياً تم القضاء على غالبية الأحياء التى تعيش بعيداً عن قيعان المحيطات سواء أكانت هائمة أو تعيش على الأرصفة القارية بين الأرض والبحر. وتطور الأمر بعد ذلك وانتشر غاز ثانى أكسيد الكربون إلى الجو وأدى ذلك إلى اندثار الحياة أو كثيراً من الأحياء الأرضية. وساعد على ذلك تغير الضغوط الجوية ونشطت الرياح بالتالى وساعدت على زيادة انتشار غاز ثانى أكسيد الكربون. والنتيجة هى انهيار كامل فى معدلات توالد الأحياء البحرية والأرضية النباتية والحيوانات. ثم حدث ما يعرف باسم الطفرات الحيوانية والنباتية وتتلخص فى توالد وتكون أحياء جديدة تختلف عن سابقتها عندما تحسنت ظروف الحياة وعادت الظروف المناخية إلى طبيعتها. وتعرف هذه الفترة باسم الحرارة القصوى لنهاية الباليوسين. وبصورة تدريجية بدأت الحرارة فى الانخفاض وازدادت كميات الأكسجين بالجو وقلت بالتالى نسبة ثانى أكسيد الكربون وعادت نسب الغازين إلى مستوياتهما العادية. فى الجو. تدريجياً ثم فى مياه البحار السطحية ثم فى المياه العميقة. وصاحب ذلك خمود الثورات البركانية وعودة الحياة الحيوانية والنباتية فى البحر والأرض. وبدأت الحياة فى البحار بالكائنات الهائمة التى تطفو فوق سطح المياه ثم انتشرت تدريجياً داخل المياه حتى أعماق البحار. وعلى الأرض بدأت الثدييات الأولية فى الظهور وهى الثدييات الجرابية كالكانجرو. التى تلد أجنة ناقصة النمو وتحتفظ بالجنين داخل كيس على بطن الأم. وتطورت هذه الثدييات الناقصة فأعطت المشيميات وهى الثدييات التى يرتبط الجنين بالأم عن طريق حبل سرى لنقل الغذاء من الأم إلى الجنين. وحدث أن انفصلت استراليا عن آسيا بما فيها من جرابيات قبل ظهور المشيميات القوية مثل الوحوش آكلة اللحوم والتى قضت تماماً على الجرابيات فى العالم القديم. آسيا وأفريقيا والأمريكتين. بينما عاشت الجرابيات آمنة فى قارة استراليا بأكملها دون أن تتعرض للمشيميات القوية المفترسة.

والطريف أن نيوزيلنده انفصلت عن استراليا قبل أن



كتاب الزاوية



٤ ـ مذكرات الإمام محمد عبده

الدين والأوقاف

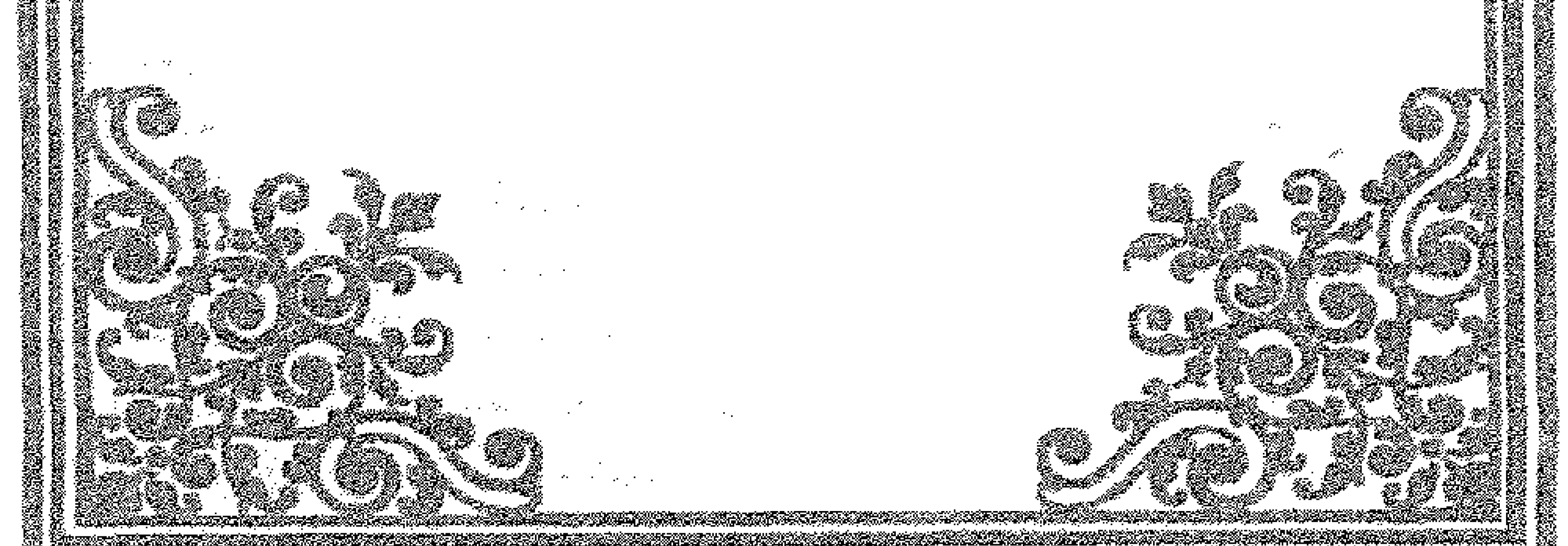
من جدران سلطانه دعامة من الدين.. أى دين كان دعامة لسلطان محمد على؟.. دين التحصيل (جمع الضرائب بالقوة) دين الكرباج.. دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده. وإلا فليقل لنا أحد من الناس أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامى الجليل؟

لا يذكرون إلا مسألة الوهابية، وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين.. نعم إن الوهابية غلوا فى بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين.. وما كان محمد على يفهم هذا، ولا سفك دماءهم لإرجاعهم إلى الاعتدال، وإنما كانت مسألة محضة تبعثها جرأة محمد على، على سلطانه العثمانى.

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق، وأبدلها بشىء من النقد يسمى «فائض رزمانة» لا يساوى جزءًا من الألف من إيرادها. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقى له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة.

وقصارى أمره فى الدين، أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو إجلاسهم على الموائد لينفى من يريد منهم إذا اقتضت الحال ذلك، وأفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط.. ماتوا عليه.

إن هذا الرجل كان تاجرًا زارعًا، وجنديًا باسلاً، ومستبداً ماهرًا، لكنه كان لمصر قاهرًا، ولحياتها الحقيقية معدمًا.



جبل «الدبابية»

تظهر الثدييات الجرابية. ومن ثم لم تتطور حيوانات نيوزيلنده وسادت فيها الطيور الغريبة التى اندثرت فى العالم قاطبة عدا نيوزيلنده مثل الكيوى.

والاعتقاد السائد بين العلماء الآن أن فترة الحرارة القصوى بين عصرى الباليوسين والايوسين تمثل البداية لظهور أسلاف الحياة فى الحقب الحديثة كأسلاف الثيران والجمال والأفيال والأحصنة ومن آكلات اللحوم والقردة الأولى والحيتان وأبقار البحر وانتشرت الطيور فى الجو. وعلى الأرض كان المناخ مهيئًا لازدهار الأشجار والنباتات.. كانت الأرض تتهيأ لأن يصل وضعها إلى ما نحن فيه من حياة نباتية وحيوانية وكذلك لظهور أفضل المخلوقات: الإنسان.

ونتيجة لهذه الأحداث الضخمة فى كثير من أنحاء العالم خلال الفترة الزمنية حول الـ٥٥ مليون سنة (خمسة وخمسين) أى عند نهاية عصر الباليوسين وبداية عصره الأيوسين والكلمة الأخيرة تعنى فجر الحياة الحديثة (الحياة الحديثة = Cene - فجر = EO) بينما تعنى الكلمة الأولى فجر الحياة الحديثة القديم (الحياة الحديثة = Cene فجر = EO ، قديم = Palco).. نتيجة لهذه الأحداث فإن السجل الصخرى بين هذين العصرين مفقود تمامًا فى أغلب مناطق العالم إلا أن منطقة الدبابية والتى تقع إلى الجنوب من مدينة الأقصر بحوالى ٣٥ كيلومترًا. كما يقول الأستاذ الدكتور خالد عودة أستاذ الجيولوجيا بأسيوط.. هى المنطقة المثلى فى العالم قاطبة التى لا توجد بها هذه الثغرة أو بمعنى آخر هناك تكامل فى الرسوبيات حيث كانت الأجزاء الجنوبية من مصر حول الأقصر وجنوبًا، بعيدة عن تلك الأحداث الخطيرة التى حدثت بالعالم.. ومن ثم ترسبت الصخور بانتظام عند نهاية الباليوسين وبداية الأيوسين حول ٥٥ مليون سنة دون انقطاع، وتصل الفترة الزمنية الغائبة فى القطاعات الصخرية فى أوروبا إلى حوالى ٢,٤ مليون سنة.



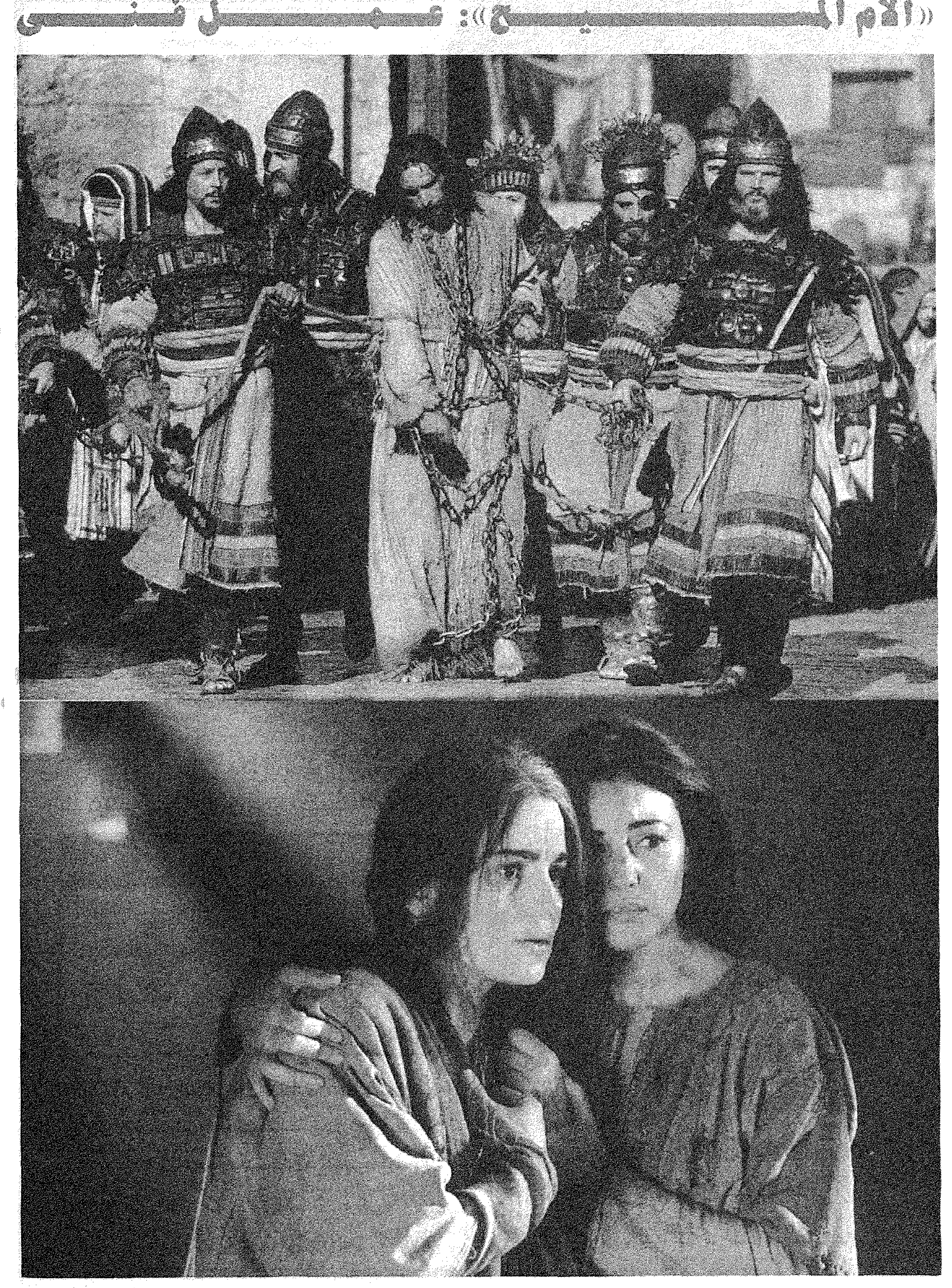
فى الدبابية يعتبر القطاع الرسوبى قطاعًا نموذجيًا يغطى هذه الفترة الزمنية الغائبة والمفقودة فى قطاعات أوروبا، أى فترة الـ٢,٤ مليون سنة.. ومن ثم يصبح القطاع الصخرى المصرى صالحًا لأن يكون مقياسًا زمنيًا دوليًا للحد الفاصل بين عصرى الباليوسين والأيوسين وتتوافر فيه الشروط الدولية التى أرساها الاتحاد الدولى للعلوم الجيولوجية وأهمها الكمال الطبقى أى عدم افتقاد لأى من الفترات الزمنية داخل طبقات صخور القطاع الجبلى وكذلك بعد المنطقة ومن ثم القطاع الجبلى عن تأثير الحركات الأرضية أو التغيرات اللاحقة للترسيب وأن يكون سهل الوصول إليه من جميع الدارسين.

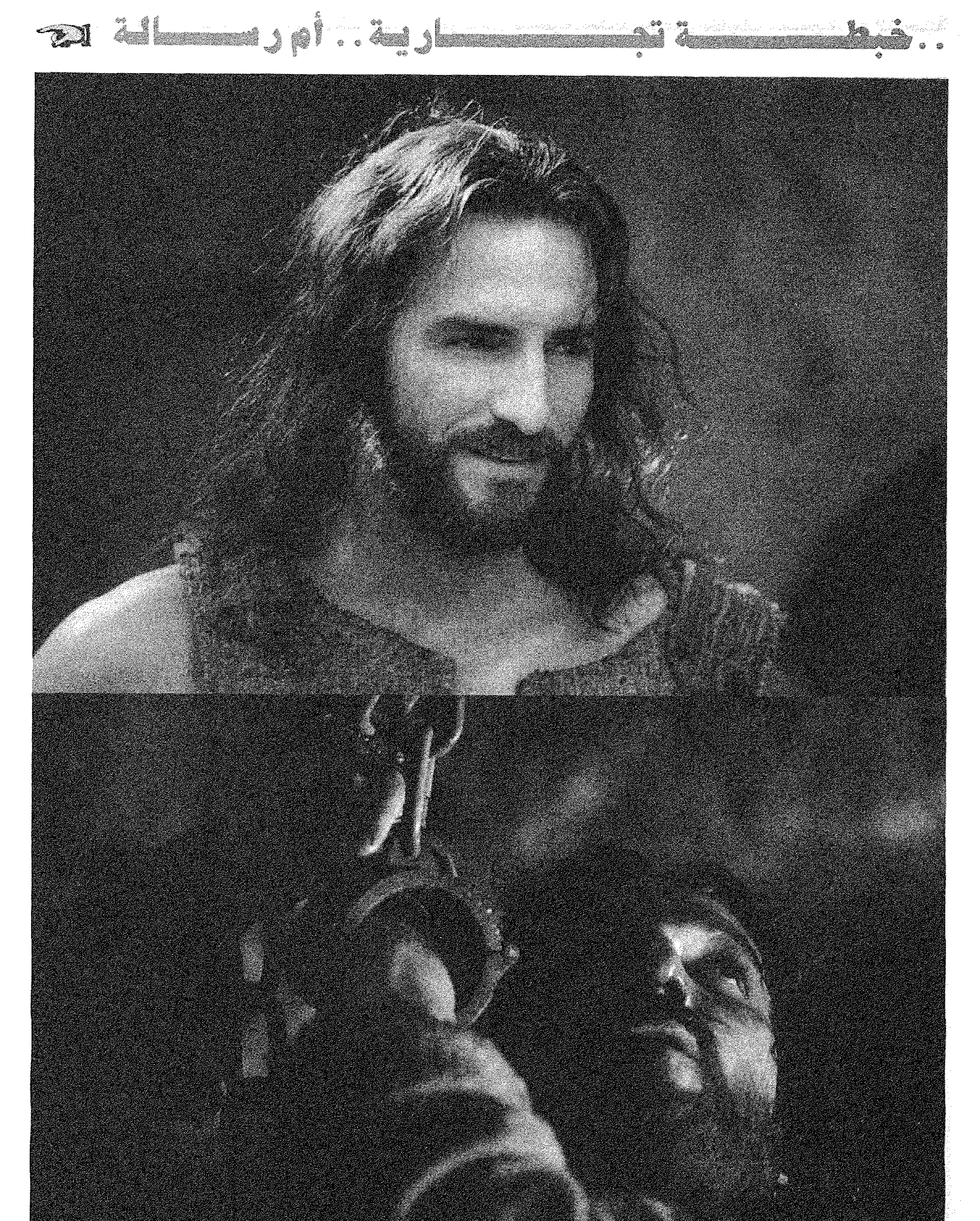
وفى ١٧ فبراير ٢٠٠٢ تم التصويت الدولى بالإجماع على اعتبار قطاع الدبابية أكمل التتابعات الرسوبية على وجه الأرض للفترة الزمنية الانتقالية بين الباليوسين والأيوسين، كانت هناك منافسة شديدة من دول كثيرة منها اسبانيا، فرنسا، إسرائيل... وصل عدد القطاعات الجبلية الأخرى التى عرضت أمام اللجنة الدولية لاختيار قطاع نموذجى عن هذه الفترة إلى ٢٩ (تسعة وعشرين) قطاعًا. كان نصيب مصر جيداً حين تم اختيار قطاع الدبابية دون القطاعات الأخرى.

والسؤال الآن هو كيف يمكن معرفة أن هذا القطاع متكامل؟ هناك ترتيب دولى للحفريات. أى الحيوانات الدقيقة والتى تركت بقاياها فى الصخور بعد موتها.. من الأقدم إلى الأحدث: القديم دائمًا أسفل القطاع ويندرج إلى الأحدث كلما صعدنا فى القطاع الرسوبى. وأى غياب لبعض الحفريات يعنى غياب فترة زمنية. وهكذا فإنه بدراسة السجل للحفريات وتتبعها من أسفل إلى أعلى يمكن معرفة غياب بعضها أو تواجدها ومن ثم يمكن معرفة إن كان هناك تكامل طبقى أو نقص فترة زمنية معينة لغياب بعض الحفريات المميزة لهذه الفترة الزمنية.

وإذا كانت المنطقة (الدبابية) قد شدت اهتمام العالم الجيولوجى العلمى وأصبحت مرجعًا أساسيًا لفترة مهمة فى التاريخ الجيولوجى.. فماذا نحن كمصريين. فاعلون؟ المنطقة هى من أشد مناطق مصر فقرًا وما ينتج عن ذلك من إهمال فى بنيتها الأساسية وأحوال ساكنيها المعيشية.

لاشك أن الدبابية ستجذب عدداً غير قليل من علماء العالم الذين سيأتون إليها لدراسة قطاعها الجبلى المميز. فلا أقل من رصف الطريق الجبلى المؤدى إلى القطاع المميز. وإيجاد مساكن نظيفة للعائلات القليلة التى تسكن بين طريق الأقصر ـ أسوان، والطريق الجانبى المؤدى إلى الجبل. كما يجب الحفاظ على القطاع الجيولوجى الصخرى بالجبل من اعتداءات أصحاب المحاجر القريبة. ونأمل أن تهتم الهيئات العلمية المتخصصة بهذا القطاع النموذجى وتذكى فى شبابنا روح المعرفة والرغبة فى مزيد من الاستكشافات التى تصعد بمصر وبعلمائها سلم الرقى والعلم. ■





"آلام المسيح"

إبراهيم العريس

في واحد من نصوصه الأكثر غرابة وجمالاً في الوقت نفسه يقول لنا الكاتب الأرجنتيني الراحل جورج لويس بورخيس أن علينا أن ننظر إلى قصة القبض على السيد المسيح لصلبه، ضمن إطارها الرمزي، مؤكداً على أن يهوذا الاسخريوطي الذي «يدل» الرومان على المعلم غادراً به مقابل ثلاثين من فضة، لا يقل أهمية من الناحية التاريخية واللاهوتية عن السيد المسيح نفسه. لماذا؟ بكل بساطة لأن القصة كلها إنما هي حكاية «ميزانسين» (إخراج مسرحي) يتطلبه قيام كل دين، بمعنى أن الأمر هو ترتيب يتعين عليه أن يبرز بطولة المعلم وفداءه للبشرية، عذابه وصلبه وقيامته. ولما كانت كل بطولة تحتاج في ترتيب حدوثها إلى خيانة لا تستقيم البطولة من دونها ولا تكون مقنعة، يصبح من يرضى بأن يلعب دور «الخائن» في مثل هذا «الميزانسين» بطلاً بدوره، بل إن بطولته أكثر خطورة لأنه يرضى بأن يلعنه التاريخ على عكس البطل الآخر، الذي سيجني تمجيد التاريخ له.

طبعاً مثل هذا الكلام قد لا يعدو كونه خيال مبدع يريد أن يتمعن أكثر من اللازم في تلك الأحداث الدينية. التاريخية التي تشهدها عادة ولادة الأديان. غير أن مشاهد فيلم «آلام المسيح» للممثل والمخرج الاسترالي الأصل ميل جيبسون، لاشك سوف يخامره هذا الشعور، الشعور بأن ثمة في الأمر «ميزانسين» مرتباً من أجل تأكيد بطولة السيد وفدائه للبشرية. وفي يقيننا أن هذا الأمر غير مقصود من قبل جيبسون وشريكه في كتابة سيناريو الفيلم. كل ما في الأمر أن أكثر الأعمال الفنية ضعفاً هي التي تكشف عادة سر اللعبة الفنية وتفاصيل خلفياتها. و«آلام المسيح» كما صورها ميل جيبسون أتت فيلماً ضعيفاً من الناحية الفنية. من دون مفاجآت حقيقية. من الناحية التاريخية. وهذا على رغم ما قد يوحي به الضجيج الكبير الذي ثار، ولايزال يثور حول الفيلم. وقد لا يكون الذنب ذنب جيبسون في هذا، مادمنا نعرف أن الفنان، حين يدنو من أعمال معروفة الفحوى تاريخياً، لن يكون قادراً على التصرف على سجيته، إلا إذا كان، هو في الأصل، ذا موقف مشاكس على النص التاريخي، فيعارضه أو يعيد تفسيره.. وما إلى ذلك، بحيث يصبح تدخله، إعادة إحياء لسجالات سابقة من حول هذا العمل. أما بالنسبة لميل جيبسون فإنه ليس من طينة الكبار، فناً وفكراً، من الذين يمكنهم أن يبدلوا في الخطية التاريخية للعمل الذي يخوضون. هو ليس بيار باولو بازوليني. ليقدم لنا مسيحاً مناضلاً مشاكساً على مجتمعه، عنيفاً في مطالبته بحقوق البائسين، كما في «الإنجيل حسب القديس متى»، وهو ليس، حتى فرانكو زيفريللي. بحيث يسبغ على مسيحه مسحة شاعرية موسيقية رائعة تثير أحلى المشاعر في النفوس. ميل جيبسون فنان تربى على السينما الرائجة وغالباً على سينما العنف، ومؤمن ممارس ترعرع منذ صغره وسط طائفة كاثوليكية متطرفة تؤمن بالكتابات المقدسة كما هي ولا تستسيغ، حتى أن يقوم الفاتيكان في ستينيات القرن العشرين بتبرئة ذرية اليهود من جريمة قتل المسيح التي اقترفها يهود فلسطين في تلك الأزمان السحيقة. وهذا من دون أن يكون جيبسون، بالطبع، معادياً للسامية، أو حتى يهود أيامنا هذه.

ظاهرة أم عمل فني

والظاهرة التي نتحدث عنها هنا، لها جانبان: الأول أن جيبسون الذي يدرك غريزياً أن عظمة البطولة تكمن في حجم العذاب الذي يتحمله البطل فداء لأفكاره وقناعاته وللبشر، استعار كل ما في تاريخ السينما وفي تاريخه الشخصي من مخزون عنف مرعب ليجعله أساس فيلمه، والثاني أن جيبسون عبر الالتباس الذي أثاره، منذ البداية حول موقف فيلمه من تحمل اليهود إلى أبد الآبدين وزر قتل المسيح، أثار من حول شخصه ومن حول فيلمه عاصفة من النقد استشرت حتى قبل عرض الفيلم أو مشاهدة أحد له. وهكذا، إذ ثارت العاصفة من حول الفيلم، قبل عرضه، من جراء الموقف اليهودي السلبي منه، وبعد عرضه من جراء الحديث عن قدر العنف الذي يملأه، لم يكن الأمر في حاجة لأكثر من هذا حتى يتلقف الفيلم ويتراكض الناس لمشاهدته.

إن هذا البعد قد يفسر، طبعاً، ضخامة الإقبال على الفيلم.. ولكن في المقابل علينا ألا ننسى عناصر أخرى جاذبة للجماهير العريضة، منها اسم ميل جيبسون نفسه، ومنها استخدام العديد من المؤثرات البصرية الحديثة، ما يجعل الفيلم معاصراً لنا، من الناحية التقنية ومجدداً في مجال هذا النوع من الأفلام الدينية، إذ أمامه - حتى بغض النظر عن مسألة العنف. تكاد تبدو بقية الأفلام المتحدثة عن السيد المسيح، أو عن الحكايات الدينية، شديدة القدم والتخلف التقني.

غير أن العنصر الرئيسي في العملية كلها تبقى تلك الحاجة الروحية المتنامية لدى الناس عند بدايات هذه الألفية الثالثة متضافرة مع حاجتهم إلى مشاهدة أعمال تقدم أبطالاً حقيقيين، وهو الأمر الذي يجتذبهم أيضاً إلى مثل هذا الفيلم.

وطبعاً لا يمكننا هنا أن نزعم أن التفاوت بين ما هو متوقع من الفيلم سلفاً، وبين ما يشاهده الجمهور على الشاشة، يأتي مخيباً للآمال. بل على العكس: إن معظم المشاهدين يخرجون من الفيلم راضين حتى وإن أعلنوا انزعاجهم من كم العنف الذي فيه.

والحقيقة أن هذا العنف، إنما هو ترجمة تكاد تكون حرفية للصور اللغوية التي طالما روت كيف عُذب السيد المسيح. كل ما في الأمر أن الأفلام السابقة. والتي ما انفكت السينما تروي فيها حكاية حياة وآلام السيد المسيح، منذ وجدت السينما. كانت لإدراك صانعيها قوة تأثير الصورة ورعبها إذ تصور مباشرة، ومن دون وسيط لغوي، تمزق الجسد والدم السائل والضرب المبرح حتى الموت، كانت تفضل أن تغض الطرف عن الإمعان في تصوير هذا التعذيب، خفراً أو خوفاً على الجمهور. بالنسبة لميل جيبسون لا مجال لمثل هذا الخفر، في زمن يحيط بنا فيه العنف من كل جانب ونشاهده يومياً في نشرات الأخبار المتلفزة، وفي الحياة اليومية.

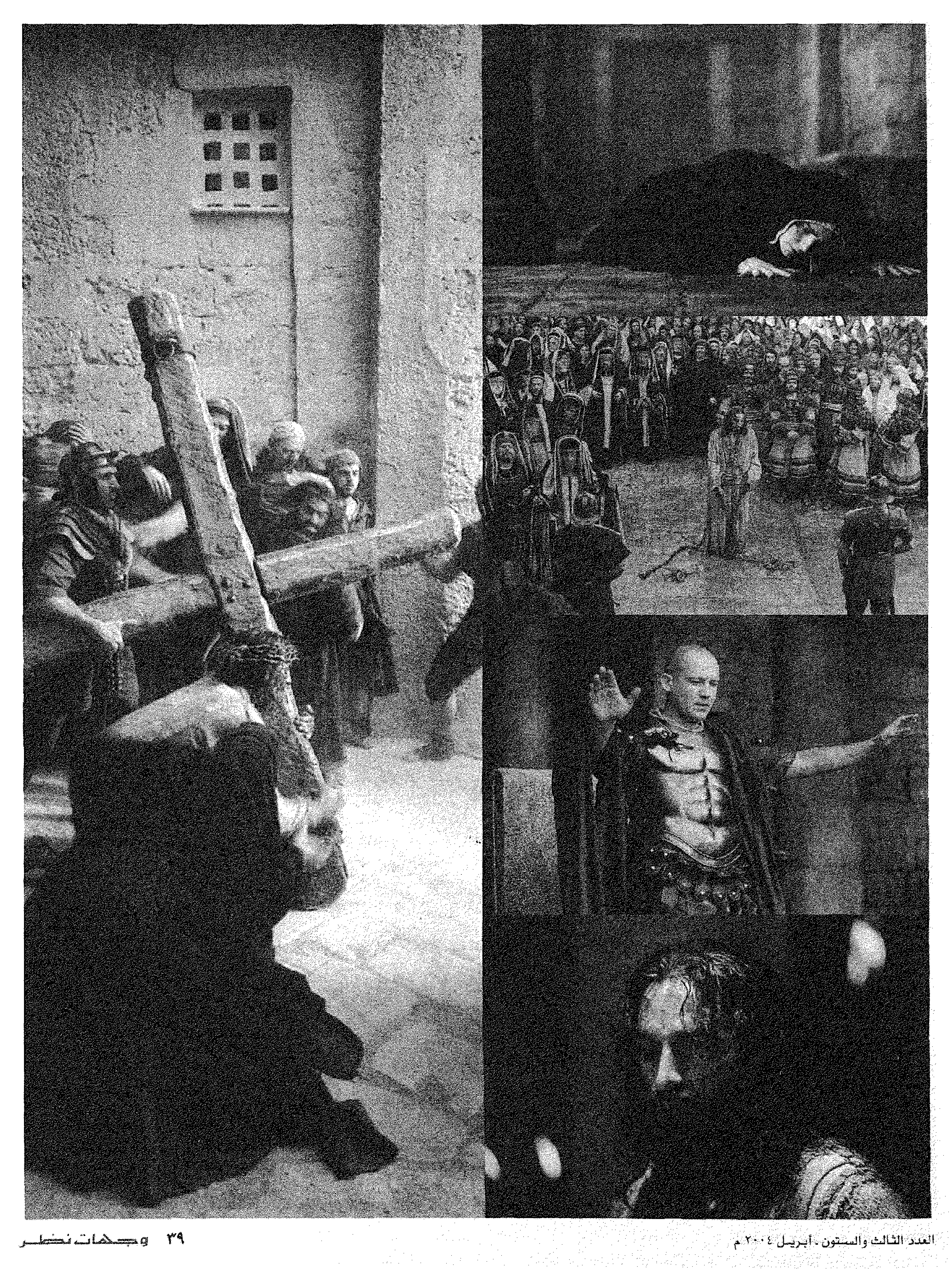
أدوار في مسرح الأسرار

وهذه الحكاية هي، في الفيلم، حكاية الاثنتي عشرة ساعة الأخيرة من حياة السيد المسيح، وصولاً إلى صلبه، مع مشهد أخير يرى قيامته وقد استعاد جسده رونقه. والحال أن هذا الاختيار الزمني، كان هو ما أضفى على الجزء الأساسي من الفيلم بُعداً أرسطياً (وحدة الزمان والمكان) وحكم على المشاهد الأساسية (الاعتقال. المحاكمة. طريق الجلجلة. الصلب والقيامة) أن تبدو مسرحية. خطية، تعيد إلى أذهاننا فكرة بورخيس التي بدأنا بها هذا الكلام. إذ هنا، ولأننا نعرف سلفاً كل ما سوف يحصل، يبدو الممثلون، ومن فيهم السيد المسيح نفسه (جيم كافازيل) وكأنهم يؤدون أدوارهم في واحدة من مسرحيات الأسرار، التي كانت تقدم بوفرة خاصة في العصور الوسطى. وهي مسرحيات كانت ترمي دائماً إلى تقديم المشاهد الدينية كما هي متداولة خاصة في الأناجيل، وأحياناً في العهد القديم. ولسوف ندرك واقع هذا الأمر إذ نعرف أن ميل جيبسون إنما استند في رواية الحكاية إلى ما جاء في الأناجيل الأربعة مجتمعة، من دون أن يضفي



الصور من كتاب:
The Passion Of The Christ
آلام المسيح
Photographs by: Ken Duncan And Philippe Antonello
ICON Distribution, Inc. USA

التاريخية. وهذا على رغم ما قد يوحى به الضجيج الكبير الذى ثار، ولايزال يثور حول الفيلم.



يبدو الممثلون، وكأنهم يؤدون أدوارهم فى واحدة من مسرحيات الأسرار، التى كانت تقدم بوفرة خاصة فى العصور الوسطى.

عليها أية تفسيرات لاحقة. ومن هنا قد يمكن القول أن السيناريو تعمد أن يكون تقليدياً. وحتى فى اختياراته بالنسبة إلى أمور فقهية كانت المجامع المسكونية قد أعطتها تفسيرات أكثر عصرية (مثل دوس السيد المسيح بقدمه على رأس الأفعى، حيث إن الفاتيكان فى القرون الوسطى كان قرر أن المسيح وأمه قد داسا معاً على رأس تلك الأفعى، مسبغاً على السيدة مريم العذراء ألوهية تدنو من ألوهية ابنها، ومثل جعل الشيطان الذى يحاول إغواء المسيح امرأة كإرث من العصور الوسطى التى كانت ترى المرأة تجسيداً للشيطان.. إلخ).

فنون عصر النهضة

غير أن تقليدية ميل جيبسون فى هذا المجال. وهى تقليدية مستقاة من مصدرين كما أشرنا، أولهما تربيته المتزمتة وسط طائفة منشقة يتزعمها أبوه هاتون جيبسون فى استراليا، وثانيهما قصوره هو نفسه كفنان عن القدرة على إضفاء تفسيرات أكثر حداثة . لا تلغى واقع أنه هو نفسه كان أكثر تقدماً من كثر، حين اختار أن يبين بعض أهم مشاهد فيلمه انطلاقاً من نظرة مرحلة متأخرة من عصر النهضة، إلى تلك الحقبة الأخيرة فى حياة السيد المسيح. إذ يلاحظ المطلعون على فنون عصر النهضة التى كانت قد أمعنت. على يد كارافاجيو ثم الغريكو ناهيك عن رسامى الشمال الأوروبى من المتأثرين بالنزعة الإنسانية فيما بعدها البروتستانتى (خاصة تلامذة ايرازموس). فى إضفاء طابع إنسانى وديناميى على المشاهد الدينية. يلاحظون أن ميل جيبسون يبدو، فى البعد البصرى على الأقل متأثراً بتلك الفنون. بل ثمة مشاهد تكاد تكون «تحريكاً» للوحات كارافاجيو نفسه، ومنها خاصة تلك المشاهد الارتجاعية حيث يتذكر المسيح وهو وسط عذابه إذ وقع فى قبضة أعدائه من الفريسيين (أحبار اليهود) والرومان، بعض لحظات حياته. وهنا حتى ولو بدا أن مثل هذه المشاهد دخيلة على الفيلم، نصاً وروحاً، إلا أنها . أى المشاهد . أتت مفيدة، إذ ساهمت فى إضفاء الطابع الإنسانى على السيد المسيح وذكرتنا بأننا هنا فى وسط فيلم لا يتحدث فقط عن آلامه وعذاباته، ولكن عن بعض حياته أيضاً.

ويقيناً أن هذا كله أتى ليضفى على الفيلم طابعاً واقعياً صرفاً . فى واقعية بالكاد يمكننا أن نقول أن عنف مشاهد التعذيب ينقص من شأنها . بل إن واقعية ميل جيبسون فى هذا الفيلم، كانت هى على الأرجح ما جعله يجدد فى مجال استخدام الحوارات فى الفيلم، إذ هنا، وربما للمرة الأولى فى تاريخ الفن السينمائى المقترب من حكاية السيد المسيح، نجد هذا السيد يتحدث هنا باللغة التى كان يتحدث بها فى عصره: الآرامية، تلك اللغة التى تشكل أحد المنابع الرئيسية للغة العربية نفسها، فى الوقت الذى تحدث فيه اليهود بعبرية تتأرجح بين القديمة والمعاصرة، وتحدث فيه الرومان باللاتينية. وفى اعتقادنا أن جزءاً من متعة المتفرج العربى حين يشاهد هذا الفيلم تكمن فى اكتشافه لذلك الكم الكبير من الكلمات والتعابير الآرامية التى سيخيل إليه أنها عربية، وخاصة حين ينطقها السيد المسيح بلهجته الواضحة وتعبيرات وجهه ذات السمات العربية المشرقية الخالصة.

الواقع وقسوته

والطابع الواقعى موجود أيضاً فى الفيلم من خلال التصرفات وردود الفعل التى تبديها الشخصيات الأساسية، من ندم يهوذا الإسخريوطى، إلى حزن يوحنا، إلى عويل مريم المجدلية، إلى همجية الجمهور العريض حين يتبع الأحبار فى مواقفهم المناوئة للسيد المسيح، وصولاً إلى أداء السيدة العذراء فى الفيلم، معبرة عن حزنها تعبيراً داخلياً صامتاً لعله أروع ما فى الفيلم، خاصة أن المتفرج مدعو هنا إلى التماهى معها ومع حزنها أكثر من تماهيه مع أية شخصية أخرى فى الفيلم. وفى اعتقادنا أن الذين انتقدوا «عدم قدرة» الممثلة التى لعبت دور السيدة العذراء «على التعبير عن آلامها فى رد فعل جسدى أو تعبيرى صارخ» لم يفهموا حقاً مكانة السيدة كأم للسيد المسيح، تعرف سلفاً أن ابنها منذور للتعذيب والصلب فداء للبشرية، وأنه منذ لحظة انتدابه لهذا الدور، لم يحدث فقط أن انفصل عنها، بل حدث أيضاً أن انفصلت روحه عن جسده ليصبح كل عذاب يقع على الجسد إشارة إلى سمو إضافى فى الروح وفى الرسالة.

❝آلام المسيح❞

إذاً، بالنسبة إلينا، تعبيرات السيدة العذراء، هى جزء أساسى من رسالة السيد المسيح، وتلقيها الرسالة ناقلة إياها إلينا، إذ يصبح التماهى بينها وبيننا، نحن معشر المتفرجين، كاملاً، هو جزء أساسى فى رسالة هذا الفيلم، الذى يتخذ هنا فى هذا المجال أيضاً سمته الأساسية كإعادة تمثيل لحدث تاريخى تحاول الصورة أن ترسمه كما هو، ضاربة الصفح عن تلك الوداعة والاستكانة التى طالما ملأت عشرات الأفلام التى حققت عن حياة السيد المسيح وآلامه.

فهل علينا هنا أن نذكر بأن هذه الواقعية الخطية، كانت أخيراً فى خلفية الموقف اليمينى اليهودى المتطرف من الفيلم؟

فى الحقيقة، نحن لا يمكننا أن نقول هنا أن ميل جيبسون قد تعمد توجيه أصابع الاتهام إلى اليهود. فهذا شأن تاريخى لا يمكن لأحد تبديله. وإذا كان الفاتيكان قد تدخل مرة فى الأمر فإنه لم يتدخل لتغيير الواقع التاريخى الذى يقول إن أحبار اليهود. يتبعهم فى ذلك جمع يهودى وغير يهودى غفير. كانوا هم من حرض الحكام الرومان على صلب السيد المسيح (وكان من شأنهم هم أن يفعلوا ذلك لولا أن دينهم يحظر عليهم ذلك حسبما أكد كبير الأحبار قيافا)، بل تدخل الفاتيكان لكى يؤكد مبدأ عدم توريث الذنب.. رافضاً فكرة أن «دمه سيكون علينا وعلى أبنائنا». ولطالما حرصت الأفلام السابقة التى حققت فى هوليوود أو المكسيك أو غيرها عن السيد المسيح، على إغفال هذه العبارة. لكن ميل جيبسون استبقاها.. وهو فى المقابل جعل أحباراً يهوداً يرفضون صلب المسيح، كما ذكرنا بأن المواطن الذى حمل عن المسيح جزءاً من عبء الصليب على درب الآلام كان يهودياً. وفى يقيننا أن التركيز على هذين الأمرين قد جعل هجوم اليهود على الفيلم بعد عرضه، أخف بكثير من هجومهم عليه قبل العرض. إذ أنهما أكدا أن المخرج أو الممثل الأسترالى لم يرد أن يكون معادياً للسامية، بل كان يحاول فقط أن يكون أميناً للتاريخ كما هو متداول ومكتوب.

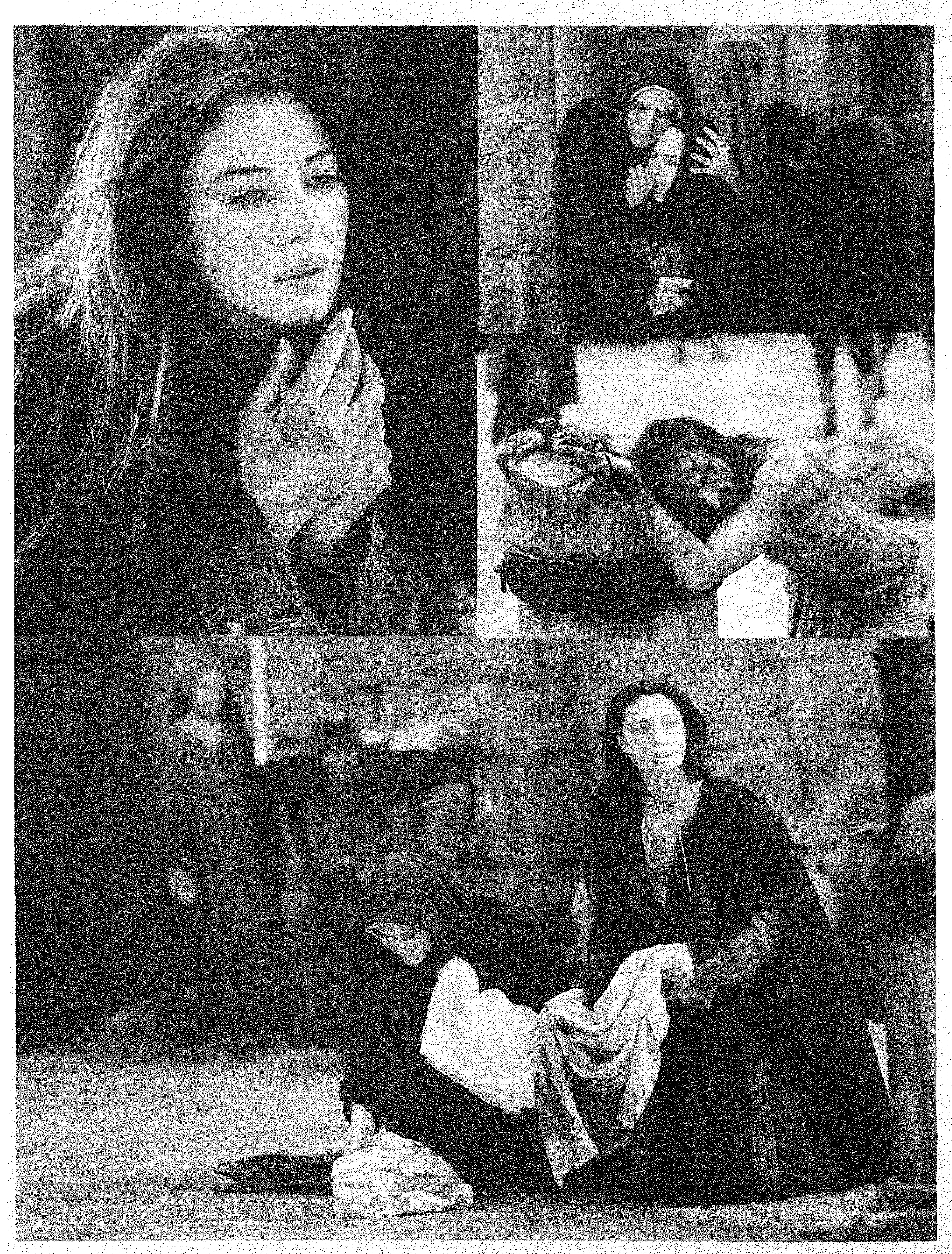
وبقى أن نقول أخيراً أن هذه «الأمانة المطلقة» للتاريخ، كانت هى من ناحية فى خلفية نجاح الفيلم تجارياً، ومن ناحية ثانية سبب ضعفه الفنى والإبداعى.. ذلك أننا بعد مشاهدة «آلام المسيح» يمكننا أن نكون واثقين من شىء واحد: نحن لسنا هنا فى إزاء عمل فنى انعطافى، ولا فى إزاء عمل حققه فنان يريد أن يتدخل فى التاريخ تفسيراً وتأويلاً، بل أمام عمل مدرسى خطى بسيط، حققه فنان عرف كيف يستفيد، فنياً، من مصادر عديدة حفظها عن ظهر قلب، وتقنياً، من أحدث ما توصلت إليه صناعة الفن السينمائى ومؤثراته، صوتاً وصورة، ولاهوتياً، من قراءة مدرسية بسيطة للأناجيل. وظرفياً، من أجواء مرحلة تاريخية قلقة تتضافر فيها الحاجة إلى التعاطى مع السمو الروحى، ومع الإعلام الذى بات قادراً على صناعة كل شىء وكل موقف ثم محوه بين ليلة وضحاها. ■

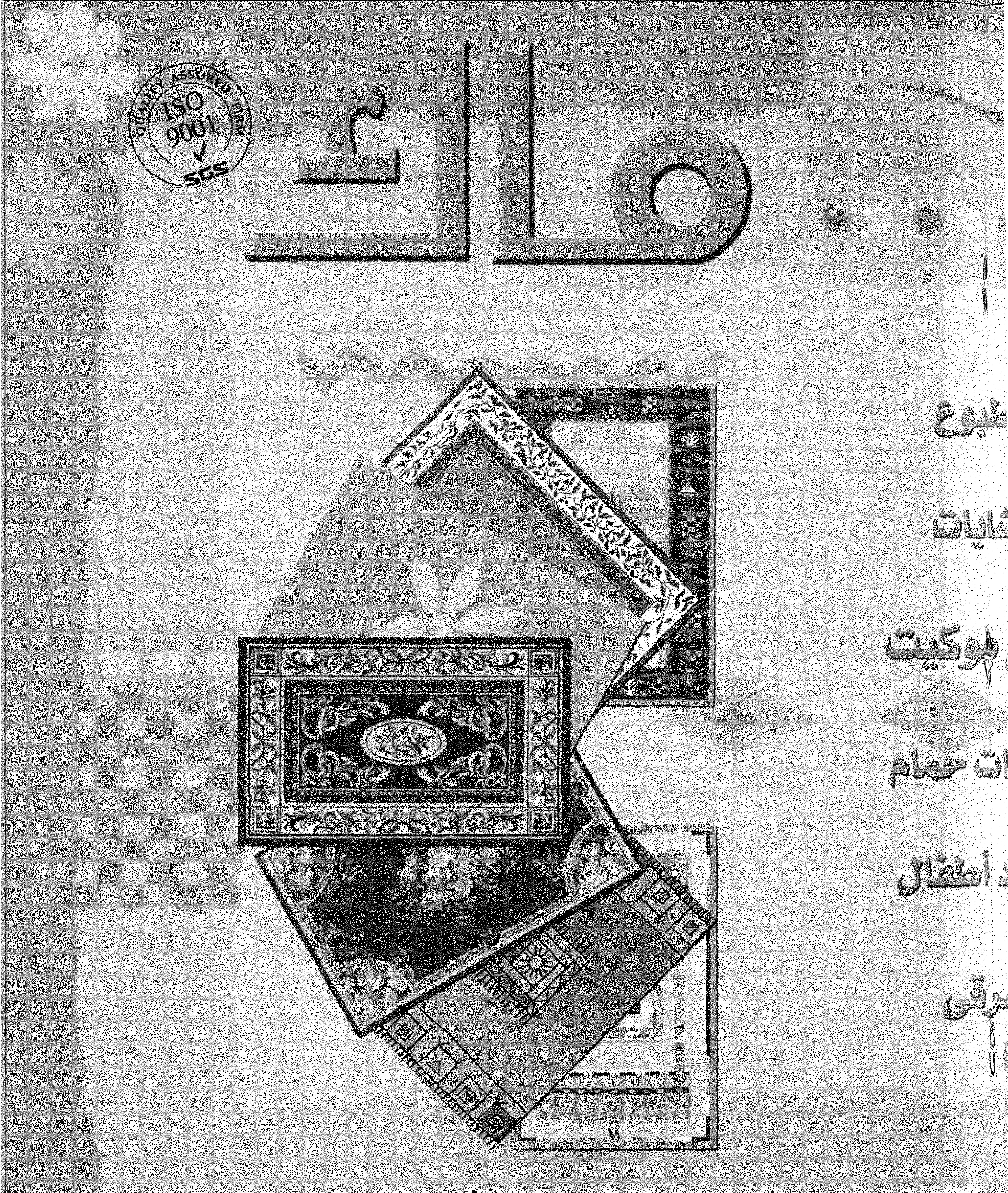
ميل جيبسون

■■ يعتبر ميل جيبسون المولود فى العام ١٩٥٦ أسترالياً على رغم أنه أمريكى الأصل مولود فى نيويورك. ذلك أن أباه المنتمى إلى طائفة دينية كاثوليكية متزمتة، هاجر به إلى أستراليا أواسط سنوات الستينيات لكى لا يُجند فى حرب فيتنام. ولقد بدأ ميل حياته الفنية ممثلاً فى أفلام أسترالية بعد تخرجه من مدرسة للدراما هناك، ثم أواخر السبعينيات اختاره المخرج جورج ميلر لبطولة فيلم، ثم سلسلة أفلام «ماد ماكس». وهو منذ ذلك الحين وحتى بعد انتقاله إلى الولايات المتحدة، عرف بأدواره التى لعبها فى أفلام يغلب عليها طابع العنف والقتل والصراعات بين العصابات، أمثال سلسلة «ليثال ويبون» والعديد من الأفلام الحربية وأفلام المغامرات.

أما بدايته كمخرج فكانت فى العام ١٩٩٢ مع فيلم «رجل من دون وجه» الذى قام ببطولته أيضاً، وهو حقق فى العام ١٩٩٥ فيلماً ثانياً عن الثورة الأسكتلندية ضد الإنجليز فى القرن الثالث عشر ومثل الدور الرئيسى فى الفيلم. وهذا الفيلم حقق يومها نجاحاً كبيراً، ليس بسبب جودته الفنية، إذ أبداً لم يكن ميل جيبسون مخرجاً كبيراً، بل بسبب غضب الإنجليز منه، إذ أتى حاملاً قدراً كبيراً من الاستفزاز المضاد للإنجليز. وهو الذى كان قد مثل فى فيلميه السابقين، فإنه فى فيلمه الثالث والجديد «آلام المسيح» فضل أن يكتفى بكونه كاتباً للسيناريو ومنتجاً ومخرجاً، تاركاً الدور الرئيسى، دور السيد المسيح للممثل جيم كافازيل، الذى يشاطره عمق إيمانه الدينى، يشاركه كل من مايا مورغنشترن (فى دور السيدة العذراء) ومونيكا بيلوتش (فى دور مريم المجدلية) وروزاليندا تشيلنتانو (فى دور الشيطان). ■

وهى مسرحيات كانت ترمى دائماً إلى تقديم المشاهد الدينية كما هى متداولة خاصة فى الأناجيل، وأحياناً فى العهد القديم.




QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
حمام
أطفال
التصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر

هيكل
وكلام فى الحضارة والفن

يوم الاثنين ١٥ مارس الماضى، افتتح الأستاذ محمد حسنين هيكل معرضاً للوحات الفنانة الراحلة تحية حليم أقامته الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

والأستاذ هيكل هو الذى بدأ تقليداً حضارياً رفيعاً، بأن يكون للمؤسسات الصحفية مجموعة من المقتنيات الفنية تشهد على تحضرها واهتمامها واحتضانها للفنون.

تكلم الأستاذ هيكل عن الحضارة والفن ورسم «بالكلمات» صورة لفنانة ترسم «بالخطوط والألوان»

حلمى التونى

■ اسمحوا أولا أن أجيب على سؤال ربما خطر على بال أحد من كرام الحضور فى هذا اللقاء، وهو: لماذا أنا الآن هنا؟ - داخل إطار يبدو بعيدا عن «موطنى» الطبيعى، باعتبارى كائنا عاش عمره، ومارس عمله وسط مواقع الصحافة - وقرب مواقع السياسة.

■ ولاختصار الطريق إلى إجابة واضحة، فقد أقول من البداية أننى واحد من الذين يعتقدون أن «الفن» هو الأب الحقيقى للثقافة فى كافة مجالاتها، ثم إن الفنون التشكيلية هى الحلقة الرئيسية فى قصة الصعود المدهش - على سلم الحضارة الإنسانية.

■ دعونا نتذكر أن الإنسان البدائى الأول رسم خطا قبل أن يكتب حرفا، ونقش حجرا قبل أن يصوغ عبارة، وشكل طينا قبل أن يبسط ورقة، ووضع بقعة لون قبل أن يغرس بذرة زرع، ونفخ فى بوصة قبل أن يدير عجلة.

وحين احتاج الإنسان البدائى أن يتخذ لنفسه مأمنا، فقد كان فى ذلك يستهدى بالخطوط قائمة ونائمة - تعطيه حتى فى عمق المغارة والكهف ما يصلح أن يكون مأوى أو مسكنا.

دعونا نستعيد أنه عندما توصل الإنسان إلى فكرة الأبجدية، فقد كانت تلك فى الواقع محاولة لرسم الأصوات والإشارات على شكل خطوط وعلامات، وكانت الأبجدية وسيلة الإنسان إلى تجسيد خياله، ووسيلته إلى تنظيم فكره، ووسيلته إلى توسيع مجال نظره، ووسيلته إلى تخزين وتبويب دائرة معارفه، ووسيلته إلى مد آفق مداركه بما فيها مقدرته على التصور الخلاق الذى يتمثل ويستوعب ملكات البشر ومواردهم وقدراتهم وإرادتهم، بحيث يملكون فرصة الحلم هذه اللحظة، وإمكانية تحقيق الحلم فى اللحظة التالية.

■ وعندما استطاعت الكلمة أن تحافظ وتختزن المعارف والمشاعر والطموحات، فقد كان ذلك مدخل الإنسان إلى الفلسفة - وكانت الفلسفة بدورها مدخله إلى العلوم، وكانت العلوم هى التى فتحت الأبواب للتكنولوجيا، وكذلك سقطت القيود وتلاشت المستحيلات.

■ وحين تعددت الجماعات والشعوب والأمم، وتفرعت اللغات وتواصلت الثقافات . تدفق المجرى الواسع العميق لشراكة إنسانية واحدة، صبت فيه كل جماعة أفضل ما عندها، وما وجده غيرها صالحا له - وتلاحقت العصور حتى وصلنا إلى حيث نحن الآن من حضارة إنسانية واحدة مشتركة وفياضة لمن يستطيع بلوغ تخومها فى عالم يعرف كل سكانه . ما يجرى فى كل أركانه . فى نفس الوقت.

■ وكذلك فإننا وفى وحدة الحضارة الإنسانية نستطيع أن نرى بوضوح تلك العلاقة الوثيقة بين «الفن» (الشكل والخط والحفر والنحت واللون والمعمار وغيرها) - وبين «الكلمة» بتعريفها البشرى وليس السماوى باعتبارها (الأبجدية والحرف والكتاب والجريدة والإنترنت).

كان التشوق إلى التعبير هو البداية، ومن التعبير إلى المعنى، ومن المعنى إلى القيمة، ومن القيمة إلى الرقى، ولاتزال الأشواق غالبة.

■ وكان الإعلام مكتوبا بالحرف أولا، ومنطوقا بالصوت ثانيا، ومتوهجا باللون ثالثا - أهم وسائل وأدوات ذلك التواصل الثقافى والتدفق الحضارى. ومع أن تباين مطالب المجتمعات وتعارضها وتصادمها أحيانا - وضع السلطة السياسية فى بلدان عديدة على طريق صدام مع مسئولية التعبير والمعنى والقيمة والرقى - إلا أن مسار التقدم الحضارى ظل قادرا على فتح مسالكه ومعابره، بصرف النظر عن العقبات والتضحيات.

■ فى هذا الإطار الأوسع فلعله من المعقول أن يسعى كاتب صحفى قضى حياته مع الحرف إلى الحفاوة بفنانة أعطت حياتها بالكامل للفن، وأن يكون ذلك فى إحدى القاعات الشهيرة لجامعة كبيرة، لكى نلتقى الليلة هنا فى محبة «تحية حليم»، وليس تذكارا لها، لأن التذكر يرتبط باستعادة غياب، وأما المحبة فحضور مضىء وكذلك «تحية حليم».

■ وفى مناسبات مماثلة، فمن المعتاد أن يقول أى متكلم أنه يتشرف بأن يكون بين المدعوين، وفى بعض المرات يكون إبداء هذا الشعور نوعا من المجاملة، والمجاملة تختلف عن النفاق لأن الناس - فى العادة - يجاملون حين يتعاطفون، ومع ذلك فإن شرف المشاركة معكم فى محبة «تحية حليم» ليس مجاملة بالنسبة لى، وإنما داعيه أكثر نفاذا وعمقا من المجاملة مهما بلغت رقتها.

■ سوف يتحدث غيرى من العارفين هذه الليلة - باستفاضة أكثر، وعلم أدق عن شخصية «تحية حليم» - وعن مدرستها فى الإيحاء والتأثير - وعن تجربتها الإنسانية والشخصية.

وفيما يتعلق بى فإننى لا أستطيع أن أكون ناقدا ولا شارحا، لأنى من اللحظة الأولى وجدت نفسى صديقا لـ «تحية»، مأخوذا بالحس أكثر من الدرس، ومنجذبا إلى العمل من أول نظرة، ومشدودا إلى ذلك المزيج الجميل الغامض فى أفكارها وتكويناتها ولمساتها، وكلها تشير وتومئ وتوحى دون أن تعترف وتبوح وتفشى - وكلها تتدفق لونا ونغما وهمسا - ولكن فى تحفظ وجلال وكبرياء.


■ كثيرا ما جاءت «تحية» إلى مكتبى تحدثنى عن خواطرها وأحوالها، وكثيرا ما ذهبت إلى مرسمها أتابع ما تفعل، وأحثها على زيادة، ومن سوء الحظ أنها فى السنوات الأخيرة من عمرها - توقفت عن الرسم، لأن أعصاب يديها لحقها التهاب جمد أصابعها معظم الوقت. وسواء جاءت «تحية» إلى مكتبى أو ذهبت أنا إلى مرسمها، فقد كانت فى كل الأحوال نفس المخلوقة المندهشة بكل شىء، والمطمئنة الخائفة فى نَفَسٍ واحد، والمتوجسة بالمفاجأة حتى حين لا تكون هناك مفاجأة، وكنت أرحب بها حين ألقاها بوصفها «الفنانة الحائرة بين القطط المقيمة والعصافير المسافرة».

■ وكان ذلك الوصف حقيقيا للمشهد الأكثر ألفة فى حياتها، فحيث كانت «تحية» تعيش أو تعمل، كانت القطط حولها تشاركها بيتها، وهو مرسمها كذلك.

وعند نافذة الغرفة التى تعمل فيها كانت هناك شرفة عريضة مفتوحة على سطح البيت، وعلى الشرفة دائما وعاء فيه حبوب مجروشة مما تأكله الطيور، ومن الغريب أن الطيور العابرة اكتشفت شرفة «تحية» وتعودت زيارتها، لتجد هناك طعاما تأكله وماء تشربه، والطيور العابرة تقبل الدعوة بسعادة، وحين تحصل على ما يكفيها فإنها تتلفت حولها، وتتطلع إلى الأجواء أمامها، وتفرد أجنحتها وتطير. وتروح «تحية» تتابع الطيور المسافرة ثم تعود ببصرها إلى القطط النائمة، وفى عينيها تعبير غريب فيه ومضة من الفرح، تلحق بها سحابة من الحزن كأنها تريد أن تمسك بها وتحجبها، وذلك التعبير يترك لدى أصدقاء «تحية» شعورا يتمنى لو فعل أكثر - لكن «تحية» لا تطلب شيئا لنفسها، وإنما تطلب فى كل الأحيان لآخرين، معظمهم من شباب الفنانين، مؤمنة - وهى على حق - أن البداية فى الفن، وأن أول ومضة لمعت هناك، وأول الإلهام تبدى رمزا وإشارة.

وأترك المجال لمتحدثين غيرى - لديهم إضاءات وإضافات، شاكرا لكم كريم اهتمامكم وحسن استماعكم. ■

محمد حسنين هيكل



«لوحة يوم الحنة بالنوبة . ١٩٦٢ . زيت على قماش ١٣٠×٩٠سم»



إسماعيل صبرى عبدالله

الغلط فى الترجمة والخلط فى المفاهيم

■ أردنا أم لم نرد نقع أسرى تأثير الإعلام الغربى غير المباشر. فما يبرزه من أخبار وآراء هو بالفعل أحدث منتجات العقل البشرى وما يعطيه أهمية خاصة أنه بالفعل أهم قضايا الساعة. وسرعان ما نستبطن هذا كله أو بعضه وتنفتح مناقشات واسعة بين رجال الفكر والسياسة وأهل العلم حول الحلول المطروحة وإمكان تعديلها أو الرد بحمية عما قد يكون فيه بصراحة فجة من إهانة لنا أو حط من شأننا. والأمثلة على ذلك كثيرة: «نهاية التاريخ» الذى اختفى من خطابنا الثقافى حين لم يعرف فى وطنه إلا رواجا محدودا وقصير الأمد، «صراع الحضارات» تلك البدعة التى يرفضها تماما تاريخ البشرية، وحاليا تعبير «القطبين» وبالتالى القطب الأوحد دون تعريف محدد لهذه الكلمة وماهيتها.. الخ. كذلك تثير ترجمة بعض المصطلحات السائدة فى اللغات الأوروبية إلى العربية مشكلات تسوق إلى الخلط. فنحن نستخدم كلمة «نظام» ترجمة لثلاثة أشياء لكل منها اسم خاص: order، regime, system . وتعبير regime يعنى أسلوب حكم الدولة ومناهج حكامها وعلاقاتهم بمختلف مكونات المجتمع. أما system فإنه يشير إلى مجموعة من الأمور غير مرتبة ولكن يؤثر كل مكون فيها فى باقى المكونات تأثيراً يتفاوت كثيراً من حيث الوهن والقوة، ومن ثم لمجملها سلوك أو حركة أو تفاعل مشترك. وهذا ما سبقت ترجمته بكلمة «نسق» وكان لدينا فى مصر جمعية لدراسة «تحليل الأنساق» system analysis لا أدرى ما آلت إليه. وأخيراً تدل كلمة order على مجموعة من الأحياء والجوامد، المادية أو المعنوية، مرتبة بعضها فوق بعض درجات وفقا لمعايير محددة علمية أو غير علمية. ظهرت فى أوروبا أولاً اسماً على جماعات الرهبان المنتمية إلى قديس معين فى العادة وفقا لقواعد مقررة «وهو تنظيم مشابه إلى حد ما للطرق الصوفية، ثم انتقلت هذه الظاهرة فى العصور الوسطى إلى مجموعات من «الفرسان» محترفى القتال بمقابل مادى أو معنوى. وبظهور الملكيات المطلقة والحد من سلطات أمراء الإقطاع ظهرت الأوسمة ولكل منها اسم وترتيب متدرج من حيث الأهمية. ومن أشهرها حتى الآن فى بريطانيا وسام «حمالة الجورب» order of the Garter. وفى فرنسا طبعاً «جوقة الشرف» ولكل منها درجاته المرتبة. وعندنا وسام الجمهورية من ثلاث درجات على ما أظن. وللكلمة نفسها استخدامات أخرى لا علاقة لها بما نناقشه هنا. فهى الأمر كما فى عبارة «law and order» التى هى أساسا من مهام الشرطة. وبالرجوع إلى معاجم اللغة العربية نجد أن ما قاله الجوهرى فى «الصحاح» أقرب جذر لغوى لمعنى الكلمة الإنجليزية هو رتّب التى اشتق منها عندنا «الرتبة» العسكرية حاليا والرتب المدنية (باشا، بك درجة أولى، بك درجة ثانية، أفندى). ومن ثم ترتيب حامليها فى المناسبات الرسمية والاجتماعية، وهذا ما يسوّغ استخدام «التراتب الدولى» لاسيما أن ما يجمع حكومات الدول المستقلة هو ترتيبات قد يولد من بعضها منظومات أو منظمات. وإن كان الأقرب (وإن بدا غريبا على لغتنا المعاصرة) هو الدرج (بفتحتين) أى وضع البعض فوق البعض درجات.

وبعيد عنى تماماً أن أتهم المتحدثين بالإنجليزية بأنهم أخطأوا فى اختيار order وإنما على العكس اختاروها بالذات لأنها تعنى أن الأمم أو الدول ليست سواسية ولكنها درجات فى رأسها المنتصرون فى الحروب. ودليل ذلك وضع الدول الخمس التى لها حق وقف أى قرار من الأمم المتحدة، بما فى ذلك قرارات مجلس الأمن. ويتصل بهذا الخلط الشائع خاصة لدى المشتغلين بالعلوم السياسية كلمة «قطب» ترجمة للإنجليزية pole. وقطب القوم سيدهم كما جاء فى «المعجم الوسيط» الصادر عن مجمع اللغة العربية. والكلمة فى أصلها الإنجليزى تعنى الطرفين القصيين لأى جسم، وفى العلوم الفيزيائية نجد الطرفين المتنافرين (السالب والموجب فى الكهرباء).. الخ وفى المغناطيسية نجد أن لكل طرف مركز جذب وتتفاوت المراكز من حيث القوة. وحين انتشر التعبير خلال الحرب الباردة كان يعنى المواجهة بين الاتحاد السوفيتى والدول المشابهة له من ناحية والغرب بقيادة الولايات المتحدة. ومن الواضح هنا أن القوة العسكرية والعلمية والاقتصادية كانت أداة لصدام أيديولوجى جوهرى بين الرأسمالية والاشتراكية اللتين تنفى كل منهما الأخرى نفياً قاطعاً. وقالت بعض وسائل الإعلام الغربية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى إن العالم أصبح وحيد القطب، وكان عذرهم هو أن ما حدث انتصار للرأسمالية ويجعل «الديموقراطية الأمريكية» نموذجا جاذبا لكل شعوب الأرض بما فيهم المليار نسمة الذين لا يزيد دخل كل منهم على دولار واحد والملايين التى تسقط بكثرة ضحية للجوع أو سوء التغذية أو الحروب المحلية..! وعلى العكس نسمع وزير خارجية فرنسا المثقف والشاعر متعدد اللغات دى فيلبان يستخدم تعبير دعامة pillar قائلا أن العالم لن يعيش على دعامة واحدة (الولايات المتحدة) ويجب أن يكون الاتحاد الأوروبى دعامة ثانية، فى انتظار دعامة آسيوية تشارك فيها اليابان والصين والهند.

وقديما وإلى أن نشأت الدولة القومية منذ أواخر القرن الثامن عشر كانت البشرية تعرف الممالك أى مجمل الأرض والبشر الذين تحكمهم أسرة واحدة (فى عنوان كتاب ابن خلدون ينص على دول الملوك). وكانت سلطة الأسرة الحاكمة هى مقياس السيادة رغم تعدد العروق والمعتقدات واللغات. والأمثلة الحاضرة فى الذهن: الدولة العثمانية من البلقان إلى السودان، وآل هابسبورج أباطرة النمسا وملوك المجر والتشيك وجزء من شمال شرقى إيطاليا، وكرواتيا وسلوفينيا وسلوفاكيا وجنوبى بولندا والبوسنة والهرسك.. الخ. وكانت أسرة رومانوف ترفع لقب قيصر فى كل الروسيات: روسيا الكبرى، وروسيا الصغرى (أوكرانيا) وروسيا البيضاء. وكانوا يحكمون كل منطقة القوقاز بما فيها من أعداد كثيرة من اللغات، والأصول العرقية، والأديان. وكانت الحروب تقع بين مملكة وأخرى (مجاورة فى الغالب) دون ردود فعل على مستوى العالم. وفى سبيل إسقاط الملكية ابتدعت الثورة الفرنسية «الأمة مصدر السلطات» وحيث بقيت ملكيات فقد الملوك كل سلطة فعلية، كما نشأ سبب ومسرح جديدان نتيجة للاكتشافات الجغرافية والتنافس على استحواذ جزء مهم منها. وكان ذلك الأساس الذى حمل الرأسمالية فى كل بلد بنسبة معينة على التشديد على قوميتها وتمجيد تاريخها ورسالتها فى نقل «المدنية» إلى الشعوب المتخلفة أو المتوحشة كما قال كثير من قادة تلك الدول وبعض من مفكريها. وأصبح الموت فى أعمال غزو أراضى العالم الثالث موتا فى سبيل الوطن. وكان أهل الغرب ينشرون الخارطة السياسية للعالم وبلداننا عليها ملونة بلون الدولة المحتلة والحاكمة بين الدول الكبرى. وكان لون الإمبراطورية البريطانية (الأحمر الوردى) ظاهراً فى كل قارة وبمساحات شاسعة، وتباهى رعايا جلالة الملك بأن إمبراطوريتهم «لا تغيب عنها الشمس». وفى ظل القومية انتهت حماقات الملوك وقصر نظرهم، وكذلك أسباب دخول دولهم الحروب فيما بينها. وحل مفهوم توسيع السوق القومية بضم مستعمرات فى كل ركن من أركان الأرض فضلاً عن السيطرة على موارد المواد الأولية التى تضاعفت الحاجة إليها عدة أضعاف بعد الثورة الصناعية. محل مفهوم الولاء للملك «السلطان أو الإمبراطور». وبالتالى أصبح التوسع الاستعمارى بقوة السلاح دليلا على عظمة الأمة الغازية التى ترفع أعلامها فى عدة قارات «الدافع التعبوى» لزيادة الإنتاج وتعظيم أرباح الرأسمالية باحتكار المزيد من موارد المواد الأولية من ناحية ولتعاظم بيع المصنوعات التى تصدرها. ومن هنا ظهر اتجاه بحسب التكلفة والعائد لأى حرب وظهرت فرص التفاوض والتحالف والتقاسم والتنازلات المتبادلة. وتراكمت وتنوعت المعاهدات الثنائية أساسا فى الساحة الدولية. واجتهد بعض الفقهاء فى استخلاص قواعد للقانون الدولى من أحكام المعاهدات الثنائية أو المتعددة الأطراف السارية بالفعل. ولما كانت الحرب والاستعداد لها

نشأ سبب ومسرح جديدان نتيجة للاكتشافات الجغرافية والتنافس على استحواذ جزء مهم منها. وكان ذلك الأساس الذى حمل الرأسمالية فى كل بلد على التشديد على قوميتها ورسالتها فى نقل «المدنية» إلى الشعوب المتخلفة أو المتوحشة



نشاطاً عادياً وضرورياً لكل دولة ذات سيادة، ضمت حكوماتها دائماً «وزارة للحربية» وقسم الفقهاء القانون الدولى العام إلى قسمين: قانون السلم، وقانون الحرب، وظل هذا التقسيم سائداً إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد شاركت بعض الحكومات فى اتفاقيات مشتركة عنيت أساسا بتسوية النزاعات حول حدود كل دولة فى أوروبا مشاركة عدد منها فى استغلال موقع جغرافى مهم فى نظر كل منها (مثل معاهدة القسطنطينية ١٨٨٨ التى أرست أحكام المرور فى قناة السويس). ولكن ظلت الأمور فيما يتعلق بالحرب والسلام تفتقد بناء إطار مؤسسى. وبغض النظر عن العقبات الموضوعية كان رجال السياسة والفكر يصطدمون بقضية كأداء فى سعيهم للتوفيق بين مفهوم سائد ومصالح متجددة. أما المفهوم فهو سيادة كل دولة الكاملة على أرضها ومواطنيها ورفض أى شىء يشبه سلطة فوق القومية.

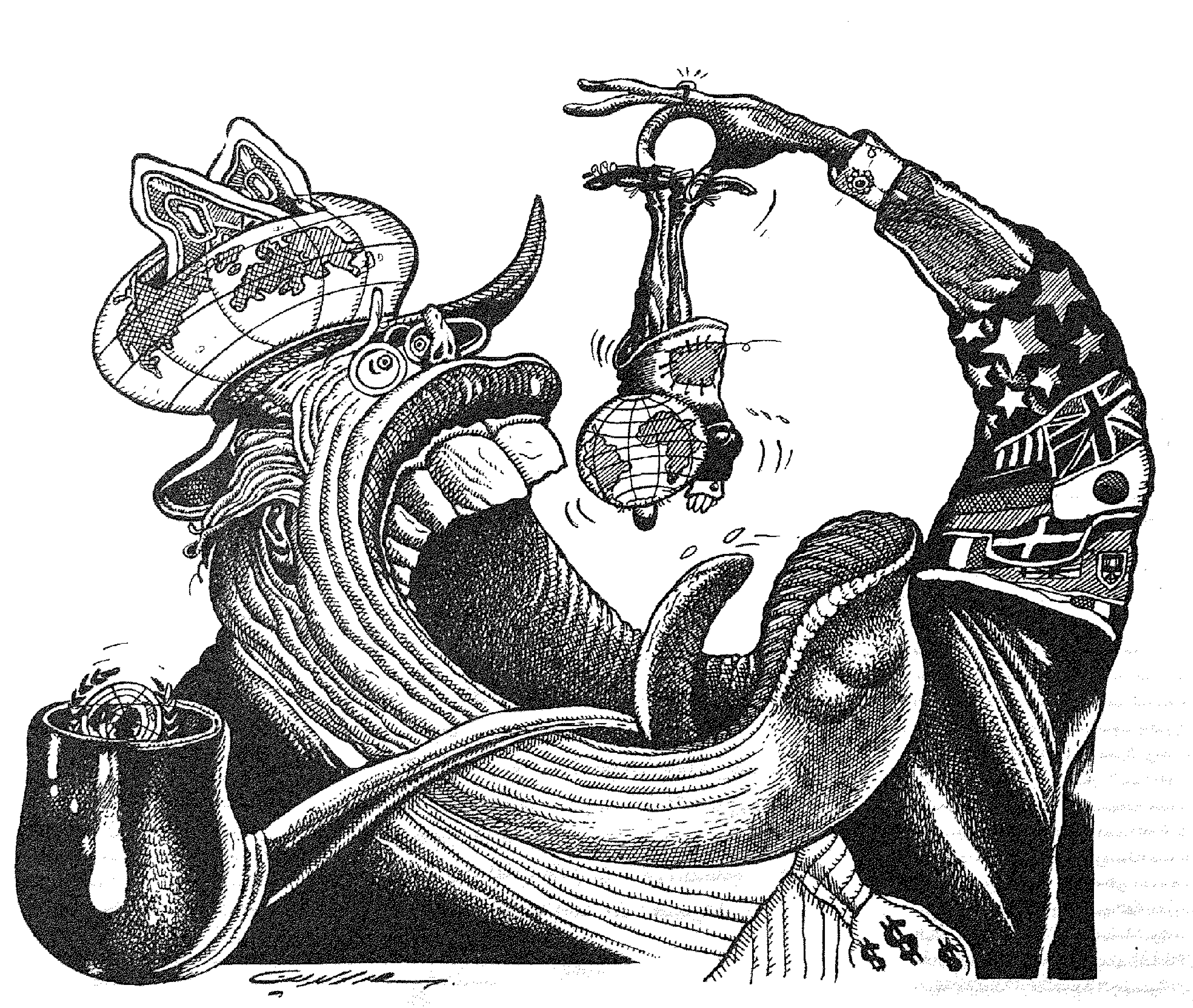
فالدولة القومية لا تلتزم بأى شىء لم توافق عليه ومحاولة التدخل فى ممارستها السيادية تؤدى إلى الحرب، فى حين أن لها مصالح مشتركة كانت تقتضى تنازلات متبادلة فى المستوى الإجرائى وإن لم تظهر فى مستوى المبادئ العامة وظلت فكرة الإطار المؤسسى الواسع والشامل بقدر الإمكان حلما ينشغل به المفكرون ومؤسسو الفكر السياسى المعاصر.

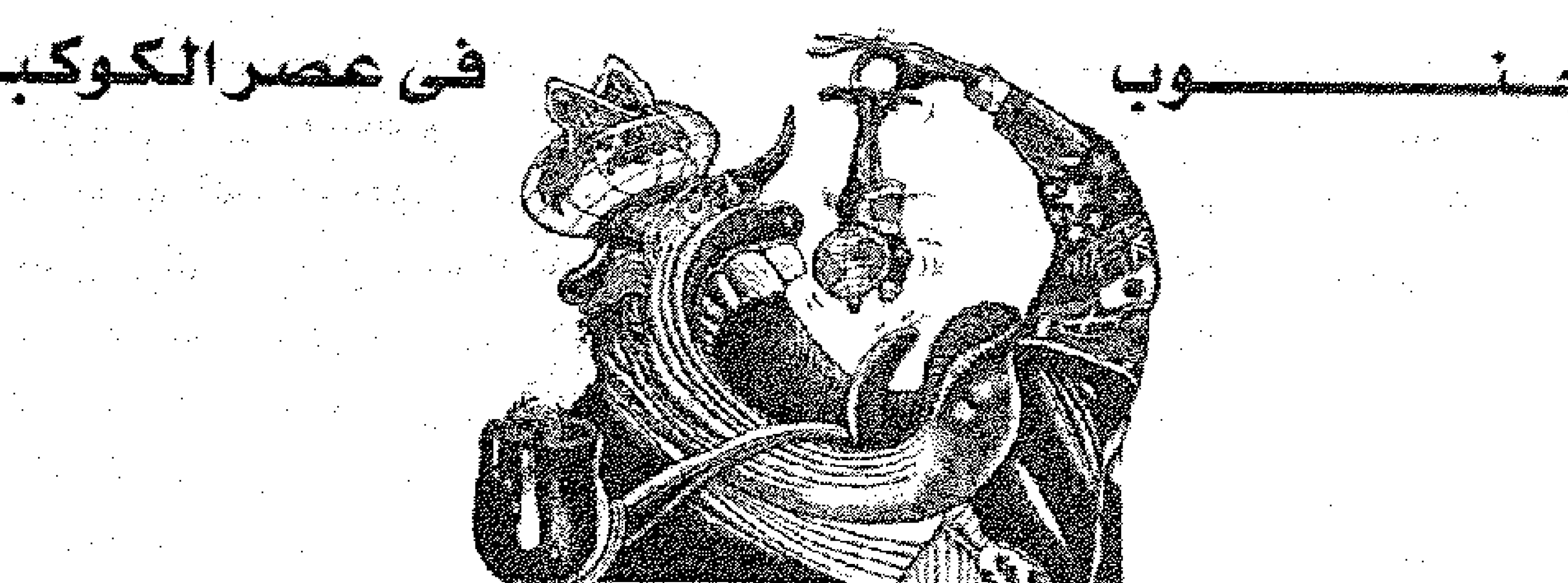
من فيينا ١٨١٥
إلى سان فرانسيسكو
١٩٤٥ وما تلاها

كما أن ظاهرة «الدولة القومية» حديثة بالنسبة لتاريخ البشر، فإن محاولة وضع قواعد للعلاقات بين هذه الدول أكثر حداثة. وبقراءة جديدة لتاريخ المؤسسات المعروفة نكتشف ظاهرة بالغة الأهمية ألا وهى أن كلا منها نشأ فى أعقاب حرب طحون استمرت سنوات متعددة وكان هدفه الأساسى تفادى الحروب المدمرة.

وأول محاولة فى هذا الاتجاه كانت مقررات مؤتمر فيينا (١٨١٥) الذى وضع نظم وضمانات التمثيل الدبلوماسى والقنصلى وكرس مبدأ احترام حدود الدول القائمة وقتها ومساندة المعتدى عليه فيها ضد المعتدى. وقد استغرقت أعمال المؤتمر من سبتمبر ١٨١٤ إلى يونيو ١٨١٥. وبرزت فيه قيادة مترلنك الوزير الأول فى إمبراطورية النمسا والمجر. وكان كل ذلك غداة نهاية عشرين عاماً من الحرب يسميها المؤرخون حروب الثورة الفرنسية ونابليون. وبطبيعة الحال أعاد المنتصرون رسم حدود عدد من الدول لصالحهم، وكانت بولندا (لتعاطفها مع نابليون) الضحية الكبرى حيث قسمت بين روسيا والنمسا وبروسيا. وعاشت قرارات مؤتمر فيينا لمدة ٤٠ عاماً. ثم كان توحيد كل من ألمانيا وإيطاليا بداية توتر جديد بين الدول الجديدة والقديمة محوره الأساسى تقسيم وإعادة تقسيم المستعمرات. وتحول بعض الخصوم إلى حلفاء (الوفاق الثنائى بين فرنسا وإنجلترا فى ١٩٠٤ مثلا الذى أدى لوقف مساعدة فرنسا للحركة الوطنية المصرية ضد الاحتلال البريطانى فى مقابل ترك إنجلترا المملكة المغربية فريسة لفرنسا). كما بقى أمام الدول الأوروبية الكبرى مهمة تحرص عليها كلها ألا وهى تصفية الإمبراطورية العثمانية أو على الأقل طردها من أوروبا. وقد تجاوزت أعمال القتال حدود أوروبا إلى دول الشرق الأوسط، وصدر وعد بلفور فى نوفمبر ١٩١٧. وأخيراً انضمت الولايات المتحدة إلى الحلفاء وبرز دور رئيسها ولسون فى مرحلة الإعداد لما بعد الحرب بمبادئه الأربعة عشر وأهمها حق تقرير المصير لكل شعب، وتجنب الحرب، وما دار من مفاوضات حول اقتسام الغنائم من المهزومين فى

فى عصر الكوكبة





شكل أرض وتعويضات باهظة. فولدت «عصبة الأمم».

وقد جاءت المنظمة الجديدة فى أعقاب حرب ضروس استمرت أربع سنوات وبضعة شهور سقط فيها ملايين الضحايا ودمرت مصانع ومدن وقرى فى كل أنحاء القارة وظهر فيها سلاح جديد هو الطيران وآخر كيمائى حرّم دوليا فيما بعد «الغازات السامة». فليس غريبا أن يكون تفادى الحروب الكبيرة على الأقل والعمل على استقرار السلام العالمى العمود الفقرى لنشاط المنظمة الجديدة. وطرح عهد إنشاء العصبة convent الموقع فى ١٠ يناير ١٩٢٠ وسائل ثلاثًا لتحقيق السلام: التسوية السلمية للنزاعات بين الدول الأعضاء (حوالى ٦٠ دولة مع خروج البعض ودخول البعض الآخر)، نزع السلاح أو بعبارة أدق قصر حجم التسليح بشرا ومعدات على ما يكفى لتوفير الأمان لشعب الدولة وأرضها، تحريم العدوان على أى عضو وحشد إمكانات الأعضاء لردع المعتدى أو هزيمته. ومن الناحية التنظيمية كانت القرارات تصدر عن الجمعية العمومية للدول الأعضاء، وكان لها مجلس بغير سلطة اتخاذ قرار متجاوزا دور الجمعية العمومية. ولم يعرف «العهد» أسلوب الاعتراض الموقف للقرار «فيتو». ولكن هيمنة الدول الكبرى كانت جلية فلا قرار نافذا مع معارضة واحدة أو أكثر من تلك الدول. وأقيم للعصبة مبنى منيف فى جنيف سمى «قصر الأمم».



ومن الجدير بالذكر قبل الدخول فى تقييم أداء عصبة الأمم أن المسئولين عن نشأتها وكتابة عهدها تجاهلوا العالم الثالث وقضية الاستعمار تجاهلا كاملا. فقد سارع المنتصرون إلى الاستيلاء على مستعمرات المهزومين (بريطانيا والاستيلاء على تنجانيقا، فرنسا وضم الكاميرون.. الخ)، وبالنسبة للأقطار العربية التى كانت جزءاً من إمبراطورية آل عثمان (العراق، سوريا، لبنان، فلسطين) كان من الضرورى إيجاد شكل قانونى للاستيلاء عليها دون تنكر كامل لمبدأ حرية تحديد المصير، فاخترعوا ما يسمى «الانتداب» أى تسليم القطر لسيطرة دولة كبرى منتصرة حتى ينضج شعبه ويستحق ممارسة تقرير مصيره. أما مصر فبقيت تحت الحماية البريطانية التى فرضتها لندن بقرار منفرد مؤسس على سقوط الولاء للسلطان العثمانى خليفة المسلمين لانضمامه إلى التحالف الذى قادته ألمانيا (١٩١٤)..

وبالمقابل احتلت الهند (وهى آنذاك مستعمرة بريطانية) مقعداً فى الجمعية العمومية وكثيرا ما كان ممثلوها من حكامها الإنجليز! وكانت الضربة الأولى تلك التى أصابت المنظمة قبل مولدها الرسمى هى انتهاء رئاسة ولسون وسيادة اليمين الانعزالى فى الولايات المتحدة على نحو حمل الكونجرس على رفض التصديق على المشروع.

ويرى بعض المؤرخين أن أداء عصبة الأمم كان جيدا لمدة تسع سنوات، وينسى معظمهم أن ١٩٢٩ كانت بداية الكساد الأعظم الذى هز الرأسمالية من الأعماق والقى عشرات الملايين من العمالة فى بؤس البطالة فى زمن لم يعرف التأمينات الاجتماعية، والذى استمر لمدة لم يسبقه فيها كساد آخر ١٩٢٩ - ١٩٣٤. ومع ذلك لم تفكر حكومات الدول الكبرى فى التوافق على اتجاهات سياسية جديدة يمكن أن تعجل بنهاية الكساد. وكان أهم الأمور للحفاظ على النظم الحاكمة هو توفير فرص عمل تنتج سلعاً أو خدمات لا تباع فى السوق، أى زيادة الطلب دون زيادة فى العرض. واهتدى روزفلت فى أمريكا إلى الأشغال العامة Public works الكبرى وفى مقدمتها شبكة الطرق الفيدرالية التى تربط جميع مدن البلاد ببعضها البعض. أما هتلر الذى حملته إلى السلطة مساندة الرأسمالية الكبيرة لخوفها من تكاثر تيارات اليسار وتأثير نجاح الثورة الاشتراكية فى روسيا، كما دفع اليأس والرغبة فى الحصول على عمل قبل أى شىء آخر، العاطلين والفقراء إلى أن صوتت له أقسام كبيرة منها. وكانت وسيلة النظام النازى المختارة لتوفير فرص عمل تزيد الطلب ولا تزيد العرض هى الإنفاق الواسع على التسليح. وكان من أول قراراته إلغاء التزام ألمانيا فى معاهدة فرساى بالنزع التدريجى للسلاح. وكانت دول غربى أوروبا فى البداية تسعد بظهور الفاشية والنازية لتكون حاجزا أمام المد الشيوعى الذى أعقب نجاح الثورة البولشفية وزادت حدة هذا المد للتدنى الشنيع فى مستوى معيشة الشعوب. وفى الفترة ذاتها أسقطت عصبة الأمم عضوية الاتحاد السوفيتى. ولم تحرك ساكنا لوقف غزو اليابان لمنشوريا فى ١٩٣١ رغم استغاثة الصين بعصبة الأمم، وبعدها لم تتصد لغزو إيطاليا للحبشة (١٩٣٦). وتركت هتلر يعيد احتلال منطقة الراين ثم يضم دولة النمسا ويفكك دولة تشيكوسلوفاكيا. وعبر مثل هذه الظروف كان الحديث عن مؤتمرات لنزع السلاح مدعاة للسخرية بعد أن دخلت الدول التى نادت به إلى ميدان السباق فى تكديس الأسلحة والتجديد فيها.

وهكذا دخلت المنظمة مرحلة الاحتضار وانتهت حياتها عمليا فى سبتمبر ١٩٣٩ عندما غزت الجيوش الألمانية أرض بولندا. ذلك الذى كان بداية الحرب العالمية الثانية. واحتفل بدفنها رسميا فى جنيف فى ديسمبر ١٩٤٦.

الأمم المتحدة:
المولد والأزمة المتفاقمة

وغنى عن الذكر القول بأن الحرب العالمية الثانية كانت أهول ما شهدت البشرية منذ وجودها على سطح الأرض. فقد شملت كل دول أوروبا وآسيا ودارت عملياتها البحرية والجوية فوق المحيطات الأطلسى والهادى والهندى. وأصابت الأسلحة الفتاكة عشرات الملايين من المدنيين ودمرت مدنا بأكملها (من أشهرها برلين). وبالإضافة إلى كل ذلك انصب غضب النازيين والفاشيين وحلفائهم الصغار وكذلك قادة اليابان وجنودها على الشعوب المحتلة قتلا وسجنا وتعذيبا.

واستند الألمان خاصة إلى زعم باطل بأن البشرية من عناصر مختلفة من حيث القدرات والصفات العقلية والبدنية وقد رتبها النازيون (والعنصرية بقايا حتى اليوم) بعضها فوق بعض. وجاء العنصر الآرى (المتجسد جوهريا فى ألمانيا) على القمة فى حين يرد زنوج أفريقيا والغجر (Roms) فى ذيلها. ووفقا لمقولة داروين يتوقف تقدم البشرية على مبدأ البقاء للأصلح والفناء للأضعف. ومن هنا إلى جريمة إبادة مجمعات بشرية كاملة genocide خطوة واحدة. وقد نال يهود أوروبا نصيباً كبيراً من القمع حيث كانت فى الفكر النازى السامية نقيض الآرية وأنها تسعى دائما لتخريب وإفساد مجتمعات النبل والشجاعة والقوة التى تميز العنصر الآرى. وفى خضم هذا الجحيم استمرت الدول الكبرى فى تطوير أسلحة وبخاصة أشدها فتكا وأوسعها تدميراً. وكانت الطامة الكبرى سقوط أول قنبلة نووية على يوكوهاما..! وكان طبيعيا أن الشعوب التى رفضت استسلام حكوماتها للنازية والتعاون مع المحتلين تحمل مباشرة مسئولية المقاومة بكل الوسائل ضد المحتل النازى وأعوانه. وكان لغزو ألمانيا أراضى الاتحاد السوفيتى أثر بالغ فى نفوس المتعاطفين مع أول دولة اشتراكية عرفها التاريخ المكتوب. وكان لهذا الضغط الشعبى وزخمه المتزايد تعبير واضح فى ظهور مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان ووضع تصفية الاستعمار القديم على جدول أعمال مؤتمر سان فرانسيسكو الذى صاغ ميثاق المنظمة الجديدة التى خلفتها الحرب العالمية الثانية «هيئة الأمم المتحدة».

وليس هذا مقام تقويم عمل الأمم المتحدة خلال ما يزيد على خمسين عاماً. وكل ما نريد إظهاره أنها وليدة حرب بشعة وأن هدفها الأساسى كان تفادى أى حرب مقبلة لاسيما إذا كانت متعددة الأطراف. وصحيح أن هذه الحقبة من الزمن هى أول فترة فى تاريخ الرأسمالية الغربية لا تشهد حربا بين الدول الكبرى. وترجع هذه الظاهرة الجديدة تماما على تاريخها (خمسة قرون) الحافل بالحروب والثورات الدموية والقمع الذى لا يعرف رحمة، لأسباب متعددة يأتى على رأسها الرادع النووى الذى جعل كل حرب نووية مدمرة بالضرورة للغالب والمغلوب معا. (إذا أمكن تحديد كل طرف بدقة وسط الدمار الشامل). ويلى ذلك أهمية فى استبعاد حرب الدول الكبرى أن الرأسمالية الغربية الكبيرة دخلت مرحلة الكوكبة globalization[1] حيث يمتد نشاط كل شركة كوكبية أو متعدية الجنسية إلى

أصبح التوسع الاستعمارى بقوة السلاح دليلا على عظمة الأمة الغازية التى ترفع أعلامها فى عدة قارات «الدافع التعبوى» لزيادة الإنتاج وتعظيم أرباح الرأسمالية باحتكار المزيد من موارد المواد الأولية من ناحية ولتعاظم بيع المصنوعات التى تصدرها



عشرات الأقطار. وإذا ضايقها أحد فى قطر منها صفت نشاطها فيه (انظر ما فعلته سنسبرى فى مصر). بل كل شركة فيها تنظر إلى جملة المسكونة كسوق حالية، أو احتمالية، وهى تحل كثيرا من مشكلات التنافس فيما بينها باللجوء إلى التحالفات، والاندماجات، والاستحواذ، والتخلص من فرع كامل من نشاطها للاستثمار فى أنشطة أكثر ربحا. وفى مثل قريب لذلك نذكر بقرار شركة ماركس آند سبنسر الإنجليزية الخاص بإغلاق ٣٧ محلا للتجزئة فى أنحاء مختلفة من فرنسا فى يوم واحد دون أن يكون ثمة مشكلة بينها وبين الحكومة أو قطاع الأعمال الخاص الفرنسيين. كما أن أهم أسلحة تلك الشركات فى اختراق اقتصادات دول العالم الثالث هو فساد الحكام، ومهما بلغت قيمة الرشاوى فإنها أقل قطعا من نفقات حملة عسكرية. كما يسهل تحسين صورتها لدى الرأى العام المحلى الذى عوده حكامه على توهم أن الاستثمارات الأجنبية المتدفقة، والإدارة الأجنبية عالية الأداء، والقدرة على التصدير تشكل الطريق الوحيد للتخفيف من حدة الفقر والبؤس والحرمان.

مزيد من الحرب
ومزيد من الفقر

أ. حروب العالم الثالث: تكرر ما ذكرناه أعلاه من أن الغرض الجامع لكل محاولات توفير إطار مؤسسى للعلاقات بين الدول كان استبعاد الحرب كوسيلة لتسوية النزاعات بين حكوماتها التى تضمها معاهدة دولية أو مؤسسة تجمع حكومات الدول المستقلة ذات السيادة التى تملك سلطة إعلان الحرب. ورأينا أنه منذ إنشاء هيئة الأمم المتحدة وحتى هذه اللحظة لم تشهد البشرية عاماً واحداً دون قتال فى بقعة أو أخرى من العالم. وكل ما تحقق هو اختفاء الحرب بين الدول الكبرى بعضها وبعض، ولكن نارها مازالت متقدة ومتجددة فى بقية المعمورة. ويشمل تعبير الحرب هنا حروب الحدود والحروب الأهلية وحروب الأنصار (أو ما يسمى خطأ حرب العصابات) وأعمال الاغتيال والإرهاب من جانب الدولة أو بعض خصومها. ومازال فى خلفية الذهن الغربى الرأسمالى مفهوم عنصرى فج: فالبيض متحضرون، والسود همج، والصفر غول يهدد الحضارة الغربية. ومن ثم كان تفسير كثير من الساسة وبعض المفكرين الغربيين لاطراد الحروب فى العالم الثالث على أنه يرجع إلى أن شعوبه عاجزة عن استيعاب مفهوم الدولة القومية وحقوق الإنسان والمواطنة والعقلانية ومجتمع القانون..! وحقيقة الأمر أن الغرب الاستعمارى هو المسئول الأول تاريخياً عن نشأة النزاعات فى العالم الثالث، وأنه المستفيد الأول من استمرار الحروب حتى الآن وإلى أجل غير معروف. فحين نجحت شعوب العالم الثالث فى تصفية الاستعمار القديم فى فترة قصيرة نسبيا تلت الحرب العالمية الثانية وبلغت أوجها فى ١٩٧٥ بهزيمة الولايات المتحدة وانسحابها من فيتنام واستقلال أنجولا وموزمبيق عن البرتغال. ولابد هنا من التنويه بالدور الحاسم لحركة عدم الانحياز وقيادة الهند ومصر ويوغوسلافيا. ورثت الدول المستقلة حديثا الحدود التى رسمها الاستعمار بالقوة ومن خلال حروب اقتسام أراضى الشعوب الأخرى.



ولعل أحدث مثل طرح على الساحة العالمية هو «استقلال تيمور الشرقية» عن إندونيسيا. وذلك أن الدولة التى انفصلت عن الاستعمار الهولندى جمعت معظم الجزر (بالآلاف) التى كانت تخضع لحكومة لاهاى إلا النصف الشرقى من جزيرة تيمور الذى كان مستعمرة برتغالية منذ أكثر من أربعة قرون شهدت خلالها الانتماء إلى الكنيسة الكاثوليكية واختلط أهلها بمهاجرين من البرتغال ومستعمراتها وفقدت لغتها الأصلية ونطقت بلغة البرتغال وتحولت عمليا إلى جزء من اقتصادها معزول عن غربى الجزيرة نفسها ناهيك عن بقية الجزر الإندونيسية. ولكل ذلك لم يكن أهلها يتشوقون إلى وحدة مع جيرانهم وكانوا إلى الربع الأخير من القرن الماضى يفضلون استمرار ارتباطهم الوثيق بالدولة الأوروبية الأم.

أما فى أفريقيا فقد عمل الاستعمار الفرنسى بالذات على رسم حدود الأقاليم الإدارية التى تشكل «فرنسا فيما وراء البحار» بحيث لا يكون فيها أى إقليم من قبيلة واحدة أو قبائل متجانسة. وكان المستعمرون حريصين على أن يضم كل إقليم أرضا يسكنها جزء من أبناء عدة قبائل متناحرة تاريخياً أو مختلفة عرقيا أو لغة، وأذكوا دائما سياسة «فرق تسد» بامتيازات هنا وقمع هناك. وحظرت الدولة المستعمرة تعليم اللغات القومية التى كانت تكتب بالحروف العربية وكان «التفرنس» الطريق الضيق المحدود للتعليم[١]، وكانت البرتغال الدولة البحرية التى تعيش على الملاحة تعمل على امتلاك الأرض المحيطة بالموانئ الواقعة على طريق الهند البحرى، ثم جنوبى آسيا. وكانت انجولا غربا وموزمبيق شرقا أكبر مستعمراتها. وفى أقصى الجنوب استقرت جماعات من الهولنديين انفصلوا عن حكومة لاهاى بسبب خلاف دينى (اليوبر) واحتل الإنجليز أرضهم فى بداية القرن العشرين. وكان جنوبى خط الاستواء خاضعا فى أغلبيته للإمبراطورية البريطانية ماعدا الكونغو البلجيكى. وسارت لندن على سياسة تعليم مماثلة لسياسة باريس. وبلغ بها سخف القوة حد تسمية مستعمرات بأسماء «أبطال» بريطانيين: روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية[٢]. وقد اتخذ القادة الحكماء الذين أنشأوا منظمة الوحدة الأفريقية وفى مقدمتهم عبد الناصر قرارا من المؤسسين باحترام الحدود الموروثة عن الاستعمار ليحموا القارة من جحيم حروب حول الحدود لا تنتهى فى موقع إلا لتندلع فى آخر. وقد نجح القرار الحكيم فى تجنب القتال إلا فى حرب تحرير ضد الاستعمار عدة عقود.



دخلت الرأسمالية الغربية الكبيرة مرحلة الكوكبة حيث يمتد نشاط كل شركة كوكبية أو متعدية الجنسية إلى عشرات الأقطار. وإذا ضايقها أحد فى قطر منها صفت نشاطها فيه (انظر ما فعلته سنسبرى فى مصر). بل كل شركة فيها تنظر إلى جملة المسكونة كسوق حالية، أو احتمالية

والآن مازالت قوى الغرب الاستعمارى بأجهزة مخابراته وعن طريق رجال أعمال تنشئ شركاتهم فروعا فى القارة السمراء، وبشراء ذمم قادة وحكام غارقين فى الفساد والجهل الجهة التى تغذى نيران الحروب فى معظم أجزاء أفريقيا. ويبين الكشف عمن يستفيد ماليا منها أن الغرب كان المسئول الأول تاريخيا وهى الآن المستفيد الأكبر. وأول ما يخطر على البال فى هذا الصدد: من أين يتدفق السلاح على كل الخصوم المتحاربين فى وقت واحد؟. ومعروف أنه ليس فى أى دولة محاربة أو لدى جيرانها مصانع للسلاح. والصناعة العسكرية المتقدمة الوحيدة توجد فى جمهورية جنوب أفريقيا التى ورثتها من أيام حكم البيض واسترقاق السود. وهى الآن دولة ديموقراطية تحاول تصفية بقايا العنف فى أفريقيا جنوبى الصحراء وتسعى بكل ما تملك من وزن دولى وإقليمى لحل المنازعات سلميا، ولذلك فإن السلاح بأنواعه المحمولة وذخائره المتجددة يستورد من خارج القارة. وبرز أحيانا فى وسائل الإعلام كلام عن فئة من «الأشرار» يسمون تجار السلاح. ولكن هؤلاء التجار لا يصنعون ما يبيعون، بل يشترونه من مصانع عدد كبير منها موجود فى الغرب أو فى مناطق نفوذه المنتشرة حول الكرة الأرضية. وللعاصمة البريطانية شهرة كبيرة كسوق لتجارة السلاح المشروعة وغير المشروعة. والمنتج الكبير يستحوذ دائما على أكبر نسبة من ثمن البيع للمستهلك. أما الوسطاء الأجانب والمحليون فهم فى النهاية فى خدمته. ويدفعنا هذا إلى سؤال آخر كيف تدفع «الجهات المستوردة ثمن وارداتها». والجواب: بعدة وسائل كلها غير شرعية. ففى الصدارة منها تهريب الماس والذهب بثمن بخس مقارنا بأسعار السوق العالمية. وبطبيعة الحال لكى يستمر هذا التهريب لابد له من شبكات توزيع منظمة. وبالنسبة للماس بالذات ثبت للأمم المتحدة أن كبرى شركات تنقية الماس وتشكيله وبيعه كمادة أولية ومقرها هولندا، متورطة فى عمليات شراء الماس المهرب من أفريقيا. ويصدق هذا أيضا على الذهب والنحاس والنفط.

وتخلق هذه التجارة غير المشروعة الحاجة إلى عمليات «غسيل الأموال» بكميات ضخمة تدخل فيها حكومات وبنوك وشركات تجارة خارجية وشركات مالية وبورصات.. الخ. ويتضاعف حجم الأموال القذرة إذا أضفنا ما يحصل عليه الحكام وأصحاب النفوذ فى أفريقيا أو فى خارجها من «عمولات» هى فى الواقع رشاوى بالتعريف القانونى. وفى كل تلك الأحوال المستفيد

الأساسى ماليا من حروب أفريقيا التى استمر بعضها ثلاثين عاماً هم أهل الغرب وبصفة خاصة الشركات متعدية الجنسية. وفى هذا الجو المشبّع بخرق الشرائع والقوانين تزدهر تجارة المخدرات، إنتاجا أو نقلا حتى الدول الغربية المستهلك الرئيسى والقادر على دفع الثمن. ومن أحدث ما نما بسرعة فى العقود الثلاثة السابقة هو تجارة الرقيق أساساً فى سوق الدعارة شاملة البنات والصبيان، بجزءيها للعمل فى مزارع أو مصانع تنتج ما هو محظور قانونا. وتلى أفريقيا من حيث كثرة الضحايا دول شرقى أوروبا التى «تحررت من الشيوعية». ومن المكاسب التى تحققها الراسمالية يأتى دور «شركات الأمن» وهى مكونة من مقاتلين مرتزقة مدربين تدريبا عاليا فى التعاقد على أطراف فى حروب العالم الثالث لتولد لها الكوادر المحترفة التى تعد للقتال حتى الصبية الصغار والتى تحدد أنواع السلاح. ولم يلاحظ الناس عندنا أنه حين طلب رئيس أفغانستان من أمريكا توفير حماية شخصية له، تعاقدت وزارة الخارجية الأمريكية مع شركة أمن خاصة للقيام بالمطلوب.

ب. العدوان على البيئة : وتوازى هذه الجريمة ضد البشرية، جريمة ضد البيئة. فمن المعروف أن نشاط الإنسان، لاسيما فى القرنين السابقين، قد حرم المعمورة من معظم الغابات (فى أوروبا، وأمريكا الشمالية وبعض أجزاء آسيا). والشجر هو الذى يسحب من الجو ثانى أكسيد الكربون ويحوله إلى غذاء للنبات، ويطلق بدلا منه الأوكسجين اللازم لبقية الأحياء. ولم يبق للبشرية كلها الآن إلا «رئتان» غابة الأمازون فى أمريكا الجنوبية، وغابة وسط أفريقيا. ومن ثم عقدت اتفاقات دولية شاركت فيها الدول المصدرة لكميات الخشب الكبيرة على تحديد المساحات التى يصرح بقطع أشجارها شريطة أن تزرع الأشجار فى مناطق بديلة. والتزمت معظم الدول الآسيوية بهذه القواعد. ولكن حكام دول أفريقيا المجاورة لغاباتها وكل الفصائل التى تحاربهم تسابقوا فى منح ترخيصات لقطع الأشجار حيث يشاءون وبالكمية التى يقررون محروسين فى سرقتهم بجنود أولئك الحكام والقادة. فى حين تهب المنظمات الشعبية لمقاومة الحكومة التى تضعف أمام الرشوة وتوافق على تدمير هذا المصدر الحيوى.

ومن ناحية أخرى أدى استخدام الطاقات الأحفورية المختزنة (الفحم، البترول ثم الغاز الطبيعى) فى تشغيل الآلات بمختلف أنواعها وكل قطاعات الإنتاج والخدمات الى تزايد رهيب فى كميات غاز ثانى أكسيد الكربون فى جو الكرة الأرضية. ويقدر ما تجمع منه خلال القرنين الفائتين بأكثر مما تجمع منذ ظهور البشر على سطح الأرض وحتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى. وواضح تماماً بأننا بين المطرقة والسندان زيادة مطردة فى الكربون ونقص مطرد فى الأوكسجين، وكلا الاتجاهين يهدد الحياة، تلك الظاهرة التى لا نعرف لها مثيلا حتى الآن ضمن ما كشفناه من الكون. ولا ينكر أحد «مفعول الصوبة» أى بأثر مجموعة غازات ثانى أوكسيد الكربون + الميثان + أكسيد الانتيراس فى رفع درجة حرارة المجال الحيوى لكوكبنا Biosphere ويدور الجدل حول تقدير مداه عبر الزمن والآثار المتوقعة (مثلا ارتفاع درجة حرارة مياه البحر الأبيض المتوسط يغرق دلتا النيل بالكامل).

ولا يقل عن ذلك أهمية اختفاء عدد ضخم من الكائنات الحية صغيرها وكبيرها. ومن المعروف أن المادة «لا تفنى ولا تستحدث». ومن ثم من غير المتصور إمكان خلق كائن حى جديد عن طريق الهندسة الوراثية التى تتمثل إنجازاتها فى استخدام جينات إلى جانب تلك التى يتضمنها الكائن محل البحث أو قتل بعضها. وقد يدهش هدف «الحفاظ على التنوع الحيوى» الذى يطرحه دعاة حماية البيئة لأنه غير مفهوم تماماً. ولذلك تنبه القارئ المصرى إلى أن بعض الفواكه انقرضت من مصر (العناب مثلا) أو فى طريقها إلى الانقراض (الجميز والنبق مثلا) وقد اختفت من أسواقنا أنواع متعددة من العنب (بز العنزة، الفراولة) ومن الجوافة (أتذكر فى حديقة بيت أسرتى فى الصعيد خمسة أنواع من هذه الفاكهة).

وقد بدأ المجتمع المصرى منذ سنوات قليلة الحديث عن «التلوث». ولكنه سيكتشف شيئاً فشيئاً خطر التلوث الكيميائى الذى ينشأ عن استخدام مواد كيماوية كثيرة تضر بالإنسان والحيوان والنبات. وهى تصل إليه فى الغذاء والماء والهواء. ولم يرتفع وعى صانعى القرار إلى مستوى البحث والقياس وترتيب الأخطار وطرح سياسة شاملة للحد من آثار التلوث. يصل فقدان الوعى البيئى إلى استنكار مصدرين مصريين الشروط الصحية والبيئية التى يفرضها الاتحاد الأوروبى على منتجاته وبالتالى على ما يستورد من الخارج.

وليس من أغراض هذه الورقة تفصيل قضايا البيئة ولكن يستحيل إهمالها تماماً عند الحديث عن الإطار المؤسسى للعلاقات الدولية حيث إنها قضية عالمية بالأساس تقتضى الكثير من الإجراءات المشتركة بين بعض الدول أو كلها. فالأخطار البيئية لا تعرف شيئاً عن الحدود الجغرافية أو السياسية، وقد أعدت بالفعل بعض الاتفاقيات الدولية بشأن بعض قضايا البيئة. ولكن الولايات المتحدة ترفض التوقيع عليها فتعطل تصديق دول أخرى سبق أن وقعت. ومن أشهر الأمثلة على ذلك الموقف امتناعها عن التصديق على اتفاقية كيوتو الخاصة بخفض نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الجو والعودة بها فى أوائل القرن الحادى والعشرين إلى المستوى الذى كانت عليه فى ١٩٩٠، مع العلم أن الولايات المتحدة مسئولة عن ٢٥٪ من الانبعاث الضار على مستوى العالم[٤].

جـ. الفقر يزداد عمقاً وانتشاراً: كان الاقتصاديون الليبراليون الذين يؤمنون أن لقوى السوق سلطانا أقوى من قوة البشر وحكمة تتجاوز كل ما دعوا إليه من فلسفات. فمنذ مرحلة التصنيع وفى بداية القرن التاسع عشر ظهر لكل الناس أن النسق الرأسمالى الجديد يفرز الثروة من ناحية ويولّد البؤس من ناحية أخرى. وأكد تلك الحقيقة اقتصاديون كبار من مؤسسى هذا العلم وعلى رأسهم البريطانى ريكاردو. وشايع هذا التحليل مالتوس الذى شن عليه الليبراليون حملة تشهير منكرة بحجة فساد نظريته فى السكان. ثم جاء ماركس وفى جذر تفكيره الاقتصادى مفهوم الإفقار بفعل الرأسمالية. وانفرد اسم أحد المدافعين عن مذهب حرية التجارة Says.B.J لأنه أدعى أن «العرض يخلق الطلب» مناقضا بذلك كل الفكر السابق والمعاصر له. ولتفادى فجاجة هذه الصياغة التى لم يصنع لها المؤلف آليات عمل، ظهر فى أوائل القرن العشرين ما يسمى «مفعول التساقط» أى أن الثروة التى تتجمع لدى الأغنياء تتساقط على الفقراء كالغيث على الفيفاء. فاستهلاك الأغنياء أكثر وأعلى ثمنا (القصور والحشم والخدم ووسائل الانتقال الفاخرة فضلاً عن الثياب والأثاث) وبهذا فهم بلغة العصر الحاضر «يخلقون فرص عمل جديدة». ويظل الاستثمار أهم وسيلة لزيادة العمالة والحد من الفقر. فالفقراء ومحدودو الدخل لا يدخرون لأن دخلولهم تكاد لا تكفى إشباع الحاجات الأساسية. وذلك على عكس الأثرياء الذين لا يأتى استهلاكهم الترفى على كامل دخلهم فيدخرونه ثم يستثمرونه مباشرة أو بإقراض غيرهم من الأثرياء المنتجين. وترتب على هذا الزعم أن أدبيات التنمية الغربية ركزت على أن زيادة الاستثمار هى عمود النمو الاقتصادى ومن ثم لابد من الترحيب بزيادة مستمرة فى الأرباح وادعوا بأنها ستسهم تدريجيا وبعد فترة زمنية قد تطول فى تحسين أحوال الفقراء.

وقد أثبت الواقع الملموس فساد هذا التفكير فساداً مطلقاً حتى تخلت عنه قلعتا الفكر الليبرالى : البنك الدولى وصندوق النقد الدولى. وقد جعل البنك الموضوع الأساسى لتقرير التنمية فى العالم ٢٠٠٠/٢٠٠١ «شن هجوم على الفقر». وبيانات البنك تؤيد ما ظهر قبلها من دراسات متعددة وقياسات متنوعة. ونذكر منها :

. فى توزيع مجموع سكان العالم الذى كان فى بداية القرن الحالى ٦,١ مليار نسمة، ومجموع سكان الدول ذات الدخل العالى ٩٥٥ مليونا. وسكان بقية العالم (الدخل المنخفض والمتوسط) ٥,٢ مليار أى ٨٣,٨٪، والباقى ١٦,٢٪ يعيشون فى دول عالية

الآن مازالت قوى الغرب الاستعمارى بأجهزة مخابراته، وعن طريق رجال أعمال تنشئ شركاتهم فروعا فى القارة السمراء، وبشراء ذمم قادة وحكام غارقين فى الفساد والجهل، الجهة التى تغذى نيران الحروب فى معظم أجزاء أفريقيا



الدخل. ومتوسط دخل الفرد عندهم ٢٥٧٠٠ دولار، مقابل ٤٣٠ في الدول ذات الدخل المنخفض، ٢٠٠٠ عند ذات الدخل المتوسط الأدنى، ٤٩٠٠ عند المتوسط الأعلى.

– في توزيع إجمالي الناتج القومي للعالم كله نجده في نهاية القرن الماضي ٣١,٥٠٠ مليار، وأن أربعة أخماسه (٢٥,٥٠٦ مليار) من نصيب ١٦,٥٪ من البشر في حين أن أكثر من أربعة أخماس البشر يحصل على ٥,٩٩٥ مليار. والجديد في عصر الكوكبة هو تزايد أعداد الفقراء في الدول الصناعية المتقدمة ذات متوسط دخل الفرد يقارب ٣٠ ألف دولار. فمن المعلن والمعروف أن الفجوة بين دخول حوالي ١٠٪ من أصحاب أعلى الدخول وحوالي ٢٠٪ من أصحاب أدناها لم تكن يوما في الولايات المتحدة أوسع مما هي عليه الآن.



ومما هو أقل ذيوعا حقيقة أن ٥٪ من أفقر الفقراء (دخل أقل من دولار واحد في اليوم، وعددهم ١,٤ مليار نسمة) هم من سكان الدول مرتفعة الدخل. فالشاب الألماني أو البريطاني أو الفرنسي الذي يتخرج من التعليم العالي ولا يجد أي عمل محروم من كل ما تقدمه نظم التأمين الاجتماعي. فمن تزيد سنه على ١٨ سنة يخرج من نطاق التأمين الذي يغطي الأسرة، ولا يمكن أن يدخل هذا النطاق إلا إذا وجد عملا يوفر له دخلا يمكنه من سداد اشتراك التأمين الاجتماعي. وقد ذهلت شخصياً في أول زيارة لي لنيويورك حين رأيت من ينامون على الأرصفة في شارع «وول ستريت» قلب التعاملات المالية بالمليارات عبر العالم. ومن أبرز معالم الشركات متعددية الجنسيات فقدها لمعاني الوطنية واستقرار السوق المحلية لدولة المقر. وبحكم امتداد نشاط كل منها في أقطار تعد بالعشرات قد توقف الشركة أنشطتها في دولة المقر (وهي لا تنسب لجنسية) لتفتح أو تغزو أنشطة في دول أخرى حتى ولو كانت بالنسبة لها في أقصى الأرض. ومن ثم لم يعد لحكومة واحدة قوة ضغط تذكر على شركة متعدية الجنسيات. والواقع أن هذه الشركات استغنت عن كثير من وظائف الدولة القومية، بل وانتزعت منها بعض حقوق السيادة التقليدية مثل الحق في إصدار العملة (أو خلق النقود بصفة عامة) واعتمدت التعامل ببطاقات الائتمان المقبولة في معظم الدول (بما في ذلك كثير من بلاد العالم الثالث) ولا يعرف المتعاملون أي بنك مركزي يراقب حركة التعامل.

وقد دفعت عوامل الضعف حكومات الاتحاد الأوروبي إلى التدخل لصالح الشركات الكبرى بدعوى إخراج البلاد من حالة الركود وتراجع معدلات النمو الاقتصادي. وهكذا خفضت أسعار الضرائب المباشرة، وحرصت على تخفيض أسعار الفائدة أحيانا إلى ١٪ بهدف معلن هو تشجيع الاستثمار الذي سيخلق فرص عمل جديدة ويعيد الاقتصاد إلى معدلات نمو معقولة. ولم ينجح أي من هذه الإجراءات في تخفيض حجم البطالة المستقرة (غير العارضة) وظلت معدلاتها تتراوح بين ٦ و١٠٪ من القوى العاملة. واستمرار البطالة يعني تناقص موارد التأمينات الاجتماعية لتراجع أعداد من يدفعون أقساطها من العمال وأصحاب الأعمال. وبدلا من مواجهة هذه الحقيقة استغلت الحكومات العجز في ميزانيات تلك التأمينات لتنتقص من الضمانات التي تقدمها للعاملين ومنها المعاش وتخفيض تكاليف التأمين الصحي. أي أن الثورة العلمية والتكنولوجية لم تقدم للعمال إلا فقدان بعض ما كان حقا لهم منذ ١٩٤٥. والغريب أن كثيراً من الساسة والكتاب يجهلون أو يتجاهلون أن كل تقدم تكنولوجي يعني زيادة إنتاجية العامل وبالتالي تناقص الطلب على عمالة جديدة، بل الاستغناء عن مئات وآلاف من العاملين بالفعل بدعوى إعادة هيكلة الشركة. وكان تحركا في الاتجاه الصحيح ما قررته من حيث المبدأ حكومة اليسار في فرنسا من تخفيض ساعات العمل إلى ٣٥ ساعة أسبوعيا. ولكن الحكومة الحالية بصدد التخلي عن هذا القانون(٥).



يبدأ المجتمع المصري منذ سنوات قليلة الحديث عن «التلوث». ولكنه سيكتشف شيئاً فشيئاً خطر التلوث الكيميائي الذي ينشأ عن استخدام مواد كيماوية كثيرة تضر بالإنسان والحيوان والنبات. وهي تصل إليه في الغذاء والماء والهواء



صوت الجنـــوب

نبدأ بالتذكير بأن منظمة الأمم المتحدة وسابقاتها نشأت في أعقاب حرب ضروس بهدف منع تكرار الحروب وإعلاء مكانة وأساليب حل المنازعات بين الدول بتسوية سلمية، وليس من التجاوز في شيء القول بأنها كسابقاتها أيضاً فشلت في تحقيق هذا الهدف الإنساني العظيم. واختفاء الحرب بين الدول الكبرى (١٦,٤٪ من سكان المعمورة) لا يسوغ بحال إهدار الواقع الدموي الذي يعيشه معظم شعوب العالم. لقد أجهد احصائيو الغرب أنفسهم في حصر عدد ضحايا كل من الحربين العالميتين، ولكن أحدا لم يحاول تعداد قتلى الحروب في العالم الثالث ولا عدد الأطفال المشوهين ولا الأسر المشتتة أو تعيش في العراء. حتى جهاز إحصاء الأمانة العامة للأمم المتحدة لم يطرح الأمر لمجرد البحث والتقدير. ويزيد الطين بلة إن الشركات متعدية الجنسية (ومقارها دول الغرب) والتي تحقق الأرباح بالمليارات لم تفعل شيئا لمقاومة الأوبئة الفتاكة التي تنتشر في الجنوب. ويكفي أن نذكر هنا رقما واحداً : عدد المصابين بمرض فقدان المناعة المكتسب (إيدز) في أفريقيا يتجاوز ثلاثين مليون نسمة مع أن الممارسات الجنسية في القارة السوداء (كما يسميها أهل الغرب أحيانا) ليست بحال أكثر انتشاراً منها في بلاد الغرب البيضاء (أوروبا وأمريكا الشمالية) التي قننت اللواط! بل غدت أفريقيا موطنا لأمراض جديدة ذات طبيعة وبائية : ميكروب السل الذي يقاوم كل أنواع المضادات الحيوية، صنف جديد من الملاريا، داء الأبيولا.. وانفرد الغرب بجنون البقر!.

ويضم نسق الأمم المتحدة أكثر من عشر منظمات متخصصة مستقلة عمليا عن نيويورك. ويشكل مجموع مكونات النسق ومكاتبها الإقليمية أو القطرية واللجان الإقليمية أكبر بيروقراطية عرفها البشر لأنه ثمرة التوفيق بين بيروقراطيات الدول الأعضاء. ودون الحط من قيمة أعمال بعض المنظمات في ظل قيادات معينة (اليونيسيف برياسة الأمريكي جيمس جرانت، الصحة العالمية برياسة الدانمركي ماليهر، برنامج الأمم المتحدة للبيئة برياسة المصري مصطفى كمال طلبه.. على سبيل المثال) يمكن أن نقول أن ما قدمته في مجموعها لأغلبية البشر المحرومة قليل للغاية لا يتناسب مع تكلفة أدائها وعدد موظفيها.

ومحظور على الأمم المتحدة أن تنشغل بتطور الاقتصاد العالمي بمختلف مكوناته. فالاقتصاد في نظر «الدول الصناعية الكبيرة» أخطر بكثير من أن يتدخل فيه كل من هب ودب. وشئونه لذلك محصورة في أيدي الثلاثي الرهيب : صندوق النقد الدولي، البنك الدولي والأفعى الكبرى منظمة التجارة العالمية. ويجمع بينها أنها لم تسمع عن شيء اسمه السيادة القومية للدول الأعضاء فيها أو غير الأعضاء.

وهذا وضع طبيعي. فالدول التي تعيش الحروب والعنف، أو تفتقد الاستقرار السياسي نتيجة لأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة، والتي لا تملك قوت شعبها، ويسود الفساد في إدارتها، لا يمكن أن يظهر لها نفوذ سياسي أو تجدد حضاري ناهيك عن مكانة دولية بل إن الحرب والأوبئة والجوع تهدم بدل أن تنمي.

وقد أقلق ثقل خطى الأمم المتحدة وعجزها عن التصدي لأهم مشكلات البشرية الحالية كثيراً من الأوساط في الغرب. وبلغ الأمر ذروته ببدء التساؤل عن جدوى وجودها ذاته اثر انفراد الولايات المتحدة بكل القرارات الخاصة بالتعامل مع العراق بما في ذلك الغزو والاحتلال وإعادة تشكيل الدولة والمجتمع في قالب ترضى عنه واشنطون. وقد وجدت عدداً من الدول متفاوتة القدر لتمشي في ركابها وأعطت الأمم المتحدة ما يشبه «الاجازة المرضية». ومن قبل ذلك ظهرت أفكار جلها من الجنوب وبعضها من الشمال لعل أهمها ثلاث قضايا : توسيع عدد أعضاء مجلس الأمن الدائمي لعضوية (اليابان، ألمانيا، الهند، البرازيل.. الخ)، وتليها قضية بناء قوة عسكرية دائمة تحت إمرة مجلس الأمن يمكن الاعتماد عليها في التدخل العسكري المشروع وفقا للميثاق بدل الاعتماد كليا على حسن استعداد الدول الغربية عسكريا بالاشتراك في الحرب تحت راية الأمم المتحدة، وثالثتها تتعلق بتوفير سلطة قضائية في

بنيان المنظمة لا تحتاج إلى موافقة الطرفين المتنازعين على الاحتكام إليها (كما هي الحال في محكمة لاهاي)[1] وللقارئ أن يتساءل: لماذا لا تتحرك دول العالم الثالث وهي من ناحية تمثل أكثر من ٧٠٪ من أعضاء الأمم ومن ناحية أخرى تضم الأغلبية الساحقة من الدول «منخفضة الدخل» كما تنص تقارير البنك الدولي السنوية عن التنمية في العالم. ولماذا تترك دولنا نسق الأمم المتحدة بأكمله في قبضة عدد محدود من الدول لا يقضي أمر إلا باتفاقها؟ لا يغني في تفسير هذا السلوك أي شكل من أشكال نظرية المؤامرة أو طغيان الأقوياء الأثرياء أو إمبراطورية الشر التي هي القطب الأوحد. إن قوة الأمم ووضعها تنبع من داخلها. للعوامل الخارجية تأثيرها بلا شك ولكن أي عامل خارجي إذا انتصر مرة فلن ينتصر على طول الخط على شعب يريد الحياة (كما قال الشاعر التونسي). وتاريخيا فيما بعد الحرب العالمية دليل على ذلك. لقد دفع لهيب حركة التحرر الوطني منذ نهاية الأربعينيات من القرن الماضي فكانت باندونج وتحول شعار تصفية الاستعمار القديم colonialism إلى واقع. وكان عام ١٩٧٥ عيداً للتحرر الوطني، فيه هزم شعب فيتنام أقوى جيش في العالم بعد أن هزم الجيش الفرنسي، وفيه نجحت أنجولا وموزمبيقا والرأس الأخضر في الحصول على الاستقلال، وفيه طرح بومدين بصفته رئيس حركة عدم الانحياز عندئذ على الجمعية العامة للأمم المتحدة الدعوة إلى «نظام اقتصادي عالمي جديد». وفي خط مواز للتحرر الوطني كانت بريوني والحركة التي لم تقتصر على الموقف السلبي من الأحلاف العسكرية مع الدول الكبرى وتجاوزته إلى تحرك إيجابي في اتجاه التنمية. وفي المؤتمر الأول للحركة (بلغراد ١٩٦٢) طرح عبد الناصر قضية العلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب مؤكداً أن شعوبنا لا يمكن أن تعيش على «معونات» يقدمها الأغنياء للمتخلفين كل حسب مصالحه وسياسته الراهنة.

وفي يوليو ١٩١٣ اجتمع ممثلو عدد كبير من دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في مصر وأصدروا «بيان القاهرة» تحت شعار التجارة وليس الإعانة، ودعوا الأمم المتحدة إلى تنظيم مؤتمر دولي لمناقشة هذه القضية. واستجابت الأمم المتحدة وانعقد المؤتمر في جنيف في ١٩٦٤ ورأسه د. عبد المنعم القيسوني تقديرا لدور مصر في هذا المسعى، وانتخب أمينا عاماً أستاذ المئات من أساتذة الاقتصاد الأرجنتيني المجدد راؤول بريتش، وانتهى بإنشاء جهاز جديد لهذا الغرض «الانكتاد» UNCTAD. وعقب هذا المؤتمر بقليل نشرت منظمة العمل الدولية اقتراحا باستراتيجية تنمية جديدة تضع في قمة أهدافها «توفير الاحتياجات الأساسية للإنسان». وذاع هذا التقرير وكثرت جولة المناقشات وقد لعب المصري د. عباس عمار (نائب مدير المنظمة في ذلك الوقت) دوراً قائداً في هذا العمل العظيم.



ثم مر حوالي ربع قرن من الأزمات بدول العالم الثالث ترجع لأسباب متعددة ومتنوعة وتختلف حدة ووهنا من منطقة إلى أخرى. ولم يشذ عن القاعدة العامة جزئياً إلا عدد من الدول محدودة عدد السكان غنية بالنفط الذي ارتفعت أسعاره عدة أضعاف بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ في الشرق الأوسط. وانهمرت على تلك الأقطار الصغيرة الحجم أنهار من المليارات. ولكن ليس هنا مكان عرض ونقد السياسات التنموية لها. وفي متوسطات مجموع دول العالم الثالث غير المصدرة للنفط انخفضت معدلات التنمية وانتشر التضخم وتزايد حجم البطالة وتراكمت الديون الخارجية وكان الوجه السياسي لهذه الأوضاع غيبة الديموقراطية وتجذر الفساد وجنوح رؤوس الأموال المحلية للاستثمار في الخارج. والبعد الثالث للأزمة كان تصاعد الصراعات الداخلية بين جماعات مختلفة إثنيا أو لغة أو قليلة العدد نسبيا في الظاهر على الأقل. ويكشف التحليل الدقيق لهذه الصراعات التي هوت إلى مستوى الحرب الأهلية والمذابح الجماعية عن جذور اقتصادية واجتماعية وسياسية في مقدمتها التفاوت الشنيع بين الدخول، والإثراء غير المشروع واستخدام الدولة وأجهزتها في تحقيق منافع لناس دون آخرين.. ثم كانت الصدمة الكبرى بانهيار الاتحاد السوفيتي وتساقط حكومات دول أوروبا الشرقية المرتبطة به. وقد سارعت نظم الحكم في العالم الثالث التي كانت تظهر الود لموسكو وتنعم بمساعداتها (وقد تورط الاتحاد السوفيتي في مساندة نظم فاسدة أو عاجزة لمجرد أنها ليست خاضعة لأمريكا، كما كانت واشنطون تبدي نفس المودة لمن يعلن معاداته للشيوعية..!). وكان موطن العجز لدى كثير من حكام العالم الثالث هو فقدان الثقة في شعوبهم وقدرتها على العمل والتعلم والإنتاج، ومن ثم فلابد من عون خارجي. ولا ينتظر عون من دولة تنهار، وبالعكس (من يمشي مع السعيد يسعد) كما يقول مثل شعبي. وكان ملف حسن النوايا الذي يقدم استجداء لعطف واشنطون يتضمن الخضوع الكامل لما يطلبه صندوق النقد الدولي والبنك الدولي: والخصخصة والسعي للاعتماد الكامل على تدفق الاستثمار الأجنبي حامل رأس المال وحسن الإدارة والتكنولوجيا المتقدمة في تنمية الاقتصاد المحلي وتوابع هذا القول الاجتماعية والثقافية حتى تقبل البلد في قطار الكوكبة والثورة العلمية والتكنولوجية فائق السرعة. ولست بحاجة إلى أي تفصيل فنحن جميعا نرى ما يجري حالياً في الوطن العربي: فأقطارنا في مجموعها تشكو من البطالة والأمية والتضخم والعجز المتزايد في كل من ميزانية الدولة وميزان المدفوعات، وتنديد إعلامي وسياسي بحضارتنا واستهانة كاملة بقدرتنا، ووصلنا إلى مرحلة الغزو والاحتلال والمزيد من التفتت والإطاحة بحكام والإتيان بغيرهم دون أن يهتم أحد برأي المواطنين أو مشاعرهم وعقائدهم.

ولكن السنوات الأخيرة شهدت أضواء تشق الظلام الذي يخيم على العالم الثالث. وأول علامة مبشرة جاءت من دراسة أجرتها في أوائل التسعينيات من القرن الماضي «منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية» OECD التي تضم الدول الصناعية وفي مقدمتها السبع الكبار: الولايات المتحدة، اليابان، ألمانيا، بريطانيا، فرنسا، كندا، إيطاليا، عن أوضاع الاقتصاد العالمي في ٢٠٢٠ واستخدمت فيها كل الأساليب المعلوماتية الحديثة وانتهت إلى ظهور خمس دول عظمى جديدة إلى جوار السبع القائمة بالفعل، وهي: روسيا الاتحادية، الصين، الهند، إندونيسيا والبرازيل. وتقدم الهند المذهل يفسره أساساً نظام الديموقراطية البرلمانية والقبول بالتعددية في كل شيء. في حين شهدت كل من البرازيل وإندونيسيا من عوامل تخفض معدلات النمو وعجز التنمية عن تحسين مستوى معيشة الجميع. وكان مرد ذلك فترات الدكتاتورية العسكرية الطويلة وما ارتبط بقيامها واستمرارها ثم سقوطها من صراعات متنوعة. ومن السمات المميزة لهذه الدول الثلاث اتساع الإقليم وكثرة عدد السكان والقدرة على الوصول إلى معدلات نمو مرتفعة في سنوات كثيرة وإن لم تكن متتالية إلا في الهند. ومن الناحية النظرية في وسع العرب أن يحتلوا مكانا إلى جوار دول العالم الثالث المذكورة لو أخذوا بطريق التنمية التكاملية الذي لا يشقه إلا مجتمع ديموقراطي إلى أوسع حدود الديموقراطية، منذ البداية وفي كل خطوة وعبر كل المراحل. وأخيراً ثمة مجالات نجاح كبير وإن كان غير كامل وليس ثمة ما يضمن اطراده في دول أصغر حجماً بكثير من الثلاثي الذي يحتوي ١٤١٩ مليون نسمة.

والقبس الثاني يأتي من انتشار العلم وتملك أحدث تقنيات الإنتاج. وتنتصب الهند على رأس المتقدمين. فهي تتساوى مع معظم الدول الصناعية في مجال المعلوماتية والاتصالات. ومن أدلة هذا التفوق نسوق: الهند ثاني مصدر في العالم للبرمجيات (ما قيمته ٧ مليارات دولار في ٢٠٠٢)، تعاقد البنك الدولي مع شركة هندية في بومباي على معالجة كل حساباته. طلب المستشار الألماني شرودر من



دفعت عوامل الضعف حكومات الاتحاد الأوروبي إلى التدخل لصالح الشركات الكبرى بدعوى إخراج البلاد من حالة الركود. وهكذا خفضت أسعار الضرائب المباشرة، وحرصت على تخفيض أسعار الفائدة بهدف معلن هو تشجيع الاستثمار الذي سيخلق فرص عمل جديدة ويعيد تنشيط الاقتصاد



البرلمان ترخيصاً استثنائيا بدخول ألمانيا والاستقرار فيها لعشرين ألف مبرمج ومبرمجة من الهند. وفي مجال الاتصالات للهند سبعة أقمار صناعية لكل منها مهمة (رسم الحدود الجغرافية، نقل المواد العلمية إلى المدارس النائية، متابعة الأحوال الجوية.. الخ)، وتملك البرازيل عناصر قوة مهمة. فنسبة الأمية فيها ١٥٪ فقط. وتصل إنتاجية العامل الزارع فيها إلى أربعة آلاف دولار. كما تمثل صادرات المنتجات الصناعية ٥٩٪ من إجمالي الصادرات، منها ١٩٪ من منتجات التكنولوجيا الرفيعة. وفي إندونيسيا تبلغ تلك النسب على التوالي ٥٧٪ منتجات صناعية و١٦٪ منتجات تكنولوجيا دقيقة. تلك أمثلة لقفزات تنموية حقيقية يغطى مردودها (بدرجات متفاوتة) عشرات الملايين من المواطنين. ومن السخف الخالص أن يقارن البعض عندنا بين مصر وسنغافورة داعيا لتحويل الوطن كله إلى قطر مفتوح (وينسى فشل تجربة بور سعيد) ومن تستهويه المقارنة يمكن أن يفحص أحوال إمارة دبي بجمهورية سنغافورة. أما مقارنة مجموع الأقطار العربية (٢٧٠ مليونا) فتكون مع واحدة من الثلاث الكبار.

ولكن الشعاع الذي اخترق الدجى مبشراً بفجر قريب هو بداية ترتيب حركة جماعية لدول العالم الثالث توائم أوضاع العالم الحالية وتركز جهودها على حصول شعوبها على نصيب منصف من الناتج العالمي في مواجهة طغيان وجشع الرأسمالية العالمية في عصر الكوكبة، وقد تجسد هذا التوجه في أمرين بالغى الأهمية. الأول: الاتفاقية التي وقعتها الهند وجمهورية جنوب أفريقيا والبرازيل للعمل سويا على جمع دول العالم الثالث الأعضاء في منظمة التجارة العالمية للتصدي لسيطرة الدول الغربية على سلطة تحديد قواعد التجارة الدولية الحرة: تحتفظ لنفسها بما تشاء (دعم الزراعة) وتحرم بقية العالم من يدعم زراعة الكفاف ليبقى سائلا عن معونات غذائية من الشمال؛ تطبق على صادرات العالم الثالث الشروط الصحية والبيئية القاسية وتصدر لنا الملوث ومنتهي الصلاحية والسيارات المستعملة والمسروقة. وليس فيما أقول بلاغة إنشائية لأن لدى الوقائع الموثقة على كل ما قلت ولكن لا يتسع المجال لتفصيلها هنا. والأمر الثاني نجاح تجمع من عشرين دولة من الجنوب (وانضمت إليها الصين) في رفض اتفاقية الاستثمار التي كانت دول الشمال تحرص عليها كل الحرص وانفض مؤتمر كانكون الذي دعت إليه منظمة التجارة العالمية عاجزاً عن إصدار أي قرار أو حتى توصية.. ويضاف إلى ذلك أن اتفاقية الثلاث تدعو إلى تعظيم التعاون بين دول الجنوب في كل المجالات الإنمائية وبصفة خاصة في الحرب ضد الفقر والجهل والمرض. وأخيراً، وليس ذلك أقل الأمور أهمية، هو الدور النشيط الذي يلعبه رئيس البرازيل. فقد أخفقت الجهود التي بذلتها حركة تصفية الاستعمار ثم حركة عدم الانحياز في الحصول على دور فاعل من أمريكا اللاتينية. كما ماتت في المهد حركة «القارات الثلاث» التي تصدر العمل من أجلها الشهيد العربي الكبير المهدي بن بركة ولم تحصل على تأييد كامل إلا من كوبا. وما أقدم عليه «لولا» يعكس تغيراً سياسياً عميقاً في بلاده أوصله وهو عامل ونقابي مناضل دون حزب سياسي إلى منصة الرئاسة التي كانت حكراً على أبناء الطبقة العليا المعتزين بأصولهم الأوروبية وبما يملكون من مساحات شاسعة من الأرض الزراعية latifundia . لقد عشنا طويلا على التضامن الأفرو أسيوي ونحن نشهد الآن تضامنا على مستوى القارات الثلاث. ومن أبرز معالم هذه الظاهرة توجه البرازيل نحو العرب، والدفاع عن حقوق الفلسطينيين، وزيارة لولا لأهم البلاد العربية (التي مرت غير ملحوظة في مصر) ودعوة الرئيس البرازيلي لمؤتمر عربي. أمريكي لاتيني وطلب فتح مكتب للجامعة العربية في العاصمة برازيليا.

وأرى أن تضع الحركة الجديدة في رأس جدول أعمالها تطوير الإطار المؤسسي للجماعة الدولية. لقد كانت كل المنظمات التي أشرنا إليها من صنع الدول الغربية. وحتى هذه اللحظة تصدر هنا وهناك اقتراحات بإصلاح قطعة من هذه الآلة العملاقة. وتتركز أهم مطالب الجنوب على ضرورة وجود عضو دائم في مجلس الأمن من دول الجنوب / ثم تثور الخلافات حول اختيار عضو واحد من العالم الثالث كله أو عضو من كل قارة من القارات الثلاث. وهنا تشتد المنافسة حول من يمثل هذه القارة أو تلك.. الخ.

وأدعو لجنة الثلاث إلى أخذ المبادرة بيد دول الجنوب. وأن تجمع خبرات متنوعة من أهله لوضع تصور شامل لمنظمة جديدة مهيأة للتعامل مع قضايا القرن الحادي والعشرين، وليس مجرد منع الحروب وإقرار سياسة التسوية السلمية. وفيما يلي بعض القضايا المهمة التي يجب أن تتصدر أهداف المنظمة الجديدة:

(١) الحروب الأهلية والإقليمية: الأسباب وسبل معالجتها، والآليات التي تصلح لهذه المهمة. ومن العبث أن تنجح في وقف حرب أهلية استمرت عدة سنوات وتترك المجتمع في حال أسوأ بكثير مما كان عليه قبل الحرب ولذا يجب أن يتلو الحرب فترة تنمية شاملة ومطردة وذات معدلات عالية وكذلك حكم ديموقراطي. ويجب بث روح التعاون والتكامل بل والوحدة بين الدول المتجاورة.

(٢) الحملات المنظمة لإخراج المليارات من البشر الذين يعانون الفقر والجهل والمرض والقهر السياسي والعسكري والتدخل الأجنبي، من أوضاع الحرمان المطلق والإذلال المؤبد ليتحقق الحد الأدنى من المساواة بين البشر.

(٣) قضايا البيئة العامة (أزمة المياه، أزمة زراعة الأغذية، ارتفاع حرارة الجو، طفح البحار على أراضي مأهولة الآن) وقضاياها الإقليمية (مثل التصحر) أو المحلية (التلوث بانبعاثات محلية).

(٤) مشكلات الطاقة بإساءة الاستخدام والحرمان الكامل في آن (في التجمعات السكانية المحرومة من الكهرباء) وضرورة الاستثمار بكثافة حيث لا يتصور أن يمول ملوك النفط والغاز طاقات منافسة لما يبيعون أي الطاقات النظيفة.

(٥) تخفيض الإنفاق العسكري وتحويل جزء كبير منه إلى التعليم والصحة.

(٦) مقاومة الجريمة المنظمة: تجارة المخدرات، الرشوة الدولية، غسيل الأموال غير المشروعة الاتجار في البشر وبصفة خاصة النساء والأطفال.

والقائمة طويلة وهي من بنات أفكار فرد لا يدعى إطلاقا القدرة على حصر مشكلات العالم.

وأخيراً يجب أن يدخل في اهتمامات المنظمة الجديدة بعض الأنشطة غير الحكومية وبصفة خاصة: سياسات الشركات متعدية الجنسية التي تشكل نوعاً من السلطة فوق القومية لا يوازنها سلطة سياسية كما هي الحال في الدول القومية من ناحية، والنشاط الأهلي المعادي للغزو والحرب وللكوكبة الرأسمالية من الناحية الأخرى. وبفضل ثورة المعلومات والاتصالات اكتسبت حركات الدفاع عن البيئة وعن حقوق الإنسان وعن السلام ومناصرة الفقراء والمحرومين.. الخ طابعاً عالمياً سجل مواقف تاريخية يكفي أن نذكر منها تشتيت اجتماع سياتل لمنظمة التجارة العالمية، ومظاهرات ١٥ فبراير ٢٠٠٣ ضد غزو العراق التي لم تخل دولة منها. ■



في متوسطات مجموع دول العالم الثالث غير المصدرة للنفط انخفضت معدلات التنمية وانتشر التضخم وتزايد حجم البطالة وتراكمت الديون الخارجية وكان الوجه السياسي لهذه الأوضاع غيبة الديموقراطية وتجذر الفساد وجنوح رؤوس الأموال المحلية للاستثمار في الخارج

هوامش:

(١) العولمة «خطأ فادح في اللغة العربية فالصيغة مشتقة من كلمة عالم بفتح اللام وجمعه عالمون ولا صلة له بفعل علم يعلم فهو عالم بكسر اللام. وهو اسم مكين أي غير مشتق من فعل معين.

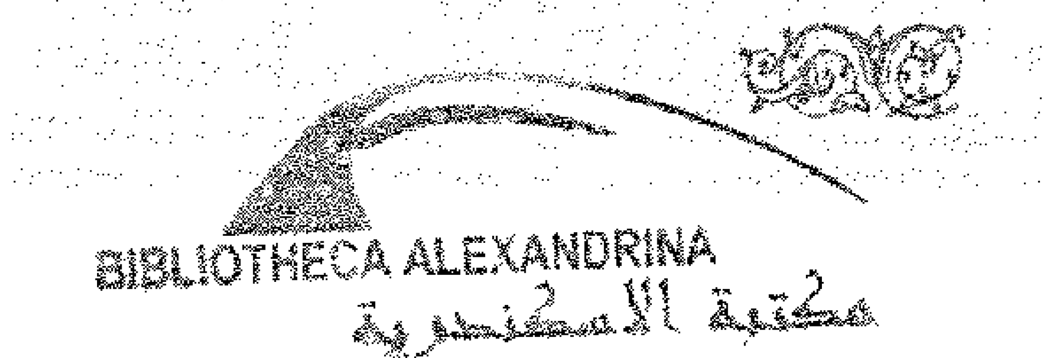
(٢) في التجمعات الدولية الحكومية أو الأهلية حتى الآن ينقسم الأفارقة السود إلى مجموعتين: Fransophon, Anglophone

(٣) على اسم Sir John Cecil Rhodes الذي توصل إلى جمع الجزء الجنوبي من أفريقيا على اختلاف عرقياته ودياناته تحت التاج البريطاني (١٨٥٣ - ١٩٠٢).

(٤) انظر: د. عصام الحفناوي: «قضايا البيئة والتنمية في مصر، الأوضاع الراهنة وسيناريوهات مستقبلية، مكتبة «مصر ٢٠٢٠»، الناشر

(٥) انظر في اتجاه مختلف: World Bank: Globalization, Growth and Poverty Building an Inclusive Society ٢٠٠٣

(٦) انظر عرضاً علمياً ونقدياً للأفكار الإصلاحية
Brian Urquhart: Between Sovereignty and Globalization where Does the United Nations fit in Development dialogue, 2000: 1-2





عندما تصبح المرأة عجوزا

ج.م. كوتسي

▪ تزور ابنتها الآن فى نيس، زيارتها الأولى لها منذ سنوات. سوف يطير ابنها من الولايات المتحدة ليقضى بضعة أيام معهما، فى طريقه إلى مؤتمر من تلك المؤتمرات التى يحضرها. يروق لها هذا التصادف فى المواعيد. تتساءل إن كان ثمة تواطؤ من نوع ما، أو خطة ما يدبرانها، أو اقتراح يعرضانه عليها، من تلك النوعية من الاقتراحات التى يطرحها الأبناء على أمهاتهم عندما يشعرون أنهن لا يستطعن الاعتناء بأنفسهن. عنيدة للغاية، سيقول أحدهما للآخر: عنيدة للغاية، صعبة المراس للغاية، شديدة التشبث برأيها. كيف سنتغلب على عنادها ما لم نتعاون معاً؟

يحبانها بالطبع، وإلا ما كانا ليحيكان الخطط لأجلها. ومع ذلك تشعر وكأنها أحد الأرستقراطيين الرومان، ينتظر أن يعطى الشراب القاتل، ينتظر أن يقال له بأكثر السبل تعاطفاً وبعثاً على الثقة أنه من أجل الصالح العام عليه أن يتجرعه دون جلبة.

لقد كان ابنها وابنتها دائماً طيبين ومطيعين مقارنة بالأبناء عموماً. أما إذا كانت هى كأم على نفس القدر من الطيبة والالتزام بواجباتها فتلك مسألة أخرى. ولكننا لا نحصل دائماً فى هذه الحياة على ما نستحقه. فطفلاها عليهما الانتظار حتى حياة أخرى، أو تجسد آخر، إذا أرادا أن تتعادل الكفتان.

تدير ابنتها جاليرى للفن فى نيس. وهى الآن من الناحية العملية تحمل الجنسية الفرنسية. أما ابنها، فمع الأخذ فى الاعتبار زوجته الأمريكية وأولاده الأمريكيين، فسرعان ما سيصبح من الناحية العملية أمريكياً. وهكذا عندما هجرا العش، طارا بعيداً. بل قد نظن، إذا تأملنا الأمر بصورة أفضل، أنهما طارا بعيداً ليبتعدا عنها.

أياً كان الاقتراح الذى سيعرضانه عليها، من المؤكد أنه ملىء بالمتناقضات: الحب والرجاء من جانب، وقسوة القلب العملية من جانب آخر، والرغبة فى رؤية نهايتها. حسناً، يجب ألا تزعجها المتناقضات. لقد كانت تتعيش من المتناقضات. أين كان المآل سينتهى بالفن القصصى لو لم تكن هناك معان مزدوجة؟ ما الذى كانت ستنتهى إليه الحياة نفسها لو كان هناك أبيض وأسود فقط ولا شىء بينهما.

«ما أراه غريباً، وأنا أتقدم فى العمر»، تقول لابنها، «إننى أسمع كلمات تخرج من بين شفتى اعتدت أن أسمعها من العجائز وكنت أقسم لنفسى أننى لن أتفوه بها ما حييت. أشياء من قبيل ما الذى جرى فى الدنيا. على سبيل المثال لم يعد أحد يعى الأخطاء النحوية التى ترتكب فى تصريف الأزمنة. ما الذى جرى فى الدنيا؟ يسير الناس فى الشارع وهم يأكلون البيتزا ويتحدثون فى التليفون. ما الذى جرى فى الدنيا؟»

إنه يومه الأول فى نيس، ويومها الثالث: يوم من أيام يونيو الصافية الدافئة، تلك الأيام التى تجتذب كسالى الإنجليز المترفين خاصة إلى تلك البقعة من الساحل. انظر ها هما، كلاهما، يتمشيان فى بروميناد ديز انجليز (متنزه الإنجليز) كما كان يفعل الإنجليز منذ مائة عام وهم يحملون مظلاتهم وقبعاتهم، ويأسون لجهود السيد هاردى الأخيرة، ويأسون للبوير.

«بأسى» تقول: «كلمة لا يسمعها المرء كثيراً هذه الأيام. لا يوجد أى شخص على قدر من العقل يأسى، إلا إذا كان يود أن يجعل من نفسه أضحوكة. الأسى كلمة ممنوعة، وسلوك ممنوع. إذن ما الذى يمكن عمله؟ هل على المرء أن يكبت أساه حتى يصبح وحده مع العجائز من أمثاله ثم يطلق له العنان؟»

«يمكنك أن تعبرى عن أساك معى إنما المشى والأكل والكلام فى نفس الوقت هو ما أجده فجاً».

«أوافقك الرأى، هذا فج أو على الأقل غير راق. وماذا غير ذلك؟»

«يكفى هذا. ما آسى له ليست له أهمية فى حد ذاته. المهم هو أننى أقسمت منذ سنوات أننى لن أفعله، وها أنا أفعله. لماذا استسلمت فى آخر المطاف؟ إنى آسى لما آلت إليه الدنيا. إننى آسى لمسار التاريخ. آسى له من كل قلبى. ومع ذلك عندما أنصت لنفسى، ماذا أسمع؟ أسمع أمى تأسى للتنورة القصيرة، وتأسى للجيتار الكهربائى. وأتذكر حنقى «نعم يا أمى» كنت أقول لها، كنت أجز على أسنانى وأرجو منها أن تغلق فمها. وهكذا...».

«وهكذا تظنين أننى أجز على أسنانى وأطلب منك أن تغلقى فمك».

«نعم».

«أنا لا أفعل ذلك. من المقبول جداً أن تأسى لما يجرى فى الدنيا. أنا نفسى آسى له فى دخيلتى».

تفهم. إنك تظن إننى أسخر من نفسى بينما لا أفعل ذلك. المسألة شديدة الجدية! هل تفهم أنها يمكن أن تكون شديدة الجدية؟».

«بالطبع أفهم. فأنت تعبرين عن نفسك بوضوح شديد».

«ولكنى لا أفعل! لا أفعل! هذه مجرد كلمات، وكلنا سئمنا الكلمات الآن. الطريقة الوحيدة المتبقية لكى تثبت أنك جاد هى أن تتخلص من نفسك. أن تسقط على سيفك. أو تطلق الرصاص على رأسك. ومع ذلك فبمجرد أن أتفوه بالكلمات ترغب أنت فى الابتسام. أعرف. لأننى لست جادة، لست جادة بالكامل - إننى عجوز بدرجة لا يمكن أن أكون معها جادة. أقتل نفسك فى سن العشرين فتكون خسارة مأساوية. أقتل نفسك فى سن الأربعين فتكون المسألة تعليقاً جاداً على ما يجرى فى الدنيا. ولكن أقتل نفسك فى سن السبعين سيقول الناس، «يا للعار، لابد أنها كانت مصابة بالسرطان».

كيفما شئت، يا أمى»، يقول لها جون، ابنها الطيب المطيع. «سوف أومئ برأسى متعاطفاً ولن أسخر منك. ما الذى تودين أن تأسى له اليوم بجانب البيتزا.؟»

«إننى لا آسى على البيتزا، فالبيتزا طيبة ولا بأس بها فى مكانها المناسب،

«إنها التفاصيل يا جون، التفاصيل! إننى لا آسى للتاريخ برمته، بل للتفاصيل - السلوكيات السيئة، والنحو السيئ والصوت العالى! مثل هذه التفاصيل التى تخنقنى هى التى تدفعنى لليأس. غير مهم على الإطلاق. غير مهم على الإطلاق! هل تفهم؟ من المؤكد إنك لا

«لكنك لم تهتمى أبداً بما يقوله الناس».

«لم أهتم أبداً بما يقوله الناس لأننى كنت أؤمن دائماً بكلمة المستقبل. فالتاريخ سوف يؤيدنى - ذلك ما كنت أقوله لنفسى. لكننى أفقد إيمانى بالتاريخ، بالصورة التى أضحى عليها التاريخ اليوم. أفقد إيمانى بقدرته على إظهار الحقيقة».

«وما الذى أضحى عليه التاريخ اليوم، يا أمى؟ وما دمنا بهذا الصدد، هل تسمحين لى أن أقول بأنك ناورت معى فى الكلام حتى وجدت نفسي مرة أخرى فى موقف الرجل المستقيم أو الولد المستقيم، وهو وضع لا أستمتع به بشكل خاص».

«أنا متأسفة، أنا متأسفة. هذا من جراء العيش وحدى. معظم الوقت يتحتم على أن أدير تلك الحوارات فى ذهنى، إنه نوع من الترويح عن النفس أن آتى بأشخاص أستطيع أن أتحاور معهم».

«متحاورون. وليس أشخاص. متحاورون».

«متحاورون أستطيع أن أتحاور معهم».

«تجعلينهم يتحاورون على هواك».

«متحاورون أجعلهم يتحاورون على هواى. أنا متأسفة، سأكف عن هذا الحديث. كيف حال نورما؟».

ولد جون ماكسويل كوتسى عام ١٩٤٠ فى مدينة «كيب تاون» بجنوب أفريقيا لوالدين من أصول إنجليزية وبويرية مختلطة. وعلى الرغم من اهتمامه المبكر بالأدب والشعر، إلا أنه امتهن برمجة الحاسبات الآلية فى أوائل الستينيات إلى أن اتجه إلى دراسة الأدب وتدريسه فى جامعات بريطانيا وأمريكا وجنوب أفريقيا.

صدرت أولى روايات كوتسى عام ١٩٧٤، ولكن شهرته الدولية تحققت عام ١٩٨٠ من خلال روايته «فى انتظار البرابرة». وهو يعد الأديب الوحيد الذى فاز بجائزة بوكر البريطانية مرتين، الأولى عام ١٩٨٣ عن رواية «زمن مايكل ك»، والثانية عام ١٩٩٩ عن رواية «العار».. ندد كوتسى من خلال رواياته بشرور سياسة الأبارتهايد التى سادت فى وطنه، كما يعرفه العرب بدفاعه عن الشعب الفلسطينى ضد السياسات الإسرائيلية، وتأييده لقيام الدولة الفلسطينية.

فى ديسمبر الماضى، منحت أكاديمية نوبل ج.م.كوتسى جائزة نوبل فى الآداب لعام ٢٠٠٣ مشيدة بخصائص رواياته التى تتسم بالبناء المحكم وثراء الحوار، والتحليل الذكي، كما أشادت بنقده اللاذع للحضارة الغربية فى قسوة عقلانيتها وفراغ أخلاقياتها التى تتجمل بها.

ترجمة: هانى حلمى حنفى

نيويورك ريفيو أوف بوكس

«نورما بخير. وترسل تحياتها. والأولاد على ما يرام. ما الذى آل إليه التاريخ؟»

«لقد فقدت ربة التاريخ صوتها. فـ كليو، التى كانت فى سالف الزمان تعزف على قيثارتها وتصدح متغنية بأعمال العظماء من الرجال، أصبحت ضعيفة وتافهة، كأسخف عجوز من العجائز. على الأقل هذا ما أظنه فى بعض الأوقات. أما بقية الوقت فأظن أنها وقعت أسيرة فى قبضة عصابة من السفاحين يعذبونها ويجعلونها تقول أشياء لا تعنيها. لا يمكن أن أفضى إليك بكل الأفكار السوداء التى تنتابنى بشأن التاريخ. لقد أصبح هاجساً».

«هاجساً. هل يعنى هذا أنك تكتبين عنه؟»

«لا، لا أكتب. لو كنت أستطيع الكتابة عن التاريخ لكنت فى طريقى الآن للتمكن منه. لا، كل ما أستطيع عمله هو أن أنفس عن غضبى إزاءه، أنفس عن غضبى وأسى. آسى لنفسى أيضاً. لقد وقعت فى حبائل مقولة مبتذلة، ولا أعتقد أن التاريخ سيستطيع تغيير تلك المقولة المبتذلة».

«أية مقولة؟»

«لا أريد أن أخوض فى ذلك، إنه مما يبعث على الاكتئاب بشدة. إنها تلك المقولة المبتذلة عن الاسطوانة المشروخة، التى لا تصدر صوتاً له معنى لأنه لا يوجد إبر للجرامافون، هذا أن كان هناك جرامافون أصلاً. الكلمة التى يتردد صداها فى أذنى من جميع الأرجاء هى كلمة «كئيب». رسالة ربة التاريخ للعالم كئيبة بلا رحمة. ما الذى تعنيه كلمة كئيبة؟ إنها كلمة تطلق على مشهد شتائى لكنها غدت مرتبطة بى على نحو ما. كأنها كلب هجين صغير يتبعنى، لا يكف عن النباح، ولا يمكن التخلص منه. إنه يقفو أثرى. وسوف يطاردنى حتى القبر. وسوف يقف على شفا القبر محملقاً وينبح كئيبة، كئيبة، كئيبة!»

«إذا لم تكونى أنت الكئيبة، إذن من أنت، يا أمى؟»

«أنت تعرف من أنا يا جون».

«بالطبع أعرف. ومع ذلك فلتنطقى بها. انطقى الكلمات».

«أنا من اعتادت أن تضحك ولكنها كفت عن ذلك. أنا من تبكى».

ابنتها هيلن تدير جاليرى للفن فى المدينة القديمة. ويعتبر الجاليرى بكل المعايير ناجحاً نجاحاً كبيراً. هيلن لا تمتلكه. لكنها تديره لحساب مالكين سويسريين ينزلان من عرينهما فى برن مرتين فى العام لمراجعة الحسابات ووضع الأرباح فى جيوبهما.

هيلن، أو هيلين (كما تنطق مشددة بالفرنسية) تصغر جون عمراً لكنها تبدو أكبر. حتى عندما كانت طالبة كانت لها سمات النساء فى منتصف العمر، بتنانيرها المنسابة ونظاراتها المستديرة كعين البومة وشعرها المعقود للخلف. ذلك النمط من النساء الذى يوسع له الفرنسيون الطريق ويولونه الاحترام:

«كيف تودين أن تعيشى هنا، يا أمى؟» قالت هيلن على حين غرة.

«هل تقصدين هنا فى الجبال؟»

«لا، أقصد هنا فى فرنسا. فى نيس. هناك شقة فى المبنى الذى أقطنه ستكون شاغرة فى أكتوبر. يمكن أن تشتريها، أو نشتريها مشاركة. فى الطابق الأرضى».

«هل تريدين أن نعيش معاً، أنت وأنا، هذه مفاجأة، يا عزيزتى. هل أنت واثقة أنك تعنين ما تقولين؟»

«لن نقيم معاً باستمرار. فسوف تكونين مستقلة تماماً. ولكن فى حالة حدوث أى طارئ سوف يكون لديك شخص تتصلين به».

«شكراً لك يا عزيزتى، ولكن لدينا أناساً طيبين جداً فى ميلبورن مدربين على التعامل مع العجائز فى طوارئهم الصغيرة».

«من فضلك يا أمى، فلنكف عن الألاعيب. أنت فى الثانية والسبعين. ولديك مشاكل فى القلب. ولن تكونى قادرة دائماً على الاعتناء بنفسك. لو.......»

«لا تقولى المزيد، يا عزيزتى. أنا واثقة أنك مثلى تجدين الألفاظ اللطيفة المخففة بغيضة إلى النفس. يمكن أن ينكسر حوضى، أو أتعثر فى المشى، ويمكن أن أظل طريحة الفراش لسنوات: هذا صراحة هو ما نتحدث عنه. إذا ما سلمنا بإمكانية حدوث مثل هذه الأشياء، السؤال بالنسبة لى: لماذا أفرض على ابنتى عبء رعايتى؟ والسؤال بالنسبة لك على ما أظن هو: هل ستقدرين على العيش مع نفسك إذا لم تقدمى لى الرعاية والحماية بكل إخلاص ولو لمرة واحدة ؟ هل أعبر عن الأمر بشكل واضح، عن مشكلتنا، مشكلتنا المشتركة؟»

«نعم. اقتراحى يحدوه الإخلاص. وهو عملى أيضاً. فقد ناقشته مع جون».

«لذا دعينا لا نفسد هذا اليوم الجميل بالدخول فى مشاجرة. لقد قدمت اقتراحك، وقد سمعته وأعدك بأنى سأفكر فيه. ولنترك الأمر عند هذا الحد. إمكانية أن أقبل ذلك ضعيفة للغاية، ومن المؤكد أنك خمنت ذلك. أفكارى تسير فى اتجاه آخر تماماً. هناك شىء يجيده العجائز أكثر من الشباب وهو الموت. جدير بالعجائز (يا لها من كلمة غريبة!) أن يمتن بصورة لائقة، لكى يرين من يأتون بعدهن كيف تكون الميتة اللائقة. هذا هو ما يتجه له تفكيرى. أود أن أركز على الموت ميتة لائقة».

«يمكنك أن تموتى ميتة لائقة فى نيس كما فى ميلبورن».

«ولكن هذا ليس صحيحاً، يا هيلن. فكرى فى الأمر ملياً ولن تجديه صحيحاً. اسألينى عما أعنيه بميتة لائقة».

«ما الذى تعنيه بميتة لائقة يا أمى؟»

عندما تصبح المرأة عجوزا

«الميتة اللائقة هى التى تحدث بعيداً، حيث يتم التخلص من بقايا الميت على يد الغرباء، أى من يعملون بمهنة الموت. الميتة اللائقة هى التى تعلمين بها عن طريق التلغراف: يؤسفنا أن ننعى لكم، إلخ. يا للأسف لم تعد التلغرافات شائعة الآن».

أصدرت هيلن شخرة محنقة. وواصلا الطريق فى صمت. خلفا نيس بعيداً وراءهما: وعلى طريق خال هبطا إلى واد طويل. كان الفصل صيفاً من حيث الاسم فقط لأن الهواء كان بارداً، وكأن الشمس لم تمس تلك الأعماق أبداً. كانت ترتعش، فأغلقت زجاج السيارة. بدا الأمر وكأن السيارة تسير فى أمثولة ذات مغزى!

«ليس لائقاً أن تموتى بمفردك»، نطقت هيلن أخيراً، «دون أن يمسك يدك أحد. هذا غير اجتماعى. غير إنسانى. ولا يعبر عن الحب. فلتغفرى لى كلماتى ولكنى أعنيها. أنا أعرض عليك أن أمسك يدك. أن أكون معك».



من بين طفليها كانت هيلن دائماً الأكثر تحفظاً، والأكثر ابتعاداً عن أمها. لم تتحدث هيلن على هذا النحو من قبل على الإطلاق. ربما جعلت السيارة الأمر اكثر سهولة، لأنها تتيح لها وهى تقود ألا تنظر فى وجه من تحدثها مباشرة. يجب أن تتذكر ذلك بشأن السيارات.

«هذه رقة منك، يا عزيزتى»، قالت. كان الصوت المنبعث من حلقها خفيضاً على نحو غير متوقع. «لن أنسى ذلك أبداً. ولكن ألن يبدو الأمر غريباً أن آتى بعد كل هذه السنين إلى فرنسا لكى أموت؟ ماذا سأقول للرجل الواقف على الحدود عندما يسألنى عن الغرض من الزيارة، العمل أم الاستجمام؟ بل الأسوأ من ذلك عندما يسألنى عن المدة التى أنوى قضاءهما؟ للأبد؟ حتى النهاية؟ مجرد فترة قصيرة؟»

«قولى الغرض من الزيارة لم شمل العائلة. سوف يفهم ذلك. فهذا يحدث كل يوم. لن يسألك المزيد».

تتناولان الغداء فى مطعم يسمى لو ديز إيرميت (الناسكان). من المؤكد أن هناك قصة وراء هذا الاسم، لكنها تفضل ألا تعرفها. فلو كانت قصة جيدة فأغلب الظن فى كل الأحوال أنها مختلقة. تهب ريح باردة قاطعة كالسكين: تجلسان محتميتين خلف الزجاج، تتطلعان إلى قمم الجبال المغطاة بالثلوج. الموسم فى بدايته: بالإضافة إلى مائدتهما، هناك مائدتان فقط مشغولتان.

«جميل؟ نعم، بالطبع إنه جميل. بلد جميل، بلد رائع، هذا لا يقبل الجدال. فرنسا الجميلة. ولكن لا تنسى، يا هيلن، كم كنتُ محظوظة، فلقد كانت مهنتى مميزة. أتاحت لى أن أتجول كما أشاء طوال حياتى. لقد عشت فى أحضان الجمال عندما عن لى ذلك. السؤال الذى يراودنى الآن هو أية فائدة عادت على من ذلك، من كل هذا الجمال؟ أليس الجمال أحد المستهلكات الأخرى مثل النبيذ؟ تحتسيها، وتعبها، فتمنحك إحساساً قصيراً بدوار لذيذ، ولكن ما الذى تخلفه؟ ما الذى يتبقى منه، فلتغفرى كلماتى، سوى البول، ماذا يتبقى من الجمال؟ وما فائدته؟ هل يجعلنا الجمال أفضل كبشر؟»

قبل أن تخبرينى بإجابتك على هذا السؤال، يا أمى، هل أخبرك بإجابتى؟ لأننى أظن أننى أعرف ماذا ستقولين، ستقولين أن الجمال لم يعد عليك بأى فائدة يمكن أن تلمسيها، وأنك يوماً ما ستجدين نفسك على أبواب الجنة ويداك خاويتان وعلامة استفهام ضخمة تعلو رأسك. سوف يكون الموقف متوافقاً مع شخصيتك تماماً، أى مع شخصية اليزابيث كوستلو، أن تقولى ذلك وأن تؤمنى به.

«الإجابة التى لن تصرحى بها - لأنها لا تتفق وشخصية إليزابيث كوستلو - هى أن ما أنتجته ككاتبة لا يمتلك جماله الخاص فقط - حتى وإن سلمنا أنه جمال محدود لأنه ليس شعراً، ولكن به جمال وتناسق وصفاء، وإيجاز - بل غير من حيوات الآخرين وجعلهم بشراً أفضل، أو بشراً أفضل قليلاً. لست أنا وحدى من يقول ذلك. بل هناك آخرون، أغراب، يقولون ذلك أيضاً. يقولون ذلك لى، فى وجهى. ليس لأن ما تكتبين ينطوى على دروس ولكن لأنه درس فى حد ذاته».

«مثل متزلقة الماء».

«لا أعرف ما متزلقة الماء»

«متزلقة الماء أو الذبابة ذات السيقان الطويلة. حشرة من الحشرات. تظن متزلقة الماء أنها تصطاد طعامها فقط، بينما حركاتها المتكررة على سطح البحيرة ترسم فى الحقيقة أجمل الكلمات على الإطلاق، وهى اسم الرب. حركات القلم على الصفحة ترسم اسم الرب، كما ترين، وأنت تشاهدين عن بعد، بينما لا يتسنى لى ذلك».

«نعم، إذا راق لك هذا التشبيه. ولكن ما هو أكثر من ذلك: إنك تعلّمين الناس كيف يشعرون. بواسطة الجمال. جمال القلم وهو يتبع حركات الفكر».

بدا لها ما قالته ابنتها عتيقاً، هذه النظرية الجمالية التى تشرحها أرسطية نوعاً ما. هل توصلت لها هيلن بنفسها أم قرأت عنها فى مكان ما؟ وكيف تنطبق على فن الرسم؟ إذا كان إيقاع القلم هو إيقاع الفكر، ما هو إيقاع الفرشاة؟ وماذا عن اللوحات المرسومة بعلب ألوان الرش؟ كيف تعلمنا مثل هذه اللوحات أن نكون بشراً أفضل؟

تتنهد. «رقيق منك أن تقولى ذلك، يا هيلن: رقيق منك أن تؤكدى ثقتى بنفسى. فعلى كل حال لم تضع الحياة هباء. بالطبع أنا لست مقتنعة. كما تقولين، لو كنت أستطيع أن أقتنع لكنت شخصاً مختلفاً عن نفسى. ولكن هذا ليس معزياً. لست فى مزاج سعيد، كما ترين. فى حالتى الراهنة، تبدو الحياة التى عشتها خطأ من البداية للنهاية، بل وليست شيقة بصورة خاصة على أى وجه. إذا كان المرء يود حقاً أن يكون إنساناً أفضل، من المؤكد أن هناك سبلاً للوصول إلى هناك، كما يبدو لى الآن، أقصر من تسويد آلاف الصفحات بالنثر».

«طرق مثل؟»

«هيلن، هذا ليس حديثاً لطيفاً. فحالات الذهن الكئيبة لا تنتج أفكاراً شيقة، على الأقل فى حدود خبرتى»

«هل يجب أن نصمت إذن؟»

«نعم، دعينا نصمت. دعينا نمارس شيئاً عتيقاً حقاً بدلاً من ذلك. دعينا نجلس هنا فى صمت ونصغى إلى طائر الوقواق».

ثمة وقواق يغرد فى الحديقة، فى الأيكة الواقعة خلف المطعم. إذا واربا النافذة قليلاً يأتى صوت الوقواق جلياً مع الريح: جملة موسيقية من نغمتين، جهيرة وخفيضة، تتكرر مرة تلو الأخرى. عبقة، تفكر. كلمة من كلمات كيتس - عبقة برائحة الصيف واسترخاء الصيف. طائر كريه، ولكن ياله من منشد، ياله من كاهن! كوكو، هو اسم الرب بلغة الوقواق. عالم من الرموز.

يفعلون الآن شيئاً لم يفعلوه معاً منذ أن كان الأطفال أطفالاً. يجلسون فى شرفة شقة هيلن فى الدفء العليل الذى يلف ليل البحر المتوسط ويلعبون الورق. يلعبون البريدج الثلاثى: يلعبون اللعبة التى اعتادوا أن يسموها سبعات Sevens، والتى تسمى فى فرنسا رامى Rami، كما قالت هيلن/هيلين.



كانت فكرة قضاء أمسية فى لعب الورق من اقتراح هيلن. فى البداية بدت الفكرة غريبة، متكلفة: ولكن ما أن اندمجوا فى اللعب حتى اعتراها السرور. كم كان حدساً جميلاً من جانب هيلن: لم تكن تتخيل أن هيلن لديها هذا الحس الحدسى.

ما يدهشها الآن كيف انسلوا إلى تلك الشخصيات التى تلعب الورق التى كانوا عليها منذ ثلاثين سنة، تلك الشخصيات التى ظنت أنهم تخلصوا منها للأبد عندما هربوا من بعضهم البعض: هيلن طائشة لا مبالية، جون متجهم قليلاً، يمكن التنبؤ بأفعاله قليلاً، وهى بشكل يبعث على الدهشة شديدة التنافس، مع الأخذ فى الاعتبار أنهما لحمها ودمها، ومع الأخذ فى الاعتبار أن البجعة تمزق صدرها وتشقه لكى تطعم صغارها. كانوا إذا لعبوا على مراهنات، تحصد نقودهما بملء كفيها. ما الذى يشى به ذلك فيما يخصها؟ ما الذى يشى به فيما يخصهم جميعاً؟ هل يعنى ذلك أن الشخصية لا تتغير ويصعب تشكيلها؛ أم يعنى فقط أن الأسر، الأسر السعيدة، يتحقق تماسكها بواسطة مجموعة من الألعاب يتم لعبها من وراء أقنعة؟

«يبدو أن قواى لم تهن» تعلق بعد جولة أخرى تخرج منها فائزة.

«فلتغفرا لى. ياله من موقف محرج» هذا كذب بالطبع. فهى غير محرجة على الإطلاق. إنها منتصرة. «غريب أمر تلك القدرات التى نحتفظ بها عبر السنين وتلك التى نشرع فى فقدانها».

القدرة التى تحتفظ بها، القدرة التى تمارسها فى هذه اللحظة، هى القدرة على التخيل. فبدون أدنى جهد عقلى تستطيع أن ترى الورق فى أيدى طفليها، كل ورقة. تستطيع أن تنفذ إلى أيديهم؛ تستطيع أن تنفذ إلى قلوبهم.

«أى قدرات تشعرين انك تفقدينها، يا أمى؟» يسأل ابنها بحذر.

«أفقد، » تقول فى مرح» قدرتى على الرغبة.» فليكن ما يكون.

«لا أوافقك الرأى فى أن للرغبة قدرة»، يجيب جون فى حسم، ممسكاً بدفة الحديث. «ربما كثافة. طاقة كهربية. ولكن ليس قدرة، أو قدرة بالحصان. الرغبة تجعلك تريدين أن تتسلقى جبلاً ولكنها لن توصلك للقمة».

«ما الذى سيوصلك للقمة؟»

«الطاقة. الوقود. ما اختزنته تأهباً واستعداداً».

«الطاقة. هل تود معرفة نظريتى عن الطاقة، علم الطاقة الخاص بامرأة عجوز؟ لا تقلق، ليس فيها شىء شخصى يحرجك، ولا ميتافيزيقا أيضاً، ولا حتى ذرة منها. بل هى مادية بقدر ما تسمح النظريات. هاهى. عندما نشيخ، يتدهور كل جزء من أجسادنا أو يعانى من الذبول، حتى الخلايا نفسها. هذا ما تعنيه

الشيخوخة، من وجهة النظر المادية. حتى في الحالات التي تتمتع فيها الخلايا العجوز بالصحة، فإن ألوان الخريف تمسها (هذه استعارة، أوافق، ولكن قليلاً من الاستعارة هنا وهناك لن يؤدي إلى ميتافيزيقا). وهذا ينطبق على كثير من الخلايا، بل وكثير من خلايا المخ أيضاً».

«فكما يستشرف الربيع فصل الصيف، كذلك الخريف يتطلع إلى الماضي. فالرغبات التي تتخيلها خلايا المخ الخريفي رغبات خريفية، تحن للماضي، وتتراكم طبقات في الذاكرة. ليس لها حرارة الصيف؛ فأي كثافة تمتلكها تلك الرغبات هي كثافة متعددة المعاني، معقدة، أكثر توجهاً نحو الماضي وليس نحو المستقبل».

«هذا هو جوهر نظريتي، إسهامي في علم المخ. ما رأيك؟»

«أوافقك، أنها إسهام حقاً»، يقول ابنها اللبق، «في فلسفة العقل، في الفرع النظري من هذه الفلسفة، أكثر منها في علم المخ. لماذا لا تقولين ببساطة أنك تشعرين بمزاج خريفي وكفى؟»

«لأنه لو كان الأمر مجرد مزاج لتغير، كما تتغير الأمزجة. كانت الشمس ستشرق، وكان مزاجي سيصبح أكثر إشراقاً. ولكن ثمة حالات للروح أكثر عمقاً من الأمزجة. الحنين إلى الطين، على سبيل المثال، ليس حالة مزاجية ولكنه حالة كينونة. السؤال الذي أطرحه الآن، هل الحنين في الحنين إلى الطين يخص العقل أم المخ. إجابتي هي، المخ. المخ الذي لا يكمن أصله في عالم الأشكال بل في التراب، في الطين، في الوحل البدائي،الذي يتوق للعودة إليه عندما يتدهور به الحال. وهو توق مادي ينبع من الخلايا ذاتها. دافع للموت أعمق من الفكر».



يبدو وقع الكلام طيباً، يبدو كما ينبغي له أن يكون تماماً، مجرد ثرثرة، لا يبدو كلاماً مجنوناً على الإطلاق. ولكن ليس هذا ما تفكر فيه. ما تفكر فيه هو: من تتحدث إلى أطفالها على هذا النحو، أطفالها الذين قد لا تراهم مرة أخرى؟ ما تفكر به الآن أيضاً: نفس الأفكار التي تجتاح المرأة في خريفها. كل شيء أراه، كل شيء أقوله، به لمسة من تلك النظرة المتطلعة للوراء. ما الذي تبقى لي؟ أنا من تبكي.

«هل ذلك ما تشغلين نفسك به هذه الأيام. علم المخ؟. تقول هيلن. «هل هذا ما تكتبين عنه؟»

سؤال غريب؛ متطفل. هيلن لا تكلمها مطلقاً عن أعمالها. ليس الموضوع من المحرمات بينهم على وجه الخصوص، ولكن من المؤكد أنه خارج نطاق أحاديثهم..

«لا»، تقول. «مازلت أقتصر على كتابة الروايات، سيريحك سماع ذلك، فأنا لم انحدر بعد لمستوى الترويج لآرائي. آراء إليزابيث كوستللو، طبعة منقحة».

«رواية جديدة؟»

«ليست رواية. بل قصص. هل ترغبين في سماع إحداها؟»

«نعم، أود ذلك. منذ فترة طويلة لم تروي لنا قصة»

«حسناً جداً، قصة قبل النوم. كان يا ما كان في سالف الأزمان، ولكني أعني زماننا، وليست الأزمان القديمة، كان هناك رجل، سافر إلى مدينة غريبة لإجراء مقابلة للحصول على وظيفة. ومن غرفة الفندق الذي يقيم فيه، حيث يشعر بالضجر، ويشعر بالرغبة في المغامرة، ويشعر بما لا نعرفه، يتصل هاتفياً بفتاة من فتيات الهوى. تصل الفتاة وتقضي وقتاً معه. يمارس حريته معها كما لا يفعل مع زوجته، ويطلب منها أشياء بعينها».

«تسير المقابلة في اليوم التالي على ما يرام. تعرض عليه الوظيفة ويقبلها وفي الوقت المناسب، في القصة، ينتقل لهذه المدينة، وبين العاملين في مكتبه الجديد، فتاة تعمل سكرتيرة أو موظفة أو عاملة تليفون، يتعرف فيها على نفس الفتاة، فتاة الهوى التي طلبها بالتليفون، وتتعرف عليه بدورها».

«وماذا بعد؟»

«لا أستطيع أن أروي لكما المزيد»

«ولكن هذه ليست قصة، إنها مجرد مخطط لقصة. إنك لا تكونين قد حكيت قصة ما لم تكملي ما حدث بعد ذلك».

«ليس من الحتمي أن تكون الفتاة سكرتيرة. تعرض الوظيفة على الرجل فيقبلها وينتقل إلى المدينة الجديدة وفي الوقت المناسب يقوم بزيارة لأحد أقاربه، لأحد أبناء أعمامه لم يره منذ كانا طفلين، أو أحد أبناء أعمام زوجته. تدخل ابنة العم الغرفة، و يا للعجب، إنها نفس فتاة الفندق».

«استمري ماذا حدث بعد ذلك؟»

«كل شيء ممكن. ربما لا يحدث شيء آخر. ربما القصة من النوع الذي ينتهي ببساطة».

«كلام فارغ. علام تعتمد القصة؟»

الآن يتكلم جون. «كل شيء يتوقف على ما دار بينهما في غرفة الفندق. يتوقف على الأشياء التي طلبها منها كما قلت. هلا كشفت، عن تلك المطالب، يا أمي؟»

«نعم، سأفعل».

الآن كلهم صامتون. ما سيفعله صاحب الوظيفة الجديدة، أو ما ستفعله الفتاة التي تتخذ من الدعارة عملاً إضافياً، سوف يتراجع فاقداً أهميته. القصة الحقيقية تدور في الشرفة، حيث يواجه ابن وابنة في منتصف عمرهما أمهما التي لم تستنفد بعد قدرتها على إزعاجهما وإخافتهما. أنا من تبكي.

«هل ستخبريننا ماذا كانت تلك المطالب؟» تسأل هيلن بتجهم، لأنه ليس هناك ما تسأل عنه غير ذلك.

فات الأوان ولكن لم يفت كثيراً. لم يعد أي منهما طفلاً. في كل الأحوال، خيرها وشرها، هم معاً الآن في القارب المثقوب المسمى الحياة، بلا اتجاه وبلا أوهام تساعد على الخلاص في بحر من ظلمات لا تبالي. (ياللها من استعارات تلك التي تستخدمها الليلة!) هل يستطيعون أن يتعلموا العيش معاً دون أن يأكل أحدهم الآخر؟

«المطالب التي يفرضها رجل على امرأة وأجدها مروعة. ربما لن تجداها مروعة، لأنها تأتي من جيل مختلف. ربما يكون العالم قد أبحر بعيداً في هذا الاتجاه وخلفني وراءه على الشاطئ، أشعر بالأسى. ربما يتكشف أن هذا هو صلب القصة: فبينما الرجل، الرجل الكبير، يحمر خجلاً عندما يواجه الفتاة، نجد أن ما حدث للفتاة في غرفة الفندق مجرد جزء من مهنتها، جزء من طبيعة الأشياء، جزء من الحياة. «مستر جونز... العم هاري... تشرفنا!»

الطفلان اللذان لم يعودا طفلين يتبادلان النظرات. هل هذا كل ما في الأمر؟ كأنهما يقولان: ليست قصة جيدة.

«الفتاة التي في القصة جميلة للغاية»، تقول. «وردة حقيقية. أستطيع أن أوضح ذلك لكما. مستر جونز، أو العم هاري، لم يتورط في شيء من هذا القبيل من قبل، أي في إذلال الجمال، والحط منه: لم تكن هذه خطته عندما قام بالمكالمة التلفونية. لم يكن يدرك أن لديه هذه الخطة بداخله. لقد أصبحت الخطة خطته فقط عندما ظهرت الفتاة نفسها أمام عينيه ورأى أنها، كما قلت، وردة. بدا الأمر وكأنه إهانة له أنه افتقد كل هذا الجمال طوال حياته، وانه من المحتمل أن يفقده منذ الآن وإلى الأبد أيضاً. عالم بلا عدالة! كان سيصيح في دخيلته، ويواصل حياته منذ تلك اللحظة شاعراً بالمرارة. إجمالاً، هو ليس بالرجل اللطيف.

«كنت أظن أن لديك شكوكك حول الجمال، حول أهميته. كنت تسمينه عرضاً ثانوياً.

«حقاً؟»

«تقريباً».

يمد جون يده ويضعها على ذراع أخته. يقول، «الرجل في القصة، العم هاري أو مستر جونز - مازال يؤمن بالجمال. مازال واقعاً تحت سحره. لذلك يكرهه ويحاربه».

«هل هذا ما تعنينه، يا أمي؟» تسأل هيلن.

«أنا لا أعرف ماذا أعني. فالقصة لم تكتب بعد. عادة أقاوم إغراء الحديث عن القصص قبل أن يكتمل خروجها من الزجاجة. الآن أعرف السبب». رغم أن الليلة دافئة، إلا أنها ترتعش قليلاً. «يحدث تدخل كبير في ما أكتبه؟».

«الزجاجة»، تقول هيلن.

«لا عليك».

«هذا ليس تدخلاً»، تقول هيلن. «إذا جاء هذا من الآخرين فقد يكون تدخلاً. ولكننا معك. من المؤكد أنك تعرفين ذلك».

معك؟ ياله من هراء. الأطفال ضد آبائهم وأمهاتهم، وليسوا معهم. ولكن هذه أمسية خاصة في أسبوع خاص. من المحتمل جداً ألا يلتقوا معاً مرة أخرى، ثلاثتهم، ليس في هذه الحياة. ربما، هذه المرة فقط، يجب أن يتجاوزوا ذواتهم. ربما تكون كلمات ابنتها نابعة من القلب، القلب الصادق، وليس القلب الكاذب، نحن معك.ورغبتها هي في أن تحتضن تلك الكلمات. ربما تكون نابعة من القلب الصادق أيضاً.

«إذن أخبريني ماذا أقول بعد ذلك»، تقول.

«يحتضنها»، تقول هيلن. «أمام العائلة كلها دعيه يأخذ الفتاة بين ذراعيه ويحتضنها. مهما بدا الأمر غريباً. ودعيه يقول «اغفري لي ما عانيته بسببي». واجعليه يركع على ركبتيه أمامها. «دعيني أعبد فيك جمال العالم مرة أخرى». أو كلمات بهذا المعنى».



إنه يوم جون الأخير في نيس. سوف يرحل مبكراً صباح اليوم التالي إلى دوبروفنيك لحضور مؤتمره، حيث يناقشون، كما يبدو، قضية الزمن قبل بداية الزمن، والزمن بعد نهاية الزمن.

«في سالف الزمان كنت مجرد طفل يحب التحديق في التليسكوب»، يقول لها. «الآن

على أن أعيد تشكيل نفسى كفيلسوف. بل كلاهوتى. تغير جذرى فى حياتى».

«وما الذى تأمل فى أن تراه، عندما تنظر من خلال تلسكوبك فى الزمن قبل الزمن»، تقول.

«لا أعرف»، يقول. «ربما أرى الرب، الذى ليس له أبعاد، مختبئاً».

«حسناً، أتمنى أن أراه أنا أيضاً. ولكن يبدو أننى لا أستطيع أن أراه. بلغه تحياتى. وأخبره إننى سأنتقل إلى جواره فى يوم من الأيام».

«أمـاه!»

«أنا متأسفة. أنا متأكدة أنك تعرف أن هيلن اقترحت على أن أشترى شقة هنا فى نيس. فكرة جيدة، ولكنى لا أعتقد أننى سأقبلها. وتقول أن لديك اقتراحاً خاصاً بك. كل هذه الاقتراحات محيرة حقاً. كأنه تتم مغازلتى مرة أخرى. ما الاقتراح الذى لديك؟»

«أن تأتى لتقيمى معنا فى بالتيمور. فالمنزل كبير ومساحته واسعة، ونقوم الآن بتركيب حمام إضافى. سيحب الأطفال وجودك معنا. ومن المفيد لهم أن تكون جدتهم بالقرب منهم».

«قد يحبون ذلك وهم فى سن التاسعة والسادسة. ولكن لن يحبوه عندما يبلغون الخامسة عشرة والثانية عشرة ويصطحبون أصدقاءهم معهم للمنزل فيرون جدتهم وهى تجرجر قدميها فى الشبشب فى أرجاء المطبخ، وتغمغم لنفسها ويطقطق طقم أسنانها، وربما تفوح منها رائحة غير طيبة. شكراً لك ياجون، ولكنى أرفض».

«لست مضطرة لاتخاذ قرار الآن. فالعرض قائم. وسيظل قائماً دائماً».

«جون، إننى لست فى وضع يسمح لى بالوعظ، ولا سيما أننى قادمة من استراليا التى تذل نفسها لتنفذ أوامر سيدها الأمريكى. ومع ذلك، ضع فى حسبانك إنك تدعونى إلى مغادرة البلد الذى ولدت فيه لكى استقر فى بطن الشيطان الأكبر، وربما تكون لى تحفظاتى فى أن أقوم بذلك».

هذا الابن، ابنها، توقف وتوقفت بجانبه على أرض المتنزه. يبدو وكأنه يتأمل كلماتها، ويستخدم معها ذلك المزيج من العجين والمادة الهلامية فى جمجمته الذى وهب إياه منذ مولده قبل أربعين عاماً، مازالت خلاياه قوية لم تجهد بعد، قوية بما يكفى لتناول الأفكار الكبيرة والصغيرة على شاكلة الزمن قبل الزمن، والزمن بعد الزمن، وكيف يعامل أماً عجوزاً.

«فلتأت أياً كان الوضع»، يقول، «رغم كل تحفظاتك أوافقك، أن هذا الزمن ليس الأفضل على الإطلاق، ولكن فلتأت. بروح التناقض. وإذا سمحت لى بأبسط وأرق كلمات النصح، فلتحذرى المقولات الكبيرة. فأمريكا ليست الشيطان الأعظم. أولئك المجانين فى البيت الأبيض ليسوا إلا ظاهرة عابرة فى التاريخ. سوف يطاح بهم ويعود كل شىء إلى طبيعته».

«ومن ثم من حقى أن اشعر بالأسى فقط ولكن يجب ألا استنكر؟»

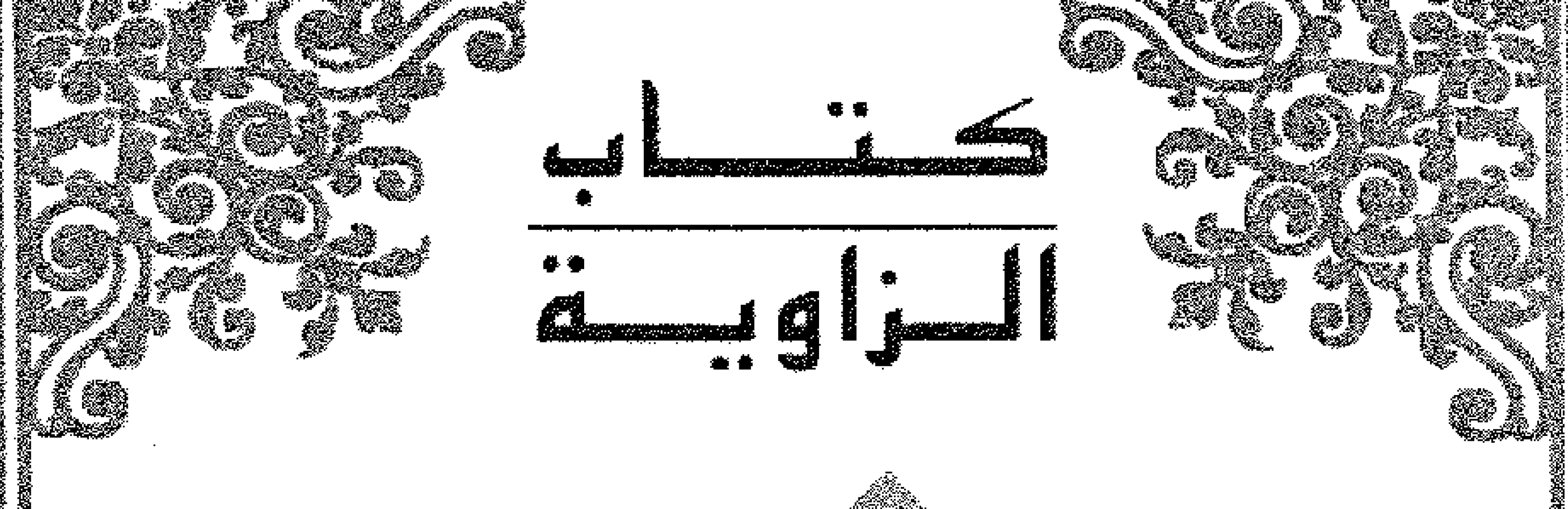
«الاستقامة الأخلاقية، يا أمى، هذا ما أشير إليه، نبرة الاستقامة الأخلاقية وروحها. أعرف أن الأمر يغرى، بعد حياة كاملة كنت تزنين فيها كل كلمة قبل كتابتها، بأن تستسلمى لتلك الروح وتدعيها تجتاحك؛ ولكنها تخلف مذاقاً كريهاً. يجب أن تعى ذلك».

«روح الاستقامة الأخلاقية. سوف أتذكر تلك التسمية التى أطلقتها عليها. سوف أمنح الأمر بعض التفكير. هل تسمى هؤلاء الرجال مجانين. بالنسبة لى لا يبدون مجانين على الإطلاق. على العكس، هم يبدون لى فى منتهى الدهاء، ويكامل عقولهم. بل ولديهم طموحات تاريخية على مستوى العالم أيضاً. انهم يريدون أن يعكسوا مسيرة سفينة التاريخ، وإذا فشلوا فى ذلك يغرقونها هل هذه صورة مجازية مفخمة بالنسبة لك؟ هل تخلف مذاقاً كريهاً؟».

تأخذ ذراعه؛ ويواصلان نزهتهما فى صمت. ولكن الأمور بينهما ليست على ما يرام. تستطيع أن تستشعر تجهمه، وضجره. طفل كئيب، تتذكر، كل الذكريات تفيض عائدة إليها، الساعات التى كانت تقضيها فى ملاطفته لتخرجه من إحدى حالات اكتئابه. ولد كئيب، ابن والدين مكتئبين. كيف يمكن أن تحلم بأن تحتمى به وبزوجته الصموتة المتذمرة تلك؟

تفكر، على الأقل لا يعاملانى باعتبارى حمقاء.

«كفانا شجاراً»، تقول (هل تتملق الآن؟ هل تتوسل؟) «دعونا لا نتعس أنفسنا بالحديث عن السياسة. نحن هنا على شواطئ البحر المتوسط، مهد أوروبا القديمة، فى ليلة صيف عليلة. دعنى أقول ببساطة، إذا لم تستطع أنت ونورما والأولاد أن تتحملوا أمريكا أكثر من ذلك، أن تحتملوا عارها، فالمنزل فى ميلبورن منزلكم، كما كان دائماً. يمكنكم المجىء للزيارة، أو كلاجئين، أو للم شمل العائلة، كما تقول هيلن. والآن ما رأيك فى أن نأتى بهيلن ونتمشى حتى ذلك المطعم الصغير الذى تفضله فى شارع جامبيتا ونتناول وجبة أخيرة لذيذة معاً. ■





٥ - مذكرات الإمام محمد عبده

نهضة جمال الدين

جاء إلى هذه الديار فى سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ ميلادية) رجل بصير فى الدين، عارف بأحوال الأمم، واسع الاطلاع، جم المعارف، جرىء القلب واللسان. وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغانى، اختار الإقامة فى مصر، فتعرف إليه فى بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد، فكان ذلك داعيًا إلى رغبة الناس فى الاجتماع به لتعرف ما عنده.

وكانت مدرسته بيته.. فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم. وهو فى جميع أوقات اجتماعه بالناس، لا يسأم من الحديث فيما ينير العقل، ويطهر العقيدة، أو يذهب بالنفس إلى معانى الأمور، أو يلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها. فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصًا القاهرة.

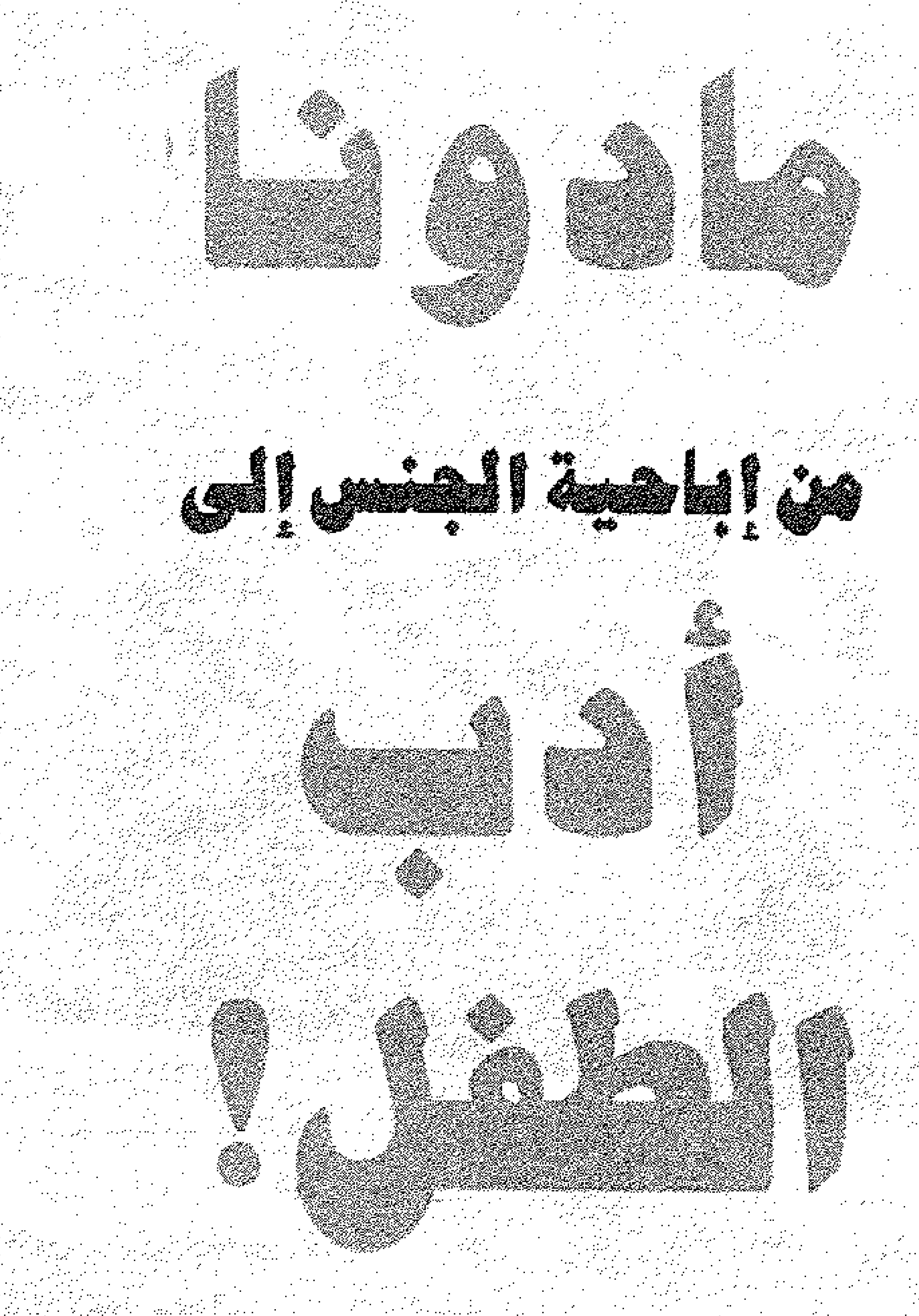
وأخذ الشيخ جمال الدين الأفغانى فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير، وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية فى موضوعات مختلفة، فأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه فى عالم خيال، أو أرض غير هذه الأرض.





مادونا وكتاباها للأطفال تفاحات السيد بيبادى والورود الإنجليزية

مادونا فى أحوالها المختلفة سعى دائم نحو الإبهار والدهشة



مادونا
من إباحية الجنس إلى
أدب الطفل!

هـــديل غنيـــم

■■ الظاهرة هى «مادونا فيرونيكا لويزا تشيكونى»، المغنية الأمريكية الشهيرة. وقد أصبحت عنوانًا للعديد من المقررات الدراسية فى الجامعات الغربية، لا باعتبارها ظاهرة غنائية أو موسيقية، وإنما لكونها ظاهرة ثقافية تجسد تطورات مهمة لحقت بالعالم فى نهاية القرن العشرين. لهذا تم صك وتداول مصطلح Madonna Phenomenon (ظاهرة مادونا) فى الدراسات الإعلامية ومناهج النقد الثقافى والدراسات النسوية. بل امتد الاهتمام الأكاديمى بمادونا إلى الدراسات اللاهوتية، حيث يقاس عليها مفاهيم مثل التفانى، والتقديس، والرمزية الأيقونية.

إن ما خلفته مادونا ليس مجموعة من الأغنيات، وإنما مجموعة من الصور. فقد ولدت مادونا. الظاهرة على شاشة محطة الـ M.T.V عام ١٩٨٣، أى بعد عامين من انطلاق تلك القناة باعتبارها أول قناة موسيقية تليفزيونية. ومن هناك بدأت ثورة أغنيات الفيديو كصناعة جديدة تعتمد على الصورة بأكثر مما تعتمد على الصوت واللحن والعزف، صناعة تنتج فيها الأغنيات كما تنتج الإعلانات التليفزيونية التجارية مستبدلة المطربة أو المطرب بالسلعة المعلن عنها.

كذلك فإن صعود نجم مادونا فى عقد الثمانينيات ارتبط «بالحقبة الريجانية» التى سيطرت فيها صورة إعلامية أخرى، هى صورة الرئيس الأمريكى اليمينى المحافظ، فكانت تلك الحقبة بالتحديد هى الشاهد على تصاعد هيمنة كل من الآلة السياسية والآلة الإعلامية الأمريكية لتصل إلى مرحلة جديدة من السيطرة على المواطنين فى داخل الولايات المتحدة وفى سائر بلدان العالم.

وقد أجادت مادونا التلاعب بصورتها التليفزيونية إلى أقصى حد، واحترفت إعادة صياغة نفسها فى صور جديدة كل حين، بحيث حافظت على دهشة الجماهير الذين ينتظرون منها المزيد والغريب وغير المتوقع.

فعند بداية ظهورها فى أوائل الثمانينيات صدمت مادونا الجماهير وصعدت إلى نجومية صاروخية باتخاذها مظهر الفتاة الوقحة الخليعة والمتمردة التى لا تخشى إظهار أنوثتها فى أشكال مثيرة. ولهذا ابتعدت بسرعة عن صورة نجمات الإغراء التقليديات مثل مارلين مونرو التى اعتقد البعض أنها تقلدها خاصة عندما أصدرت فيديو أغنية «فتاة مادية».

ثم دخلت «مادونا» فى أوائل التسعينيات مرحلة أيقونة الجنس بأشكاله التجريبية المتعددة من سادية ومازوخية ومثلية أيضاً. وقد ظهرت تلك المرحلة من خلال أغنيات وأفلام وكتب منها فيلم «فى السرير مع مادونا» وكتاب عبارة عن ألبوم من الصور بعنوان «جنس». فأصبح لمادونا جماهير عريضة بين الشواذ، والسود والمنحدرين من أصول أسبانية، بعد أن كان جمهورها فى المرحلة السابقة مقتصراً على المراهقات من البيض.

وفى السنوات الماضية التى شهدت زواجها وإنجابها لطفلتين، وتخطيها سن الأربعين ظهرت مادونا بهوية جديدة أعادت بها تسويق صورتها وأغنياتها. فأصبحت فى أحاديثها الصحفية تتحدث عن الأسرة والحياة المنزلية والأمومة، بل أظهرت اهتماماً بالجانب الروحانى من الحياة حينما بدأت منذ عام ١٩٩٧ تتلقى دروساً فى القبالاة أو التصوف

1- The English Roses

(الورود الإنجليزية)

Madonna

Jeffrey Fulvimar (رسوم)

Callawy Editions, 2003, 48 PP., $19.95

(للأطفال من ٤ - ٨ سنوات)

2- Mr. Peabody's Apples


(تفاحات السيد بيبادى)

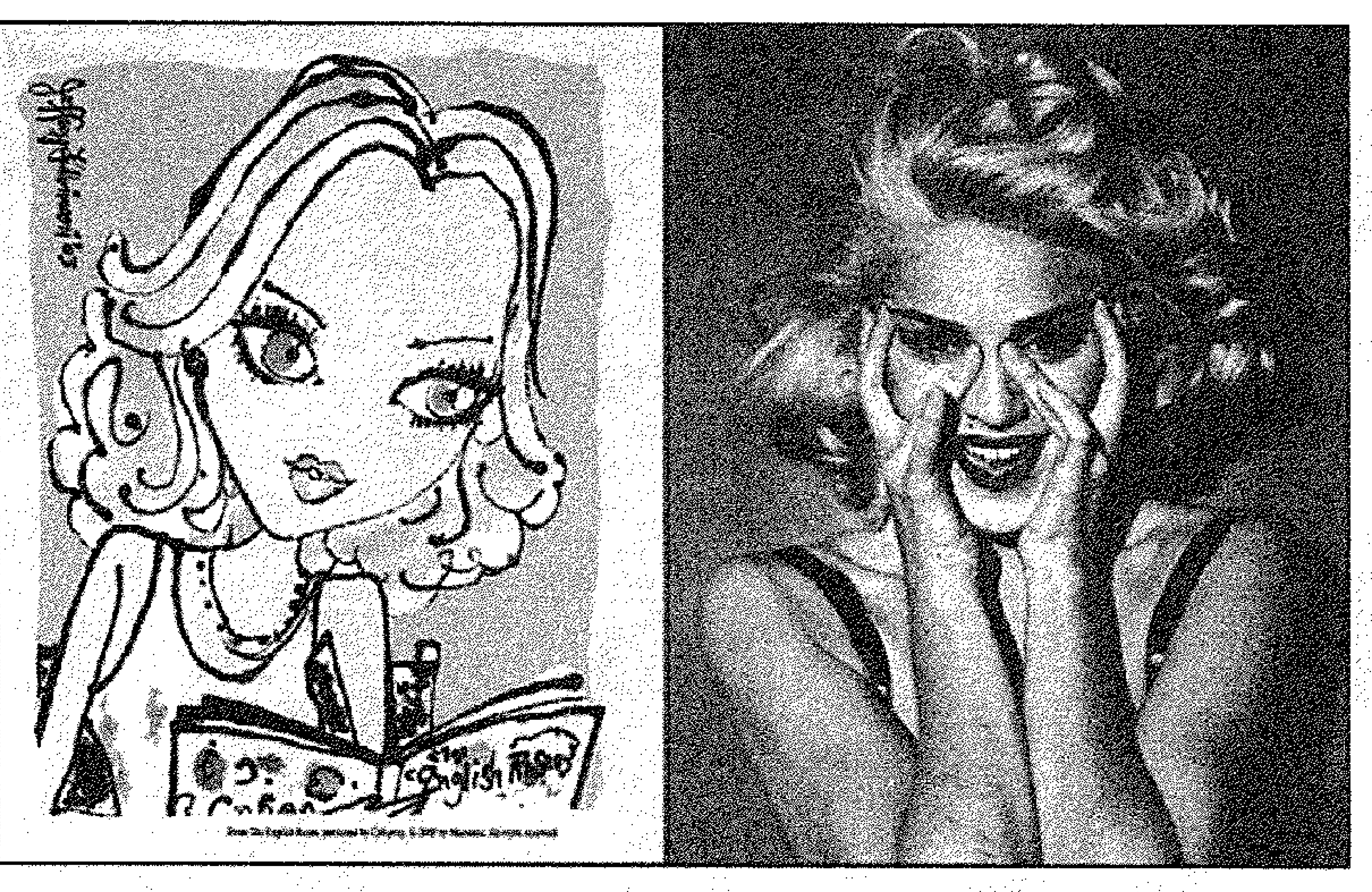
Madonna

Loren Long (رسوم)

Callawy Editions, 2003, 30 PP., $19.95

(للأطفال من سن ٩ - ١٢ سنة)





مادونا.. ورسم بورتريه لها بريشة رسام كتاب «الورود الإنجليزية»

مادونا

اليهودى. وفى هذا الإطار اكتشفت مادونا فى نفسها موهبة جديدة أو صورة إعلامية مختلفة هى صورة الأديبة كاتبة قصص الأطفال!

ووسط ضجة إعلامية كبيرة فى نهاية الصيف الماضى أعلنت مادونا أنها تعتزم إصدار سلسلة من خمسة كتب للأطفال. وقد صدر حتى الآن كتابان من تلك السلسلة، ظهر الأول فى سبتمبر الماضى بعنوان «الورود الإنجليزية» يروى قصة أربع فتيات إنجليزيات صغيرات يشعرن بالغيرة تجاه فتاة خامسة تدعى «بينا» بسبب جمالها وتفوقها، لهذا يتجاهلن «بينا» ويدبرن لها المكائد إلى أن يتكشف لهن واقعها البائس، فقد ماتت والدتها وتركتها ترعى شئون والدها والمنزل بمفردها. وهكذا يتعاطفن معها وتنضم «بينا» لصداقة الورود الإنجليزية.

قالت مادونا عن هذه القصة التى تدور حول الغيرة، إنها مستقاة من طفولتها الشخصية وطفولة ابنتها «لولا»، فعندما كانت طفلة كانت تشعر بالغيرة من زميلاتها اللاتى يتمتعن بالجمال أو الثراء أو حتى الأمهات (ماتت أم مادونا متأثرة بالسرطان وهى فى الخامسة) أما لولا ابنتها، فتعانى من غيرة زميلاتها لأنها ابنة نجمة مشهورة وبالتالى يعتقد الجميع أن لديها كل شىء وأنها لا تحتاج إلى اهتمامهم.

أما القصة الثانية، فصدرت بعد شهرين من ظهور «الورود الإنجليزية» بعنوان: «تفاحات السيد بيبادى». وقد استوحت مادونا هذه القصة من التراث الصوفى اليهودى القديم، حيث يعود أصلها إلى حكاية أوكرانية عمرها ثلاثمائة عام تنتسب إلى تعاليم «بعل شيم طوف» الذى أنشأ الطريقة الحاسيدية اليهودية الصوفية فى القرن الثامن عشر. وقد قامت مادونا برواية القصة وإعادة تقديمها فى قالب أمريكى حيث تدور حول مدرس ألعاب رياضية طيب القلب ومحبوب من أهالى المدينة الصغيرة، ولكن عندما يشاهده أحد الصبية يأخذ تفاحة من المتجر دون أن يدفع ثمنها، يعود وينشر إشاعة فى أرجاء المدينة بأن السيد بيبادى المحبوب سارق ولص. ثم، بعد أن يكتشف براءة المدرس، يأتى الصبى نادماً إلى مدرسه معتذراً عن سوء الفهم الذى تسبب فيه، فيطلب منه السيد بيبادى أن يشق وسادة من الريش ويبعثر محتوياتها فى الهواء ثم يلتقطها مرة أخرى. هنا يدرك الصبى والقارئ معه أنه من المستحيل إصلاح ما قد تتلفه إشاعة واحدة بعد انتشارها.



وسوف تظهر فى الخريف القادم القصة الثالثة لمادونا والتى اختارت لها عنوان «ياكوف الإسكافى واللصوص السبعة» مما يشير إلى استمرار سيطرة الوحى اليهودى على روح مادونا الأدبية. وقد اختلفت ردود أفعال المراقبين اليهود تجاه تبنى مادونا للرموز اليهودية. فقد ظهرت فى فيديو أغنية حديثة لها وقد زينت جسدها بحروف عبرية ورموز يهودية، مما أثار غضب بعض قادة الطوائف اليهودية الأرثوذكسية منددين باستخدام الدين فى تسويق صورة إعلامية جديدة لمادونا. ولكن فى الوقت نفسه وجد بعض اليهود الليبراليين أن هذه دعاية مجانية «للقبالاة» اليهودية التى لم يكن يعرفها الكثيرون. والآن ساهمت مادونا فى جعلها «موضة» جديدة رائجة بين الشباب.

إن هذه ليست المرة الأولى التى تثير فيها مادونا استياء مؤسسة دينية. فمنذ عشر سنوات قامت ضجة فى الكنيسة الكاثوليكية التى تنتمى إليها مادونا بعد أن ظهرت النجمة المتمردة فى فيديو أغنية Like A Prayer (مثل صلاة) فى بناء يشبه كنيسة كاثوليكية بداخله صلبان مشتعلة بالنار، وتتقدم مادونا فى مشية متبجحة مرتدية ملابس أكثر تبجحاً نحو المذبح ثم تلتفت إلى تمثال أسود «للسيد المسيح» محاولة إغواءه بالرقص أمامه، فيبدو وقد تحول من تمثال إلى إنسان حى. فى ذلك الوقت اتهمها أحد الأساقفة بأنها عدو المسيحية بل ادعى أنها المسيخ الدجَّال نفسه!

إن القصص التى تقدمها مادونا للأطفال، قد تحتوى على معان وقيم جميلة، كما أن رسومها بديعة. وقد وجدت نجاحاً كبيراً ورواجاً فى العالم كله، فترجمت إلى مجموعة كبيرة من اللغات. وصرح الناشر أنه ينوى إصدارها باللغة العربية أيضاً. ولكن بعض الآباء والأمهات ومعهم مجموعة من التربويين يداخلهم الشك فيما إذا كان من الممكن تقديم القصص للأطفال الصغار دون أن ترتبط فى أذهانهم بالصورة الإعلامية للمؤلفة ذائعة الصيت؟ فمادونا لم تكف عن تصرفاتها الشاذة التى تعشق بثها من وقت لآخر. وكان آخرها فى حفل توزيع جوائز غنائية أذيع على شاشات التليفزيون العالمية فى الصيف الماضى، حيث بهت المشاهدون عندما قامت مادونا بتقبيل المغنية بريتنى سبيرز بصورة غير لائقة. هكذا تبدل مادونا صورتها الإعلامية بسرعة مذهلة، حتى وإن تناقضت الصور مع بعضها. وسوف يستمر بعض الباحثين منشغلين بتحليل العلاقة بين صورة مادونا فى أغنياتها، وصورتها فى الإعلام، وهويتها الحقيقية. والأهم من هذا تأثير كل ذلك على جماهيرها من الشباب الذى يستهلك كل هذه الصور. فلا شك أن المنتجات الثقافية الإعلامية تساهم فى تشكيل قيم، ووعى، وإدراك الجمهور المتلقى لها دون أن يشعر.

لم يضايق دخول مادونا عالم أدب الطفل النقاد كثيراً ولم يشعر الكثيرون بالشفقة تجاه الأطفال. ولكن دخول مادونا عالم السياسة هو الذى أثار حنق النشطاء اليساريين المقاومين للعولمة إلى أقصى درجة. فقد فوجئ هؤلاء وقد طلعت عليهم مادونا بأغنية American Life (الحياة الأمريكية) وفى خلفيتها صورة المناضل الشهير «تشى جيفارا» بينما تشكو «الفتاة المادية» من الحياة المادية التى تعيشها داخل الحلم الأمريكى.

فيا له من تبجح أن تقوم إحدى رموز رأسمالية صناعة الترفيه بسرقة الشعارات اليسارية لتسويق وبيع صورة إعلامية جديدة! أما آخر ضحايا مادونا الذى يستحق الشفقة فعلاً فهو الجنرال ويزلى كلارك التى اعلنت مادونا تأييدها له فى حملته الانتخابية لرئاسة الولايات المتحدة. فقد اعتقد أن «صورته» الإعلامية سوف تتحسن عندما تزينها صورة النجمة الحسناء، ولكن يبدو أن الظاهرة المادونية أجهزت عليه فخرج من السباق ملوماً محسوراً. ■

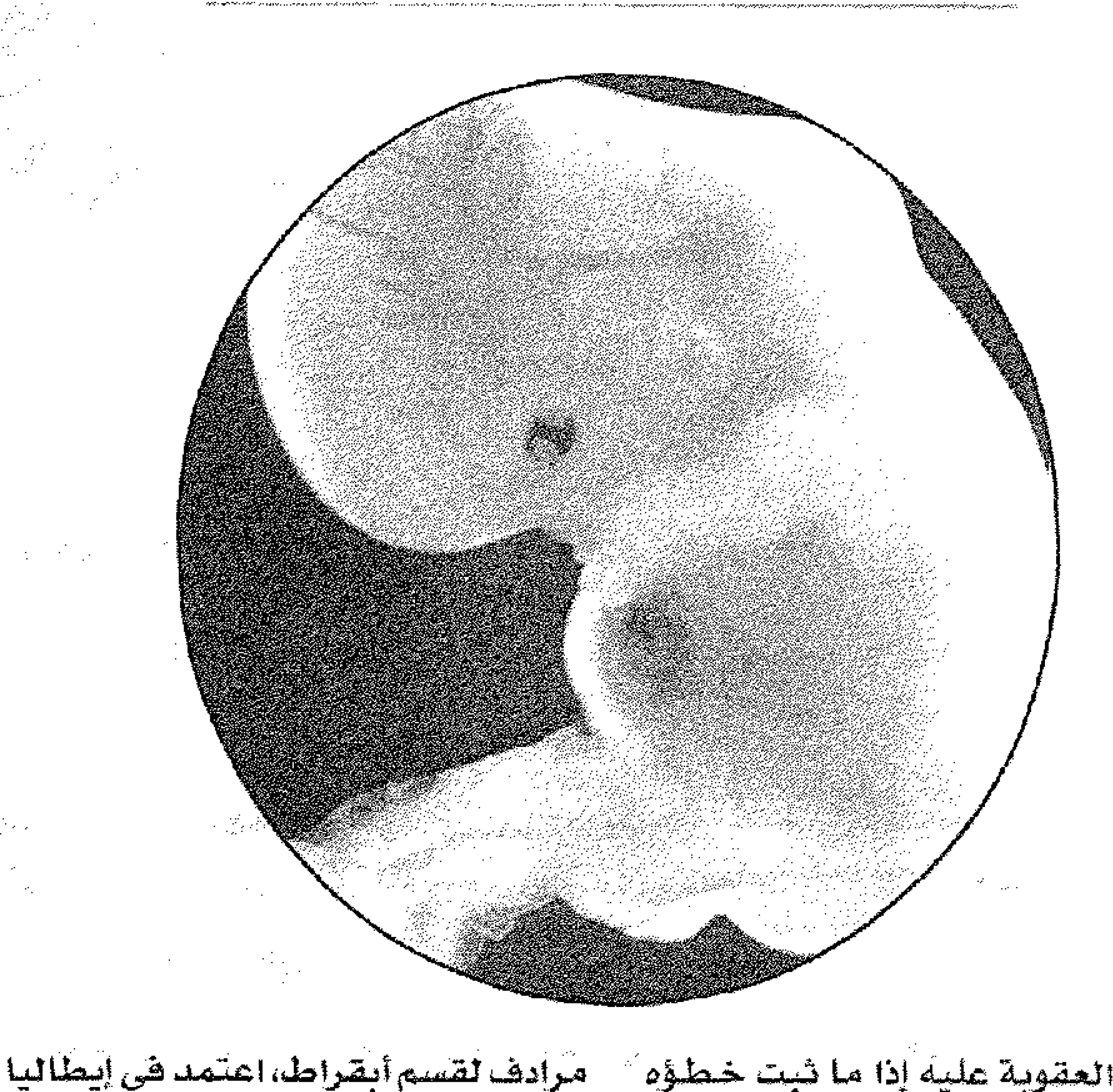




نحو قانون لحماية الأخلاقيات البيولوجية



أحمد فتحي سرور



يحظى موضوع أخلاقيات العلوم البيولوجية باهتمام عالمي واسع في ضوء الثورة العلمية الهائلة وتطبيقاتها التكنولوجية المختلفة التي أصبحت تهدد حقوق الإنسان، وعلى رأسها الحق في الحياة والحق في سلامة الجسم فضلا عن مساسها بالقيم الأخلاقية والدينية.

فالتقدم العلمي والتكنولوجي وخاصة في العلوم البيولوجية جزء من تراث الإنسانية، ويجب أن يتم تحليله بصورة متعمقة وموضوعية في ضوء التوازن بين مختلف القيم الإنسانية لصالح أجيال الحاضر والمستقبل من منظور أخلاقي وفقا لمعايير وضوابط قادرة على التوفيق بين حرية البحث العلمي والمحافظة على كرامة الإنسان. ويمكن لهذه المعايير والضوابط أن تكون في مجموعها قانونا للأخلاقيات البيولوجية، لكي يحكم التطبيقات الطبية للعلوم البيولوجية.

ويجدر التنويه في هذا الشأن بالتراث العلمي الذي خلفه المصري القديم في مجال العلوم البيولوجية والتي شملت وصفا دقيقا لأمراض العيون والجلد والأطراف والقلب والشرايين. ونشير إلى أن العديد من البرديات ونقوش المعابد والآثار قد أظهرت وصفا تفصيليا لعمليات جراحية بأدواتها الدقيقة وبالعقاقير الطبية المستخرجة من المواد المعدنية والنباتات والمركبات الحيوانية. وقد عبر عن هذا التراث العلمي ديودور الصقلي في قوله «إن المصريين كانوا يعالجون الأمراض طبقا للقواعد المقررة التي وضعها كبار الأطباء ودونوها في السفر المقدس وكان على الطبيب أن يسير بمقتضاها. وعند ذلك لا يتعرض للمساءلة حتى لو مات المريض. أما إذا خالفها فإنه يعاقب بالإعدام، لأن المشرع كان يرى مثالية في العلاج الذي يضعه أساطين الطب في تلك العصور».

ولم تقتصر ممارسات العلوم البيولوجية عند المصريين القدماء، بل كانت ممارسات الآشوريين والبابليين جديرة بالتسجيل وكانت النصوص الواردة في شريعة حمورابي بالغة التشدد في التعامل مع الأطباء، حتى أن هيرودوت كان قد ذكر أنه قد أصبح من النادر وجود أطباء في بابل بعد ثمانية عشر قرنا من ذلك التاريخ.

وعلى نحو مماثل فقد تفاوتت أشكال ممارسات الطب وغيره من العلوم البيولوجية عند الإغريق والرومان والعرب وغيرهم، وأجمعت كلها على معاقبة الطبيب المخطئ وإلزامه بواجباته وتوقيع العقوبة عليه إذا ما ثبت خطؤه أو إهماله في أداء واجبه.



ولعل قسم أبقراط هو أشهر قسم عرفه التاريخ، فهو القسم الذي يقسم به كل ممارسي الطب وأبرز ما جاء فيه الالتزام بالامتناع عن كل شيء ضار أو مؤذ لمرضاه وعدم إعطاء دواء لأي شخص إذا طلب منه ذلك، والالتزام في ممارسة مهنته على الطهارة وعفة النفس، وتوخي منفعة المريض والامتناع عن أي فعل إرادي يستهدف الأذى أو الفساد. وقد قامت الجمعية الطبية العالمية في جنيف والتي تأسست عام ١٩٤٧ بوضع قسم مرادف لقسم أبقراط، اعتمد في إيطاليا عام ١٩٨٣، وأبرز ما جاء فيه:

«سأقوم بممارسة مهنتي بضمير وشرف وستكون صحة مرضاي أول اعتبار بالنسبة لي وسأحترم الأسرار التي أؤتمن عليها حتى بعد موت المريض وسأحافظ بكل الوسائل التي أملكها على شرف مهنة الطب وتقاليدها النبيلة».

ولقد شهد العالم منذ أكثر من عشرات السنين تقدما مذهلا في مجال العلوم البيولوجية التي تتصل بصحة الإنسان وحياته. ورغم هذا التقدم، فقد زاد التخوف من آثاره السلبية على الإنسانية ومن عواقبه على الإنسان. لقد أسفر التقدم العلمي البيولوجي عن إمكان إعطاء الحياة كما هو الحال في الإنجاب بغير طريق الوسائل الطبيعية، وإمكان إنقاذها من خلال نقل الأعضاء والأنسجة، بل وصل الأمر إلى إمكان تغيير التركيب الجيني بدعوى تنمية وتطوير قدرات الإنسان، وإمكان تغيير السلوك الإنساني والشخصية الإنسانية، أو غير ذلك مما يتصل بصحة وسلامة الإنسان وتوازنه النفسي والبيولوجي.

تساؤلات مهمة:

ولا شك أن المهنة في المجالات البيولوجية التي تضم الممارسين والباحثين العلميين لا يمكنها أن تعتمد بنفسها على قواعد السلوك المهني أو قواعد الأخلاقيات المهنية، بل يجب مراعاة الآثار السلبية التي تهدد كرامة الإنسان من وراء التقدم العلمي البيولوجي. وفي هذا الشأن تثور مجموعة من التساؤلات:

❖ كيف يمكن حماية الجنين الذي تم إنجابه من خلال استخدام وسائل غير طبيعية للإنجاب مثل التلقيح الصناعي وإخصاب الأنابيب؟

❖ ألا يفتح تشخيص العيوب الخلقية -في الأجنة قبل زرعها- الباب أمام تحسين الأجنة بطرق انتقائية وهو ما يجر إلى التحكم في نوع الجنين وقد يصل الأمر إلى التخلص من كل الأجنة غير السليمة؟

❖ ما جدوى اختبارات الخصائص الوراثية، وخاصة أن الأمر ليس مقصورا على اختبارات التنبؤ التي يمكن أن تبين ما إذا كان الشخص يحمل جنينا يكشف اضطرابا في الشخصية أو مرضا معينا، ولما تثيره هذه الاختبارات من مشكلات حول المحافظة على الأسرار؟ وربما تثير مشكلات سياسية حول الخصائص الوراثية لجنس معين وادعاءات حول تميزه عن الأجناس الأخرى؟!

❖ وما حجم النتائج السلبية المترتبة على استحداث كائن حي يتطابق وراثيا تمام المطابقة مع الكائن الأصلي وهو ما يعرف بالاستنساخ. ألا يمكن أن يؤدي ذلك الاستنساخ إلى فتح الأبواب أمام عيوب اجتماعية مدمرة تخل بالتوازن الكوني بين الرجل والمرأة، وسمة التنوع الذي قامت عليه البشرية، وإفساد العلاقات الاجتماعية، وإمكان استخدامه في تحقيق أغراض شريرة منها تشجيع الاتجار في القطع البشرية فضلا عن كثير من الأضرار الصحية الأخرى.

❖ ويثور التساؤل من الناحية الاجتماعية حول التمييز بين الإنسان على أساس المعايير الاقتصادية التي تدور

لا يجوز أن تختفي عيون الباحث وراء ضوابط القواعد العلمية والتكنولوجية، بل يجب أن يضع في اعتباره احترام حقوق الإنسان وعدم تعريضها للخطر

حول القدرة على تحمل نفقات العلاج والحاجة إلى حماية المجموعات المصابة وبخاصة في الدول النامية وغيرهم من الأشخاص المصابين وبخاصة الأطفال العاجزين، وكذلك أولئك المحرومين من حريتهم والمرضى في حالات الطوارئ؟

❖ ما هي احتمالات التأثير في الطابع الوراثي مما ينعكس على الفروع عند علاج الأمراض الوراثية في ضوء اختبارات الخصائص الوراثية؟

❖ وبالإضافة إلى ذلك يثور القلق حول احتمال التجارة في الأعضاء في مجال نقل الأعضاء.

❖ حول مشكلات الاتجار في ملكية المعلومات المتعلقة بالجينات البشرية، وما يرتبط بها من مشكلات حول حقوق الملكية الأدبية على الأدوية، واحتمالات تعريضها الحياة الخاصة وأسرارها للخطر، ومدى إمكان استخدامها عند الالتحاق بالعمل.

❖ كما تثور المشكلة حول الرضاء في حالة نقل الأعضاء سواء من المنقول منه أو المنقول إليه، أو في إجراء التجارب الطبية والشروط الواجب توافرها لصحة هذا الرضاء، وكذلك الشأن فيما يتعلق بالرضاء للخضوع لاختبارات الخصائص الوراثية.

مفتاح الإجابة على التساؤلات:

يثير تقدم العلوم البيولوجية أسئلة محيرة حول موقف الإنسان في مواجهة طاقة العلم البيولوجي وقوته بل سيطرته.

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على التوازن بين قيمتين أساسيتين :

الأولى هي : قيمة العلم وترتبط كل الارتباط بحرية البحث العلمي.

والثانية هي : قيمة الكرامة الإنسانية وتنبع عنها حقوق الإنسان. وبهذا التوازن بين القيمتين ينبغي أن تكون حرية البحث العلمي حرية مسئولة عن احترام حقوق الإنسان، وأهمها الحق في الحياة والحق في حرمة جسم الإنسان وارتباط هذين الحقين بكرامة الإنسان يتطلب التزام الجميع باحترام حقه في الحياة وفي سلامة الجسم، وعدم جواز التصرف في هذين الحقين، وعدم جواز إفشاء الأسرار الخاصة بجسم الإنسان. لقد خضعت قضية التوازن بين هاتين القيمتين لكثير من الجدل الذي انشغل به الفلاسفة ورجال القانون ورجال الدين بل والمجتمع بأسره، وأصبح كل هؤلاء شركاء في هذه القضية ولم يعد الطبيب أو الباحث العلمي صاحب الرأي الأوحد تحت ستار حرية البحث العلمي، ولقد بدا الفراغ الأخلاقي واضحا في هذه القضية متمثلا في محاولة تغليب قيمة العلم وحرية البحث العلمي على قيمة الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان.

وقد تعددت المدارس الفكرية في هذا الشأن بغية عدم تغليب الضمير الأخلاقي للممارس والباحث لكي يكون هو العنصر الحاكم في الممارسة أو البحث العلمي، والنظر إلى الرؤية العامة والممارسات الأخلاقية المتعارف عليها بدلا من انفراد الممارس أو الباحث بالقرار بنفسه.

وقد ظهر تفاوت في الرأي بين العديد من الممارسين وبين رجال الدين مما جعل الخلاف في الرؤى قضية ينشغل بها الرأي العام والمجتمع الدولي والمجتمع الوطني معا، الأمر الذي زاد من صعوبة توحيد القرار والتوفيق بين مختلف وجهات النظر. وفي نطاق العديد من النظريات التي بزغت في ظل الحوارات والمجالات حول المعايير الأخلاقية في العلوم البيولوجية ظهرت أنواع من النظريات هي نظريات النتائج ونظريات الصواب والخطأ. فإذا ما نظرنا إلى النوع الأول من النظريات نجد أنه يقوم على تقييم الممارسات من وجهة نظر نفعها وعائدها. وبديهي أن ينشأ الحوار والجدل حول من هم أصحاب النفع من ناحية والطريقة التي يتحقق بها هذا النفع. ويحاول كل من يتبنى نظريات من هذا النوع أن يصل إلى أرضية مشتركة «comman plat form» وتوحيد المعايير لتسهيل تقارب وجهات النظر والاتفاق عليها.



أما أصحاب نظريات الصواب والخطأ، فإنهم يعتقدون أن النتائج في حد ذاتها لا تكفي للحكم على الممارسات لأن بعضها قد تشمل عنصرا غير أخلاقي حتى وإن كانت نتائجها جيدة. ولعل أبسط مثال على ذلك، هو إخفاء جزء من الحقيقة أو الحقيقة كاملة عن المريض أو ذويه ولو بشكل مرحلي أثناء العلاج. ويرى أصحاب هذا النوع من النظريات عدم إجازة هذا السلوك ولو كان في صالح المريض أو متلقي الخدمة الصحية بعكس ما تراه نظريات النتائج.

وواقع الأمر، إن التنمية على اختلاف مجالاتها لابد أن تستهدف أولا وأخيرا خدمة الإنسان وحماية حقوقه وضمان أمنه. وتستمد شرعية الحرية التي يتمتع بها الباحث العلمي من الهدف الإنساني لهذا البحث. ومن هنا فلا يمكن حل قضية الأخلاق البيولوجية عن طريق القواعد المهنية الفنية وحدها بل يجب أن تستند إلى محاور التناسب بين حرية البحث العلمي وحقوق الإنسان. فلم يعد مقبولا لأي عالم مهما كان قدره أن يطور علمه بما يؤدي إلى إلحاق الضرر بالإنسان أو بالمجتمع. وكما قال البعض يجب على كل عالم أن يضع في اعتباره عما إذا كانت القواعد العلمية أو التكنولوجية التي يطبقها سوف تستخدم لبناء المستشفى أم لبناء حجرة لتعذيب الإنسان. ولا يمكن للعالم أن يغلق عينيه عن الهدف الذي سوف تحققه التجربة العلمية التي يقوم بها.

والواقع من الأمر، فإنه إذا كان المبدأ الرئيسي الذي يحكم الأخلاقيات العلمية هو مبدأ الالتزام بالصدق، فإنه لا يصلح وحده في البحوث الطبية. ففي هذا النوع من البحوث ومنه قسم أبقراط أصبح البحث العلمي في العلوم البيولوجية خاضعا لمعايير أخلاقية أخرى تضاف إلى معيار الأمانة والالتزام بالصدق. ومع ذلك، فإن هذا القسم لا يعتبر الآن كافيا ولا صالحا لمواجهة المشكلات الجديدة التي تخلق موضوعات ذات طبيعة أخلاقية. ولا يقتصر الأمر على ذلك، فقد لوحظ أن معظم الهيئات العلمية لا تلتزم بأي صيغة أخلاقية تحكم سلوك العلماء. فعالم الكمبيوتر، والمهندس، وعالم الطبيعة، والكيميائي، كل هؤلاء رغم الأثر الاجتماعي لأبحاثهم، فإنهم يفتقرون إلى مدونة سلوكية تلزمهم بمراعاة قيم أخلاقية معينة. نعم، لقد زاد الإحساس بالحاجة إلى المدونات السلوكية، التي شغلت جمعيات العلماء والمتخصصين في مختلف المجالات لإعداد المدونات الأخلاقية التي تحكم سلوكهم. إلا أن هذه المدونات مازالت إلى حد كبير ليست لها طبيعة إلزامية. وقد ترتب على تخلف الطابع الإلزامي لهذه المدونات، أن الباحثين في مجالات تخصصهم تمادوا في أبحاث تعرض حياة الإنسان وصحته للخطر. ومن قبيل ذلك البحث العلمي لإنتاج أسلحة الدمار الشامل على مختلف أنواعها، والبحث العلمي في مجال علوم السموم وما قد يؤدي إليه عند إنتاج بعض المبيدات تعرض العامل الزراعي والنظام البيئي الزراعي للسموم. كما أن البحث العلمي في مجال العلوم البيولوجية الزراعية قد يؤدي رغم فائدته في تحسين الإنتاج وجودته إلى مخاوف الإضرار بالإنسان والبيئة.

وقد أدت النتائج السلبية التي تمس حقوق الإنسان بسبب تطور العلم والتكنولوجيا، أن تجعل أمر تقيد العلماء في جميع فروع العلم بمدونة للسلوك تلزم باحترام حقوق الإنسان. ولهذا تم التأكيد على أن الهدف من تطبيق العلم يخرج عن حدود العلم ذلك، فمهما كان البحث العلمي صادقا أمينا، فلا يجوز أن تختفي عيون الباحث وراء ضوابط القواعد العلمية والتكنولوجية، بل يجب أن يضع في اعتباره احترام حقوق الإنسان وعدم تعريضها للخطر.

حرية البحث العلمي واحترام حقوق الإنسان:

نعود إلى السؤال الذي طرحناه في مستهل محاضرتنا حول الحاجة إلى التوازن بين قيمتين أساسيتين هما : قيمة العلم التي تنبني على حرية البحث العلمي وقيمة الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان النابعة عنها.

وتبدو دقة هذا التساؤل في ضوء تطور تطبيقات التقدم العلمي والتكنولوجي على الإنسان وخاصة في البيولوجيا والطب، منذ منتصف القرن العشرين.

إن هناك ارتباطا وثيقا بين الإنسان وكرامته، فحقوق الإنسان تستمد أبعادها من ارتكازها على كرامة الإنسان. فهذه الكرامة هي الركيزة التي تقوم عليها فلسفة حقوق الإنسان، حتى أطلق عليها البعض بأنها الحق في حقوق الإنسان، وأنها هي السبب في وجود حقوق الإنسان. وعلى هذا الأساس فإن كرامة الإنسان تتخذ مكانتها في وضع أكثر عمقا في جوهر الإنسان. وبناء على ذلك فإن الكرامة تعني إنسانية الإنسان.

ويعتبر جسم الإنسان هو العلامة المميزة لإنسانيته وليس مجرد عقله أو إدراكه أو قدرته على حرية الاختيار، فإن الاقتصار على الجانب العقلي والإرادي في الإنسان ينكر الطبيعة الإنسانية على من يفقد شعوره أو إدراكه أو عقله لفترة طالت أو قصرت. ومن هنا يجب التأكيد على أن جسم الإنسان جزء لا يتجزأ منه، ويتمتع صاحبه بكافة حقوق الإنسان.

ومن الناحية الفلسفية، فإن كرامة الإنسان ليست شيئا آخر يختلف عن قيمة الانتماء الإنساني. وإذا كان كل أفراد البشر يكونون



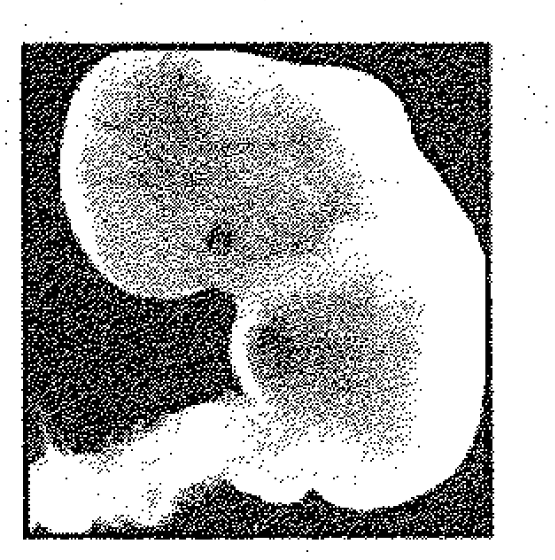
الإنسانية، فذلك لأنهم جميعا يملكون هذه القيمة وهى الكرامة. وإذا كانت الحرية فى عالم القانون هى جوهر حقوق الإنسان، فإن الكرامة هى جوهر الإنسانية ولهذا قضت محكمة النقض الفرنسية بأن الحق فى التقادم الذى يحول دون المحاكمة الجنائية عما يرتكب من جرائم لا يعتبر من حقوق الإنسان فى الجرائم التى تقع ضد الإنسانية.

القانون

وقد نالت قضية الأخلاق فى العلوم البيولوجية اهتمام المجتمع الدولى. فمن الناحية التاريخية، أثيرت المبادئ الحاكمة لهذه الأخلاقيات لأول مرة، ليس على المستوى الوطنى، وإنما على المستوى الدولى. نبعت من الحكم الذى أصدرته المحكمة العسكرية فى ١٩ و ٢٠ من أغسطس سنة ١٩٤٧ فى نورمبرج، والذى قضى بإدانة ستين طبيباً وباحثاً علمياً قضى على سبعة منهم بالإعدام. وقد أعلنت بعد ذلك محكمة نورمبرج المبادئ التى تسرى على التجريب الطبى على الإنسان وقد تضمنت هذه المبادئ الشروط الواجب توافرها فى هذه التجارب حتى تتفق مع احترام الحقوق الأساسية للفرد، والشروط التى تضمن الموافقة المسبقة لمن يكون محلاً للبحث العلمى، وضرورة التناسب بين الأخطار المتوقعة، وعدم إجراء تجارب تنطوى على خطر الموت أو الإعاقة، وحق الشخص الذى سبق له الموافقة أن يسحب موافقته فى أية لحظة خلال البحث.



ومن مجموع هذه المبادئ صيغ ما يسمى بتقنين نورمبرج (Code de Nuremberg) والذى تضمنه إعلان هيلسنكى سنة ١٩٦٤ بواسطة الجمعية الطبية العالمية (M.M.A) وقد أصبح هذا التقنين فيما بعد نواة لنشأة قانون دولى للأخلاقيات البيولوجية، وأعيد النظر فيه بمقتضى إعلان طوكيو سنة ١٩٧٥ وقد تأكدت الخطوط العامة لإعلان هيلسنكى فى العديد من الإعلانات الدولية فيما بعد، مثل إعلان مانيلا الذى أقره مجلس المنظمات الدولية للعلوم الطبية (IOMS) سنة ١٩٨١. كما أشارت إلى الأخلاقيات البيولوجية بعض الوثائق الدولية المهمة المتعلقة بحقوق الإنسان، منها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨ (المادة الخامسة)، والاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان (المادة ٣) والتى بتحريمها الالتجاء إلى التعذيب أو المعاملة القاسية أو غير





إذا كان كل أفراد البشر يكونون الإنسانية، فذلك لأنهم جميعا يملكون هذه القيمة وهى الكرامة. وإذا كانت الحرية فى عالم القانون هى جوهر حقوق الإنسان، فإن الكرامة هى جوهر الإنسانية



الإنسانية أو المهينة قابلة للتطبيق فى مجال الممارسة الطبية.

وفى مارس سنة ١٩٩٣ أقرت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة قرارا نصت فيه على الحاجة إلى تعاون دولى من أجل ضمان أن البشرية بأسرها تستفيد من علوم الحياة والحيلولة دون استخدامها لأى هدف آخر سوى خير البشرية. وفى أكتوبر سنة ١٩٩٣ أنشأ المؤتمر العام لليونسكو لجنة دولية للأخلاقيات البيولوجية للتجاوب مع أهم الاهتمامات الأخلاقية التى تثيرها علوم الحياة. وأصبحت هذه اللجنة مسئولة عن تحديد القيم المشتركة للإنسانية التى تحقق التوازن بين التقدم العلمى والتكنولوجى مع حقوق وحريات الإنسان. وفى عام ١٩٩٧ شكلت على المستوى الدولى اللجنة الدولية لأخلاقيات المعارف العلمية والتكنولوجية.

وقد أشارت ديباجة ميثاق الأمم المتحدة إلى الحقوق الأساسية للإنسان فى كرامته، كما اتخذ كل من العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية، والعهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (١٩٦٦) الكرامة الإنسانية أساسا لحقوق الإنسانية من خلال الإشارة إلى أن هذه الحقوق تنبع من الكرامة المتأصلة فى الشخص الإنسانى وقد أكدت عدة وثائق دولية ارتكاز حقوق الإنسان على الكرامة الإنسانية منها الاتفاقية الدولية لإلغاء جميع أشكال التمييز العنصرى (سنة ١٩٦٥)، واتفاقية مناهضة التعذيب والعقوبات والمعاملة القاسية وغير الإنسانية والمهينة (١٩٨٤) وجاء إعلان فيينا وبرنامج العمل الذى أقره المؤتمر العالمى لحقوق الإنسان سنة ١٩٩٣ فنص على تمتع كل شخص بالحق فى التمتع بفوائد التقدم العلمى وتطبيقاته وتقدمه وخاصة فى الطب البيولوجى وعلوم الإنسان وتكنولوجيا المعلومات، ثم أشار إلى النتائج السلبية التى قد تتعرض لها من جراء ذلك الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان. ودعا إعلان فيينا المذكور وبرنامج العمل الخاص به إلى التعاون الدولى لضمان الاحترام الكامل لكرامة الإنسان وحقوقه.

وقد أكدت مجموعة من الإعلانات التى تحتوى على مبادئ أساسية تحكم البحوث العلمية فى المجال الطبى، ومن أهمها إعلان هيلسنكى الذى أقرته الجمعية الطبية العالمية سنة ١٩٦٤ والذى أعاد النظر فيه، إعلان طوكيو سنة ١٩٧٥، وإعلان فيينا سنة ١٩٨٣، وإعلان هونج كونج سنة ١٩٨٩. وبالإضافة إلى هذه الإعلانات يقف بجانبها إعلان جنيف الصادر من الجمعية الطبية العالمية سنة ١٩٤٨ والذى أعيد النظر فيه سنة ١٩٦٨ ثم فى سنة ١٩٨٣، والإعلان الصادر من هذه الجمعية فى رانشو ميراج بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٩٠ ثم إعلان هامبورج من ذات الجمعية سنة ١٩٩٧، وتكون هذه المبادئ الأسس الواسعة للإرشادات الأخلاقية الدولية للبحوث الطبية الحيوية التى تتعلق بالإنسان والتى أقرها فيما بعد مجلس المنظمات الدولية للعلوم الطبية سنة ١٩٩٣ بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية. وكلها تؤكد ضرورة احترام كيان وذاتية الإنسان.

ومن أبرز الإعلانات التى صدرت فى هذا الشأن الإعلان العالمى للجينوم الإنسانى وحقوق الإنسان، والذى أقره المؤتمر العام لليونسكو فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩٩٧ ثم أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٩ من ديسمبر سنة ١٩٩٨ بمناسبة الذكرى الخمسين للإعلان العالمى لحقوق الإنسان. وبمقتضى هذا الإعلان اعتبر مخالفا للكرامة أى عمل يهدف إلى استنساخ الإنسان (المادة ١١). وفى الدورة الخامسة والخمسين للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة فى جنيف أصدرت فى ٢٨ من أبريل سنة ١٩٩٩ بناءً على اقتراح فرنسا، قراراً تحت عنوان (حقوق الإنسان والأخلاقيات البيولوجية) أشار صراحة إلى إعلان اليونسكو. ومن ناحية أخرى أصدرت منظمة الصحة العالمية إعلاناً يتفق مع المبادئ التى وردت فى إعلان اليونسكو وأقرت الجمعية العمومية لهذه المنظمة سنة ٢٠٠٠.

وجاءت الاتفاقية الخاصة بحقوق الإنسان والطب الحيوى التى أقرها مجلس أوروبا فى أوفيدو (إسبانيا) فى ٤ من أبريل سنة ١٩٩٧ فنصت فى مادتها الأولى على حماية الإنسان من كرامته وفى هويته واحترام حقوقه وحرياته الأساسية فى مواجهة تطبيقات البيولوجيا والطب. وقد دخلت هذه الاتفاقية حيز التنفيذ فى أول ديسمبر سنة ١٩٩٩.

وعلى المستوى البرلمانى:

عنى المؤتمر البرلمانى الدولى الثالث والتسعون المنعقد فى مدريد (أسبانيا) فى الفترة من ٢٧ مارس إلى أول أبريل سنة ١٩٩٥ بالتأكيد على احترام مجموعة من القيم الثقافية والاجتماعية والدينية التى يقتضيها احترام الكرامة الإنسانية، وتتمثل فيما يلى :

– عدم انتهاك الجسم البشرى وعدم المساس بميراث الجينات الخاصة بالأجناس البشرية.

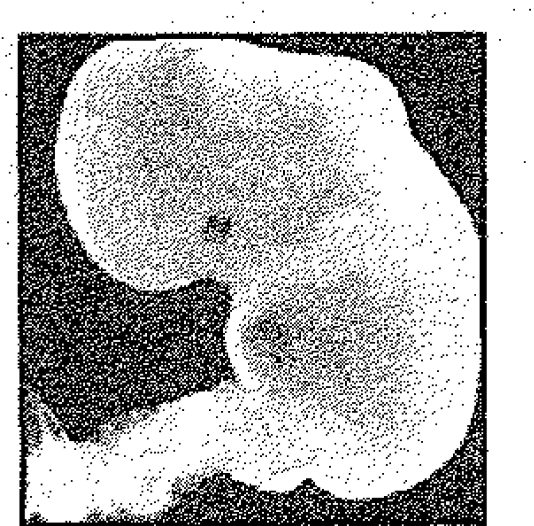
– حظر أن يكون جسم الإنسان وأى أجزاء منه بما فيها الجينات البشرية وترتيبها محلا للتجارة أو خاضعا لادعاء حق الملكية، وتحريم الحصول على أى مكسب مادى يكون مصدره الجسم البشرى أو أى من أجزائه مع مراعاة الاستثناءات المنصوص عليها فى القانون.

– عدم الكشف عن هوية المانح أو المستفيد فى حالات التبرع بالأعضاء أو نواتج الجسم البشرى مع مراعاة بعض الاستثناءات التى قد تنص عليها القوانين الوطنية.

– الالتزام بالحصول على موافقة حرة وواضحة ممن تجرى عليهم تجارب طبية بيولوجية وتحديد القواعد التى تكفل حماية المجموعات المصابة وبخاصة فى الدول النامية وغيرهم من الأشخاص المصابين وبخاصة الأطفال العاجزين وكذلك أولئك المحرومين من حريتهم والمرضى فى حالات الطوارئ.

– الحيلولة دون تحسين الأجنة الانتقائى بما فيها التحكم فى نوع الجنين.

– حظر تسجيل الاختراعات بشأن الجينات البشرية.



حق الجميع فى المشاركة فى فوائد التقدم العلمى وتطبيقاته دون تمييز.

وقد نبه هذا المؤتمر البرلمانى إلى أمرين مهمين:

(الأول): التوصية بتدريس علم الأخلاقيات الطبية فى جميع مراحل التعليم.

(الثانى): مطالبة البرلمانات الوطنية بتحديد إطار قانونى ينظم من منظور أخلاقى البحوث الطبية البيولوجية والبحوث البيولوجية وآثارها بالنسبة إلى الأفراد.

وقد عنى البرلمان الأوروبى بأن يصدر فى ٦ من يولية سنة ١٩٩٨ توجيهات بشأن الحماية القانونية للاختراعات البيوتكنولوجية، تضمنت الشروط الواجب توافرها فى الاختراعات التى ترد على الإنسان الحى. كما أصدر البرلمان الأوروبى قرار فى سنة ١٩٩٩ حول البرنامج الخمسى للمجتمعات الأوروبية يستبعد فيه كل تمويل مجتمعى لصالح الأبحاث التى تهدف إلى استنساخ الإنسان أو تعديل التراث الجينى للإنسان من خلال تغيير الخلايا الجينية.

الجهود الوطنية:

وعلى المستوى الوطنى شكلت العديد من اللجان الوطنية للأخلاقيات البيولوجية من أمثلة ذلك مركز الأخلاقيات البيولوجية الذى أنشأته كندا سنة ١٩٧٦ فى معهد البحوث الإكلينيكية فى مونتريال. كما أنشئت فى عام ١٩٨٨ الجمعية الكندية للأخلاقيات البيولوجية. وفى فرنسا أنشئت فى سنة ١٩٨٣ اللجنة الاستشارية الوطنية للأخلاقيات، كجهاز يضم الفلاسفة والعلماء ورجال القانون لتقديم مقترحاتها فى المسائل القانونية والأخلاقية التى تنبعث من التطور فى مجال الطب والبيولوجيا. وفى مصر أنشئت سنة ١٩٩٦ اللجنة الوطنية للأخلاقيات والبحوث الحيوية واشتمل تكوينها على تخصصات متنوعة فى الزراعة والطب وعلوم الوراثة والشريعة والقانون والاجتماع والإعلام. وجاء المؤتمر البرلمانى الدولى الثالث والتسعون المنعقد فى مدريد (أسبانيا) فى الفترة من ٢٧ مارس إلى الأول من أبريل سنة ١٩٩٥ فأصدر قرارا يحث الدول على إقامة لجان قيم وطنية لمراقبة حماية واحترام كرامة الفرد وحريته وهويته ونزاهته فى البحوث الطبية والبيولوجية بالتعاون مع اللجنة الدولية للأخلاقيات البيولوجية التابعة لليونسكو.



فى مصر أنشئت سنة ١٩٩٦ اللجنة الوطنية للأخلاقيات والبحوث الحيوية واشتمل تكوينها على تخصصات متنوعة فى الزراعة والطب وعلوم الوراثة والشريعة والقانون والاجتماع والإعلام



التنوع الثقافى ومفهوم حقوق الإنسان:

وفى صدد تحديد الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان النابعة عنها والتى يجب وضعها كقيد على ممارسة البحث العلمى تسهم العقيدة الدينية بدور هام فى ضبط القيم التى تحدد المفهوم الدينى للكرامة الإنسانية، وقد حددت الشريعة الإسلامية موقفها فى هذا الشأن، فقد كرم الإسلام الإنسان روحا وجسدا، فقال الله تعالى فى سورة الإسراء (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ)، وقال تعالى فى سورة النساء (ولا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً. وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً)، وقال تعالى فى سورة المؤمنون (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ).

وواقع الأمر، فإن التنوع الثقافى يلعب دورا فى تحديد حقوق الإنسان التى يجب مراعاتها فى مواجهة حرية البحث العلمى. ويتأثر هذى التنوع بالعقيدة الدينية. ولا تناقض بين تأثير التنوع الثقافى على مفهوم حقوق الإنسان وبين عالمية هذه الحقوق، لأن هذه العالمية تتطلب تمتع الجميع بها دون تمييز. ولا تتأتى المساواة بهذا التمتع إلا مع مراعاة الخصوصيات الثقافية لكل شعب والتى تتأثر بتعاليم العقيدة الدينية وأحكامها الشرعية.

ومن هنا، فإن المعايير الدولية للأخلاق البيولوجية يجب مراعاتها فى التشريعات الوطنية فى ضوء التنوع الثقافى للشعوب والتى تتأثر بالعقيدة الدينية والتقاليد والقيم الأخلاقية للمجتمع. وهو ما يوجب الحذر عند النقل من التشريعات الوطنية التى تصدر وفقا لبيئتها الثقافية. وهو ما يجب مراعاته فى مصر بوجه خاص لأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع وفقا للمادة الثانية من الدستور.

وإذا كنا قد عرضنا فيما تقدم لقضية التوازن بين حرية البحث العلمى واحترام الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان وما يتفرع عنها من مبادئ عامة تحكم الأخلاقيات فى العلوم البيولوجية، فيهمنا أن نعرض الآن لبعض القضايا التى أثارت الاهتمام وخاصة فى مجال القانون.

(١) قضية الإجهاض:

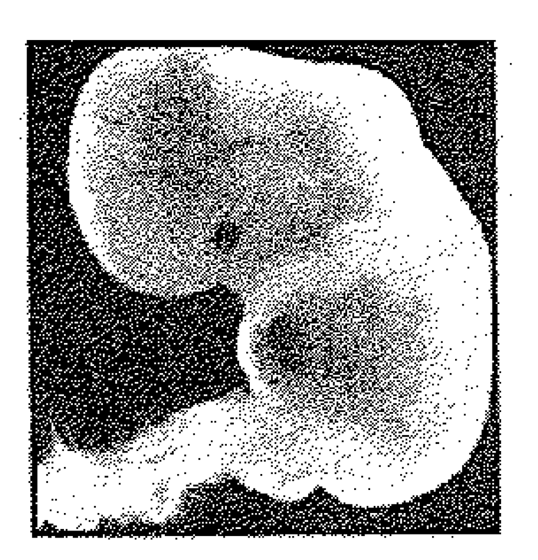
وتثير هذه القضية مشكلة التوازن بين حماية حقوق المرأة الأم فى اختيار وتقرير ما يتعلق بجسدها وبين حماية حق الجنين فى الحياة فى مواجهة حرية البحث العلمى، وبطبيعة الحال، فإن المشكلة لا تثور عندما تتعرض حياة الأم لخطر محقق من جراء استمرار الحمل، مما يوجب إباحة الإجهاض إنقاذا لحياة الأم. وتطبيقا لذلك قضت المحكمة الدستورية الإيطالية سنة ١٩٧٥ بعدم دستورية نص فى قانون العقوبات يحظر الإجهاض فى حالة تعرض الأم الحامل لخطر جسيم. وفى ضوء هذا الحكم صدر قانون (القانون رقم ١٩٤ لسنة ١٩٧٨) يسمح بالإجهاض لأسباب طبية وإجرامية واجتماعية. وأكدت المحكمة الدستورية الإيطالية (١٩٨٩) أن من واجب المشرع الالتجاء إلى التجريم الجنائى لحماية القيم الضرورية اللازمة لتحقيق الشروط الأولية للحياة داخل المجتمع، تاركا للمشرع اختيار ما يراه من وسائل لحماية القيم الاجتماعية الأقل ضرورة. وقد أكد المجلس الدستورى الفرنسى (١٩٧٥) أن مبدأ حماية حق الإنسان فى الحياة لا ينصرف إلى أجنة المختبرات (embryons in vitro)، وأن حماية هذه الأجنة متروك للسلطة التقديرية للمشرع وليست له قيمة دستورية، وذلك باعتبار أنه لا يوجد التزام بالمحافظة على هذا النوع من الأجنة التى وجدت بطريقة صناعية، مهما كانت الظروف التى تمر بها، ومهما كانت مدة حفظها، استنادا إلى أنه لا ينطبق على هؤلاء مبدأ المساواة بالإنسان الذى يتعين المحافظة على حقه فى الحياة. فضلاً عما ذهب إليه البعض من أن الجنين هو مجرد منتج بيولوجى يشترك فى الحياة مع كافة الخلايا الإنسانية أو مجموعاتها. وأنه لا يتمتع بصفته الإنسانية إلا منذ اللحظة التى ينشأ له فيها جسم، وتقدر بحوالى ستة أسابيع.

ومن ناحية أخرى أكد المجلس الدستورى الفرنسى دستورية عدم اعتبار الإجهاض الاختيارى جريمة إذا مارسته الأم الحامل فى حالة الضرورة (كما إذا تعرضت صحة الأم الحامل للخطر أو وجد احتمال قوى بولادة الطفل مصابا بمرض جسيم لا شفاء منه) وقد أضاف القانون الأسبانى لهذه الحالة حالة إذا كان الحمل ثمرة اغتصاب الأم، على أساس أن الإجهاض يكون حماية لكرامتها الإنسانية وحماية لشرفها ولخصوصيتها الشخصية. وقد أجاز القانون البرتغالى الإجهاض فى الأسابيع العشرة للحمل كأساس للتوازن بين حق الأم فى حرية قيمة جسدها وبين حق الجنين فى الحياة.

(٢) قضية تهوين الموت أو (القتل الرحيم): (Euthanesia)

وهى مشكلة برزت فى المجتمعات الغربية بصفة أساسية بسبب الاتجاه السائد بين عدد من الأطباء وبعض قطاعات الرأى العام الذى يطالب بإقرار حق المريض فى اختيار الموت إذا كان مريضا مرضا ميئوسا من شفائه أو مؤديا حتما إلى الموت، والسماح للأطباء بالاستجابة لاختيار المريض فى الموت إما بإيقاف وسائل علاجه أو بوصف أدوية معينة لتسريع الموت دون ألم. وقد ارتكزت آراء المؤيدين لهذا الاتجاه على عدد من الحجج أهمها ضرورة احترام حقوق واختيارات الإنسان المريض فى الموت على استمرار المعاناة والألم بسبب مرض لا شفاء منه، انطلاقا من حق الفرد المطلق فى الاستقلال الذاتى وتقرير مصيره وتحديد مجرى ونمط حياته الشخصية طالما لا يؤثر ذلك على حريات حقوق الآخرين. بينما لقى هذا الاتجاه معارضة استندت







هذه التجارب لا يجوز أن تجرى على الفقراء استغلالا لحالتهم المالية، مما يتعين معه ألا تمثل الحوافز أية أنواع من الاغراءات التى لا يخضع لها سوى المحتاجين



إلى أن إقرار حق المريض فى اختيار الموت يقلل من قدسية حقه فى الحياة، وأن السماح للأطباء بمساعدة المرضى على وضع حد لحياتهم، حتى وإن استهدف تحقيق أغراض نبيلة، إلا أنه يتناقض مع الأسس الأخلاقية لمهنة الطب والعهد الذى يأخذه الأطباء على أنفسهم بعلاج المرضى وإنقاذ حياتهم. هذا بالإضافة إلى تعارض هذا الاتجاه مع القيم الدينية، على أساس أن الحياة هبة من الله لا يملكها الفرد.

وقد ذهبت المحكمة العليا الأمريكية سنة ١٩٩٧ إلى أنه طالما كان رضاء المريض شرطا عاما لخضوعه للعلاج فمن حقه رفض إنقاذ حياته واستعجال موته. وقد ميزت المحكمة بين تمكين المريض من الموت Making the Patient Die وبين ترك المريض يموت Letting a patient die وهو ما يعنى التمييز بين المساعدة على الانتحار assisting a suicide، ورفض إعطاء العلاج بناء على طلب المريض، وأن الفعل الأول يعتبر جريمة نظرا لوجوب الالتزام باحترام الحق فى الحياة، بخلاف الفعل الثانى فإنه يتم بناء على حق المريض فى رفض العلاج لإنقاذ حياته بل وحقه فى الموت. ويسمى الفعل الأول بمساعدة المريض على الموت بينما يسمى الفعل الثانى بالسماح للمريض بالموت. بل وصل الأمر إلى أن المحكمة العليا الأمريكية أجازت للوالدين إيقاف أجهزة التنفس الصناعى لابنهما المريض الذى دمرت خلايا مخه الرئيسية تماما. وقالت المحكمة فى أسباب حكمها بأن الوالدين قد اقتنعا بأن ابنهما يفضل الموت على استمرار حياة صناعية مستمرة. ويذهب عدد من الأطباء فى الولايات المتحدة إلى إباحة المساعدة على الموت فى حالة المرض الميئوس منه، وهو ما يعارضه البعض الآخر. وقضت المحكمة العليا فى كاليفورنيا فى قضية امرأة امتنعت عن الطعام والشراب بقصد الموت، بأن من واجب المشرع أن يقدم لهذه المرأة وسيلة أكثر سرعة وأكثر إنسانية للموت بدلا من الموت جوعا. ولاشك عندنا أن السماح للأطباء بمساعدة المرضى على وضع حد لحياتهم مهما كان نبل الغرض إنما يتناقض مع حق الإنسان فى الحياة، وهو حق لا يجوز التصرف فيه مما يتناقض مع إعطاء الإنسان حقا نقيضا له يسمى الحق فى الموت.

(٣) قضية الهندسة الوراثية:

وتعتبر هذه القضية من أكثر القضايا إثارة للجدل فى الوقت الراهن لما تثيره من البحوث والتجارب بالمساس بحقائق الخلق والحياة، ونظرا لما تنطوى عليه من تهديد للقيم الإنسانية والدينية التى تحدد مضمون الكرامة الإنسانية فيجب ألا تجمع حرية البحث العلمى على نحو يقفز على حقوق الإنسان. ولابد أن تخضع تطبيقات الهندسة الوراثية إلى الضوابط التى تتطلبها حماية كرامة الإنسان. ولا يجوز أن ننسى موقف الإسلام من خلق الإنسان وقوله تعالى (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) مما لا يجوز معه خلق إنسان آخر شبيه بالإنسان الأصلى الذى خلقه أحسن الخالقين.

واحترام الكرامة الإنسانية يتطلب احترام خصوصيات الإنسان وذاتيته وعدم جواز الاختلاط بين الأنساب.

(٤) نقل وزراعة الأعضاء:

لقد أثارت هذه القضية جدلا كبيراً، إلا أن هذا الجدل مهما تفرع وتشعب يجب أن يجد حله وفقاً لمعيار التوازن بين حرية البحث العلمى واحترام حقوق الإنسان النابعة من الكرامة الإنسانية. وفى صدد احترام حقوق الإنسان يجب مراعاة التوازن بين حق كل من المريض المنقول إليه والمنقول منه فى الحياة مع سلامة الجسم. وإذا كان رضاء كل من المنقول إليه والمنقول منه شرطا لنقل وزراعة الأعضاء البشرية، إلا أنه شرط عام فى جميع الأعمال الطبية ولا ينفرد به نقل وزراعة الأعضاء البشرية، وإنما يتعين توافر شروط أخلاقية أخرى تنبع من احترام حقوق الإنسان وأهمها عدم جواز الاتجار فى الأعضاء وضرورة التأكد من أن هذا النقل أو الزرع هو الوسيلة الوحيدة لعلاج المريض وألا يترتب عليه تهديد جسيم لحياة أو صحة الشخص المنقول منه، وتقتضى حماية حقوق الإنسان استثناء أعضاء لا يجوز تعويضها.

وننبه إلى ما تثيره بعض البحوث العلمية حول لحظة وفاة الإنسان قبل نقل الأعضاء منه والقول بأنها تتم بموت جذع المخ، وهو أمر لا يعرفه القانون. ولا يمكن أن يتورط القانون فى تحديد لحظة الوفاة، فهذه مسألة طبية يحسمها الطبيب المختص ويتحمل مسئوليته الجنائية إن هو أخطأ فى التقدير. ومن ناحية أخرى فإن الموت الإكلينيكى لا يؤدى بصورة آلية إلى فقد حقوق الإنسان، مادام جسده لا يزال نابضاً بالحياة. ففى الفترة التى يفقد الإنسان فيها إدراكه أو يقترب فيها من الموت، فإن الجسم لازال معترفاً به بأنه جسم إنسان، وبهذه الصفة يظل الإنسان متمتعاً بحقوقه على جسمه.

ويجب أن نراعى ضرورة توفير ضمانات معينة للتحقق من احترام حقوق الإنسان، تتمثل فى أنواع المستشفيات التى تجرى هذا النوع من العمليات، والجهة التى يصدر منها القرار بالنقل أو الزرع ضمانا للحيدة، ونوع الصلة بين المنقول منه والمنقول إليه وغير ذلك من الضمانات التى يراد بها تفعيل حقوق الإنسان الواجب حمايتها. وكل ذلك يتطلب وجود تشريع صارم يحدد الضوابط ويرسم الجزاء الرادع عند مخالفتها.

(٥) قضية التجريب الطبى:

من المعروف أن التجارب الطبية لا مفر منها للبحث العلمى عند وسائل العلاج أو اختراع عقاقير جديدة، ونظراً للمخاطر التى يتعرض لها الإنسان من جراء إجراء التجارب عليه يجب احترام كرامته الإنسانية. ويتطلب ذلك احترام حقه فى الحياة وفى سلامة الجسم، وفى ضرورة اشتراط رضائه الحر المسبق مع إحاطته علما بالمخاطر التى قد يتعرض لها.. إلا أن هذه التجارب لا يجوز أن تجرى على الفقراء استغلالا لحالتهم المالية، مما يتعين معه ألا تمثل الحوافز أية أنواع من الاغراءات التى لا يخضع لها سوى المحتاجين.

الخلاصة:

لقد عرضت فيما تقدم معالم الأخلاقيات فى العلوم البيولوجية وهى قضية شائكة تم تناولها من زوايا مختلفة ترتد جميعها فى نظرنا إلى محورين هما:

❖ حرية البحث العلمى.

❖ الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان.

من خلال المحور الأول تتحقق قوة العلم وتطوره على نحو غير مسبوق.

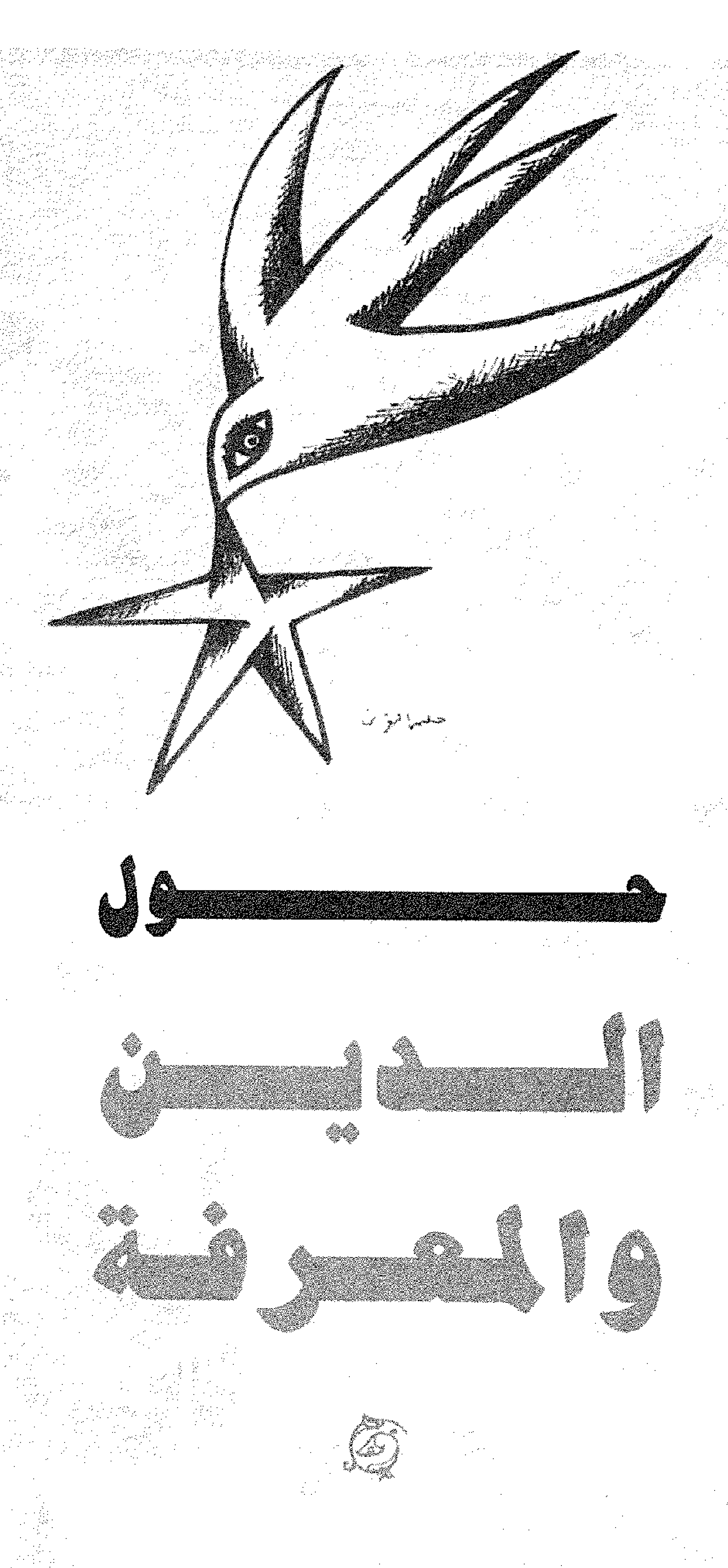
ومن خلال المحور الثانى يبدو خطر المساس بحقوق الإنسان، وهى القضية الأكثر إلحاحا وتشابكا وتعقيداً.

ولما كان العلم ليس مجرداً لذاته وإنما جاء لخدمة البشرية، فلا مجال لعلم غير نافع، أو لعلم يهدد حياة الإنسان أو سلامة جسده، أو لعلم يهدد الكرامة الإنسانية فى مختلف مجالاتها. ومن هنا فإن التوازن بين المحورين هو أساس الأخلاقيات فى العلوم البيولوجية. وعلى أساس من هذا التوازن تتحدد ضوابط الأخلاقيات، ولما كانت الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان رغم عالمية حمايتها تتأثر بالتنوع الثقافى، فإن القيم الدينية والاجتماعية تسهم بدور مهم فى صياغة بعض مفاهيم حقوق الإنسان التى تقتضى عند وضع ضوابط هذه الأخلاقيات ألا نكون مجرد ناقلين لتشريعات أجنبية استمدت من ثقافات أخرى، وإنما يجب مراعاة ذاتية ثقافتنا التى تحدد مفهوم الكرامة الإنسانية عندنا لكى نصوغ فى ضوئها مفاهيم حقوق الإنسان وأخصها الحق فى الحياة والحق فى سلامة الجسم الواجب احترامها.

ولهذا ننادى بوضع مدونة لأخلاقيات العلوم البيولوجية تستمد من قضية التوازن بين حرية البحث العلمى واحترام الكرامة الإنسانية وسائر حقوق الإنسان فى ضوء المفهوم المستمد من خصوصيتنا الثقافية. ويجب أن تنعكس مخالفة أحكام هذه المدونة فى نصوص قانون العقوبات.

ومما يثير الدهشة عدم وجود نصوص خاصة بالتجريم فى مجال الأخلاقيات البيولوجية، فأصبحت انتهاكات هذه الأخلاقيات تخضع للقواعد العامة فى التجريم. ومع ذلك فتجدر الإشارة إلى نص الفقرة الثالثة من المادة (٢٤٠) من قانون العقوبات المصرى التى شددت العقوبة إلى السجن المشدد لمدة لا تقل عن خمس سنين، إذا وقع الفعل المؤدى إلى عاهة مستديمة من طبيب بقصد نقل عضو أو جزء منه من إنسان حى إلى آخر، وتصل العقوبة إلى السجن المؤبد إذا نشأ عن الفعل وفاة المجنى عليه. ويشترط لذلك أن يقع الفعل المشار إليه خلسة.

ويجدر وضع مجموعة من الجرائم التى تقع انتهاكاً لهذه الأخلاقيات حماية لحقوق الإنسان فى مواجهة التجاوز فى حرية البحث العلمى والممارسة الطبية بناءً على ما يحرزه هذا البحث من تقدم. ■



حـــــــول الـــديــن والمعـرفـة

طـــــــــارق البشـــــرى

بمناسبة ما نُشر وينشر تعليقًا على تقرير التنمية الإنسانية العربية لسنة ٢٠٠٣، هذه هى الورقة الخلفية التى كنت قدمتها لواضعى التقرير.

وكنت حاولت فيها بإيجاز وتركيز أن أرسم الصورة العامة لما أظنه التضاريس الكلية للموقف الثقافى الإسلامى، بالنسبة لصلة المعتقد بالواقع وبالعقل وبالتربية البشرية، وبالنسبة لمظان البحث فى هذا الشأن عقليًا ووجدانيًا.

وأترك للقارئ أن يقدِّر مدى ما يكون ما ورد بالتقرير متوافقًا مع هذا النظر أو غير متوافق. ومن ناحيتى فأظن أن التقرير لم يستفد وأضعوه مما كتبت. أو أنهم لم يوافقوا عليه.

ولا أدعى صواب نظرتى إزاء ما يراه آخرون، ولكننى أترك للقارئ أيضًا، وللدارس بصفة خاصة، أن يقرر: هل سيكون من الملائم أن يذكر اسم شخص فى تقرير دون أن ينشر ما قدمه، ودون أن يظهر لما قدمه أثر فيما نُشر؟

طـارق البشـرى

يقوم الفكر العقيدى على مسلمات أولية، ولفظ «عقيدة» يرد من عقَدَ عقدة، والعقدة هو ما تنضم أجزاؤه بعضها إلى بعض فتتماسك، والعقيدة هى ما انعقد فى النفس أو العقل، أى ما تراصت أجزاء فكرته فصار بعضها يشد بعضاً ويوثقه، ونحن نسميها عقيدة لأن دليلها يدور فى داخلها، وبعبارة أخرى هى مسلَّمة، لأنها تحتضن دليلها فى ذاتها وتستمده من ذاتها وتدور معه.

والفكر الفلسفى بعامة لا يخرج عن هذا الإطار، إلا أنه يطرح بدائل مستجدة أو مستحدثة أو يعرض للبدائل القائمة، وهو إما «يفترض» مسلمات جديدة أو يتحدث ويعرض للمسلمات القائمة. وهو فى كل الأحوال ينشغل بما تنشغل به العقائد من حيث أصل الوجود أو صلة الإنسان بالكون وموضعه فيه وغير ذلك، وهو فى النهاية يعرض «مسلمات» بديلة أو مقترحة.



والدين يعتمد على الاعتقاد بوجود الذات الإلهية الغيبية، أى التى لا يمكن العلم بكنهها، ولكن يمكن إدراك آثارها مع الاعتقاد بأنها مطلقة القدرة ومطلقة القوة ومطلقة فى تنزيهها عن الشبيه والمثيل، وأنها واجبة الطاعة والعبادة بالطريقة التى رسمها للبشر. والدين بذلك يرد من المطلق ليحكم النسبى ويأتى من الثابت ليحكم المتحرك ويأتى من الدائم ليحكم المؤقت.

وإن البعض من مفكرى الإسلام يعرِّفون الدين بأنه وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقادات وإلى الخير فى السلوك والمعاملات. ومن هنا ترد الصلة بين الدين بوصفه معتقداً يتصل بالمطلق والثابت والدائم والمنزه، وبين الدين بوصفه حاكماً لأوضاع الواقع المتغير والمتحول. ومن هنا أيضاً ترد مسألة صلة المعتقد بالمعرفة وكسبها، أى صلة المعتقد وتعاليمه بالتعامل مع الواقع.

ولا أريد أن أستطرد كثيراً، ولكن فارقاً أساسياً هنا بين أصول الاعتقاد فى المسيحية وأصولها فى الإسلام، فالمسيحية حسبما تبلورت لدى المسيحيين فى القرون الأولى التالية للسيد المسيح، صنع معتقدها على نحو يقبل القسمة والتمييز بين الرؤية الاعتقادية وبين ممارسة الواقع ومعايشته.

وبهذه المكنة أمكن بعد ذلك زحزحة مجالات النشاط عن بعضها البعض على ما يتابع من بعد فى العصر الحديث فى أوروبا، فوجد الدين، وبجواره ليس متصلاً به ولا متفرعاً عنه وُجِد النظر المعرفى الوضعى. وساعد على ذلك أن السيد المسيح (لدى المسيحيين) لدى مسيحيى القرون التالية كان هو ذاته ذا الوضع الإلهى، وهو الكلمة، وقد رفع فلم يبق فى الأرض.

أما فى الإسلام فالتصور العقيدى مختلف، إن ما يقابل مسيح المسيحيين فى إسلام المسلمين هو القرآن، لأن القرآن هو كلمة الله، وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن باق على الأرض، وهو لا ينظم المعتقد الإسلامى فقط من حيث صلة الإنسان بالله، ولكنه يحكم سلوك المسلم ومعاملاته، بما أورد من أحكام تشريعية وبما أحال إليه من أحاديث وسنن رسول الله التى بقيت بالرواية ثم بالتدوين.

ومن هنا ثارت مسألة كيف يمكن للنص الثابت الذى يشكل وضعاً إلهياً أن يحكم الواقع المتغير للبشر، وكيف يمكن للنص المحدد فى إطار ألفاظه المعدودة أن يحكم الواقع المتنوع على مدى الزمان. من هنا جاءت جهود التفسير لتضبط مناهج النظر المعرفى إلى الواقع المتغير وموقف الإنسان تجاه هذا الواقع المتغير، موقفه تجاهه من خلال النصوص الإيمانية الثابتة.

وكان ذلك مما شغل علم الفقه من أول قرون الإسلام، إذ انتشر الإسلام فى الأمصار والأصقاع وصارت أحكامه واجبة التطبيق على أقوام شتى وشعوب متعددة وبيئات متنوعة، وصار مطلوباً أن تحل المشاكل المستجدة فى هذا المجال، ثم لما تعددت حالات التطبيق وتكاثرت الحلول واختلفت أساليب التفسير، صار مطلوباً أن تتحدد وتتعين مناهج للتفسير تضبط تلك الأساليب، وصار ذلك ما عرف بعلم «أصول الفقه».

ثم جاءت مسألة أخرى هى حدود معرفة الإنسان فى أى زمان ومكان، إن ما يعرفه تتولى مناهج أصول الفقه استخراج الأحكام بشأنه، ولكن ما هو الضابط النفسى والسلوكى الذى يضبط الحدود بين المعلوم والمجهول، وما كان أكثر

من الأوراق الخلفية لتقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٣

عندما يقال أن لولى الأمر أن يحسم خلافًا وينفذ رأيه فيه، فإن ذلك لا يعنى تجرده من المسئولية والتبعة، ولكن معناه أن الأمر ينتقل من مجال المشروعية الدينية إلى مجال المسئولية السياسية عن إدراك صوالح الناس بمعايير واقعهم المعيشى



المجاهيل التى تحيط بالإنسان على مر قرون عديدة، وهنا ظهرت محاولات علم التصوف وممارساته للتمييز بين الأمر المدرك الذى يمكن للإرادة الإنسانية أن تدبر الشأن فيه، وبين غير المدرك وغير المعلوم الذى تكله الإرادة البشرية على المعبود سبحانه.

وبالنسبة لأصول الفقه، فقد عنى أول ما عنى بإيضاح ما هى مصادر التشريع الإسلامى وأن مصدريه الأساسيين المجمع عليهما هما القرآن الكريم والسنة النبوية والركيزة الأساسية للتصديق بهما هى ركيزة إيمانية، ولكن علم أصول الفقه اقترب من هذا المجال الإيمانى بمنهج عقلى يتعلق «بالثبوت» والثبوت مسألة معرفية، فقالوا إن القرآن الكريم ثابت بطريق «التواتر»، وعرفوا التواتر بأنه ما يقول به جماعة يستحيل اتفاقهم على كذب، وهذا منهج عقلى أشد صرامة مما نقول به الآن عن «المعرفة الاجتماعية» التى تصل للفرد منا ويصدق بها بغير أن يختبر بنفسه أدلة صوابها وثبوتها، مكتفيًا بأنها تنتقل إليه من مصادر شتى، مثل دوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس، ومثل وجود أية بلدة لم يرها الشخص بنفسه. ثم أجروا معايير التحقيق العقلى على الأحاديث الشريفة التى لا تتوافر لثبوتها درجة التواتر، وهى من حيث الضبط والتحقيق أكثر صرامة فى نسقها العقلى من أساليب تحقيق الوقائع التاريخية، وهنا نلحظ أن النصوص الأساسية هذه، وهى إيمانية فى التصديق بها، فقد صارت عقلية فى ثبوتها، وقد تخللها العقل من هذا الوجه المعرفى، ثم بدأ من هذا التخلل يفرض سلطانه على ما يتلو هذين المصدرين من مصادر أخرى ومن مجالات أعمال.

ومن المعروف أن النصوص محدودة، سواء نصوص القرآن الكريم أو نصوص السنة النبوية الشريفة، فظهرت مصادر أخرى تالية، وفى غالبها نلمس دوراً نامياً وفعالاً للعقل فى تفاعله مع الواقع المعيش.

فمثلاً «القياس» الذى قال به الإمام الشافعى منذ اثنى عشر قرناً وصار مهماً وواسع التطبيق، هو يتعلق بإدراك وجه الشبه الفعال بين الظواهر التى وردت عنها أحكام فى القرآن أو السنة، والظواهر التى لم ترد عنها أحكام فيهما، والمهم هنا هو المنهج المعرفى الذى وضع لإدراك الشبه الفعال، وهو منهج يعمل الاستقراء لإدراك خواص الظواهر ولتبين الخاصة التى تعتبر «علة» الحكم أى سببه وهو ما أسموه «المناط». وهنا نلحظ وجوه تجريب واستقراء وملاحظة، ثم استخلاص للصفة العلة وبلوغ المشترك الحاكم لما يمكن أن نعتبره متماثلاً.

ومثلاً «الاستصحاب» وهو منهج عقلى معرفى، ومؤداه هو بقاء الحال على ما كان حتى يقوم دليل بغيره، فهو يتعلق «بالإدراك» البشرى للواقع، ومؤداه أنه عند التيقن من وجود أمر ما، فنحن نتصرف على أساس أنه موجود بعد ذلك حتى يتبين لنا أن ثمة تغييراً أو تعديلاً حدث. وما ثبت باليقين من ذلك لا يزول إلا بيقين مغاير. وقد سمى الفقهاء هذا الأمر أنه مصدر تشريعى، وفى الحقيقة هو منهج معرفى مكمل للإدراك البشرى، يسد الفجوة بين تيقن حدث وتيقن آخر طرأ بعد مدة.

ومثلاً «الاستصلاح» أو المصالح المرسلة، وهى التصدى المباشر للواقع الحادث والعمل بما فيه مصلحة الناس، وذلك فيما ليس فيه أمر دينى أو نهى دينى ورد بالقرآن أو السنة. والنظر فى هذا الشأن يكون بملاحظة أن كل الأوامر الدينية والنواهى الدينية هى مقررة من الله سبحانه لنفع الناس ولإصلاح شئونهم أيضاً.

وفى مجال الخلاف فى مدى كل من الأوامر والنواهى التى مصدرها القرآن والسنة، فإن الخلاف يكون فى غير الأحكام ذات الدلالة القطعية، يكون فيما هو ظنى، وهو ينقسم بين رأى راجح ورأى مرجوح، وهذا الانقسام إنما يكون بالدليل العقلى والواقعى، ويحسمه ما تتقبله الجماعة وترضى به، ويحسمه أيضاً ولى الأمر فيما يراه.

وتنبغى ملاحظة أنه عندما يقال أن لولى الأمر أن يحسم خلافاً وينفذ رأيه فيه، فإن ذلك لا يعنى تجرده من المسئولية والتبعة، ولكن معناه أن الأمر ينتقل من مجال المشروعية الدينية إلى مجال المسئولية السياسية عن إدراك صوالح الناس بمعايير واقعهم المعيش. وشأن ذلك أيضاً شأن ما يسمونه «السياسة الشرعية» وهى أوامر ولى الأمر ونواهيه التى قصد بها صلاح الأمة فيما ليس فيه أمر ولا نهى فى الشريعة المُنزّلة، فإن هذه السلطة لولى الأمر لا تنفلت عن الشرعية ولكنها تخضع لاعتبارات المصالح.



وأنا لا أريد أن أستطرد أكثر من هذا فى هذه النقطة، إنما قصدت سوق الأمثل للأساليب والمناهج التى يتفاعل بها الفكر الدينى بنصوصه الثابتة، مع مناهج إعمال العقل من ناحية ومع أساليب التعرف على الواقع ومناهجه من ناحية أخرى.

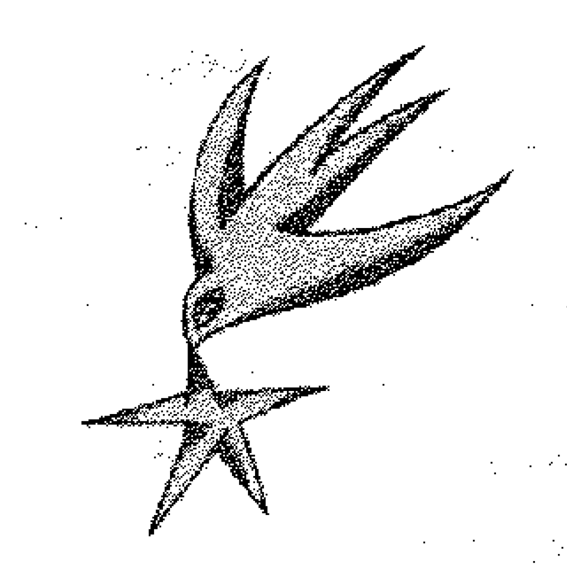
وما أريد أن أوضحه أن هذه الأمثلة وغيرها، لم تحتج منى إلى إسناد بالمراجع، لأن المادة التى اعتمدت عليها هى من المعروف المشتهر لدى المطالعين والعارفين بهذا الأمر، وما سقته إنما كان جهدى فيه هو الربط والاستخلاص للدلالة التى تستفاد فى صدد الموضوع المعروض. وهذه الأسس هى مما يشكل البنية التحتية للتكوين الفكرى الفقهى بالنسبة للإسلام.

وبالنسبة للضابط الخاص بسلوك الإنسان بين المعلوم والمجهول لديه، فإننا هنا نجد جهود نفر من ذوى الفكر الصوفى تحدثوا فى هذا الشأن وشاع حديثهم وتعاليمهم حتى وجدت لها بين العامة مكانها وانعكست فى سلوكهم. وأن النظر الذى ساد فى كتابات وأحوال ذوى الأثر فى البنيان الفكرى والمعرفى الذى ذاع بين الناس، ليس هو إنكار الحقائق الواقعية أو البعد عن التعرف عليها، ولكنه يتعلق بكيفية بناء الإنسان على أساس من القدرة على البذل والعطاء وإنكار الذات وعدم تعلق القلوب بمغريات الحياة.

وبالنسبة للنظر إلى القدر، فهو نظر يتعلق بما وراء المعرفة الكسبية والعلم الكسبى، فما نعرفه من حقائق الحياة نتعامل معه بما صيغت به النفس والوجدان من ترويض ومن بذل وعطاء. وما لا نعرفه هو ما يدبر الإنسان أمر نفسه فيه على التقبل والرضا، وهذه المعانى نراها بصياغات كثيرة وأساليب تعبير شتى فى الكتابات الذائعة لكبار مفكرى هذا المجال مثل الجنيدى والقشيرى وابن عطاء الله وغيرهم.

وقد أكتفى فى بيان الموقف الفكرى الإسلامى بهذين المجالين، مجال الفقه الإسلامى وأصوله، ومجال التصوف. وذلك لأنه فى تصورى أن هذين المجالين هما أكثر مجالات الفكر التى صيغت بها العقلية الإسلامية، منظوراً فى ذلك إلى مثقفيهم ذوى الثقافة الإسلامية، وإلى العامة أيضاً.

وبالنسبة للفقه، فإن المفكرين الاجتماعيين المحدثين وباحثيهم ومؤرخيهم، لا يهتمون بهذا الجانب اهتمامهم بالجوانب الأخرى الاقتصادية والأدبية والتعليمية وغيرها. رغم أنه من أكثر الجوانب



الفقه لا يستطيع إلا أن يكون واقعياً لأنه يحكم أوضاع الناس ومعاملاتهم ويتصدى لمشاكلهم المعيشة يوماً بيوم





التي تعكس أوضاع المجتمعات واقعًا وفكرًا، ولا اقصد بذلك الفقه الإسلامي فقط ولكني اقصد أيضًا الفقه الوضعي، إنه بالنسبة لفروع علم الاجتماع، مثل فن العمارة بالنسبة لفروع الفنون التشكيلية. لأنه الفرع الأكثر مساسًا بالناس في حياتهم اليومية، والفقه لا يستطيع إلا أن يكون واقعيًا لأنه يحكم أوضاع الناس ومعاملاتهم ويتصدى لمشاكلهم المعيشة يومًا بيوم.



والمجال الثاني هو الصوفية، وقد كان حتى الوقت الحاضر القريب يمثل أكثر المجالات أثرًا في الصناعة الدينية للوجدان الشعبي، وكان يقوم بنظراته الإنسانية مقام علوم النفس الآن، وكان يقوم في تشكيله للوجدان الشعبي بما تقوم به فنون الأدب والقصة والمسرحية، وله انتاجه الأدبي في الشعر والحكم والدعاء، وفيه وجدت الموسيقى والغناء الديني موضعها.

ذكرت من قبل الملامح العامة لتضاريس ما أظنه البنية الأساسية للتفكير الديني الإسلامي في بلادنا. وهذا لا يخل طبعًا بما وجد ويوجد من وعورة تعوق السير ومن طرق مسدودة وغير ذلك. إنما ما قصدت إظهاره أن البنية التحتية الأساسية تبقى في توصيفها الأخير على الصورة العامة التي ذكرتها، وأن ذلك من شأنه أن هذا الفكر مهما اعتراه من جمود أو غيره فإن في بنائه الذاتي ما يمكنه من إصلاح شأنه في تصديه للواقع المحيط في كل ظرف، وذلك بمراعاة ما يلي على سبيل التمثيل:

أولاً: إذا كان منهج الاعتبار بالمصالح ومنهج اتصال النص مع الواقع واستخراج الحكم، إذا كان كل ذلك من الأمور المقررة، فإن المشكل يحدث لا من افتقاد القدرة المنهجية المتاحة لرؤية الواقع وإدراك المصالح، ولكنه يحدث من جهة القدرة الذاتية على رؤية الواقع، أو من جهة تنوع المصالح وتعارضها وصياغة الواقع في إطار نظرة محددة ومسبقة للواقع، أو الرغبة في عدم الاعتراف بواقع حادث استبقاءً لأوضاع قائمة، وكل ذلك تعرفه العلوم الاجتماعية، وهو يرد في تحليله لا إلى افتقاد المنهج المعرفي ولكن إلى عجز الرائي عن الرؤية لعدم تقديم الواقع إليه من خلال الخبرات والبيانات والمعلومات الدالة، أو إلى عدم رغبة الرائي في الاعتراف بواقع حادث.

ثانيًا: إن مؤسسات الفكر الديني كانت ذات استقلال نسبي، أو بعبارة أدق كان لها تميزها الذاتي وحركتها الذاتية ودرجة لا بأس بها من التعبير عن الذات. وكان ذلك على مشارف المرحلة المعاصرة التي بدأت في القرن التاسع عشر في بلادنا، وكان الفكر الديني يتصف بقدر ملحوظ من الجمود، ولكن جموده في ظني كان يتأتى من جمود حركة الواقع وحركة المجتمع، لم يكن في مجتمعاتنا حتى نهايات القرن الثامن عشر، دفع بالواقع الاجتماعي السياسي إلى شيء من التجديد أو التغيير، فلم تكن ظهرت مستجدات ولا تحديات تتطلب استجابات مستحدثة وتطرح على الفكر أن ينفتح لها وأن ينظم ما تستدعيه من أنماط تعامل وقيم سلوك ملائمة.



ثم لما ظهرت هذه الحاجات على مدى القرن التاسع عشر، وواكبها التفاعل الفكري وتحديات الاحتكاك بالحضارة الأوروبية والأطماع الغربية، ظهرت محاولات الانتعاش الفكري وظهرت دعاواه ورجاله، ومتابعة التطورات الفكرية في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تظهر وتكشف عن هذا الأمر، ولكن ظهرت مسألتان عقدتا هذا المسار.

ثالثًا: المسألة الأولى أن حركة التجديد تواكبت زمنيًا مع الوفود الأجنبي الغربي في صوره الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية، وكان الوفود الثقافي الأجنبي المؤيد بوقائع الغزو والسيطرة مما جعل المحافظة الدينية الفكرية ذات وظيفة فعالة في المقاومة واستدعاء روح الصمود والتصدي، كما أن هذا الوفود الأجنبي في المجال الفكري والسلوكي قد استنفر مشاعر الخصام ودعم رد الفعل المتحصن في روح المحافظة.

قويت المحافظة في مواجهة حركة التجديد بما أسبغته على الناس من روح التحصن ضد الغريب الوافد، وبما صار لها من وظيفة إيجابية في التصدي ودعم الصمود والمقاومة على المستوى السياسي والاجتماعي. وضعفت حركة التجديد لأنها لم تستطع في هذا الوقت المبكر لها أن تميز نفسها وقضاياها الجادة عن حركة التغريب الوافدة.

قويت المحافظة في مواجهة حركة التجديد بما أسبغته على الناس من روح التحصن ضد الغريب الوافد، وبما صار لها من وظيفة إيجابية في التصدى ودعم الصمود والمقاومة على المستوى السياسي والاجتماعي. وضعفت حركة التجديد لأنها لم تستطع في هذا الوقت المبكر لها أن تميز نفسها وقضاياها الجادة عن حركة التغريب الوافدة



رابعًا: المسألة الثانية تتعلق بالمؤسسة الدينية، وهي على مدى القرن العشرين على نحو خاص، قد فقدت ما يمكن أن نسميه تميزها المؤسسي الذاتي أو استقلالها النسبي، وذلك في مواجهة الدولة المركزية الحديثة التي أرسيت جذورها في عهد النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأخذت في النمو والتوسع على حساب هيئات المجتمع المدني والمؤسسات ذات الاستقلال النسبي أو التميز الذاتي، وذلك من منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين. ثم طفرت طفرة واسعة في السيطرة والهيمنة في النصف الأخير من القرن العشرين.



وبهذه الطفرة الأخيرة اكتمل للدولة المركزية الحديثة أن تكون هي التنظيم الأوحد، وأن تتعامل مع الوحدات الأهلية مثل الجمعيات والأوقاف والطرق الصوفية، ومع الهيئات ذات الاستقلال النسبي مثل الجامعات والأزهر، سواء منها الحديث كالجمعيات والجامعات، أو التقليدي كالأوقاف والأزهر، أن تتعامل مع ذلك كله، إما بالإلغاء كالأوقاف، أو بالهيمنة والوصاية على التكوين المؤسسي كالجمعيات أو بالإلحاق كالجامعات والأزهر.

ومع ذلك فقد صارت المؤسسات الدينية إما تابعة للدولة كالمساجد التي اتبعت جميعها لإدارة الدولة على مدى السنوات العشرين الماضية بصفة خاصة أو الحقت بالدولة مثل الأزهر والمعاهد الدينية وكذلك الطرق الصوفية. وصارت التغيرات الفكرية في هذا المجال تجري في إطار التعبير عن سياسات الدولة. وصارت الدولة وأجهزتها الأخرى هي من يمد المؤسسات الدينية بالرؤية الخاصة بالواقع الاجتماعي أو السياسي، وهي الرؤية التي يتعامل معها فقه الأحكام وتصدر بها التفسيرات.

ولذلك فإن الفكر الديني غير المعبر عن سياسات الدولة، صارت له منابره الأهلية البعيدة عن هذه السيطرة، وذلك في حركة المجتمع الفكرية والثقافية والسياسية الاجتماعية غير المتمأسسة، وهي بتلقائياتها وزخمها صارت الأبعد أثرًا وأنفذ إلى قلوب الناس وتشكلاتهم الدينية في المجال الوجداني أو الفكري الثقافي. وكل ذلك يستقي من البنية التحتية التي سبق أن أشرت إليها، ومن الرؤى الواقعية السياسية والاجتماعية للحركة التلقائية للأهالي ولمفكريهم وذوي الأثر فيهم. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الكبار يضحكون أيضًا

أنيس منصور

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٧٩٠ صفحة



ليس الهدف الوحيد من هذا الكتاب أن تضحك، وإن كنت ستضحك فعلاً، على الكبار ومعهم.

وإنما ثمة أهداف أخرى مضمرة، أن ترى عالم هؤلاء على طبيعته، فتعرف أن العقاد ليس جهمًا طوال الوقت، وأن أم كلثوم بنت نكتة، وأن طه حسين خفيف الروح رائق البصيرة، وأن كثيراً من الزعماء السياسيين في مصر والعالم، يتوقون إلى ابتسامة يروحون بها عن أنفسهم وسط انشغالاتهم بالكون ومصيره.

وأن كثيراً من الكبار بارعون في إلقاء النكات، وآخرين بارعون في اختراعها، وصنف ثالث لا يزعجه أن يكون هو نفسه نكتة، أو أن تثار حوله الشائعات والأقاويل فلا يكترث، وضحك مع الضاحكين: كما كان توفيق الحكيم مثلاً، الذي طلب منه أنيس منصور أن ينصحه فقال له: النوم أرخص حاجة في الدنيا.

وقد اضطر أنيس منصور أن يعتذر للإمام أحمد ملك اليمن عن شيء أضحكه ولم يضحك الإمام، فقد سأله: كم يبلغ عدد سكان اليمن؟ فقال الإمام: ما شاء الله بين خمسة ملايين وأربعين مليونًا، فضحك ولم يضحك الإمام.

أما سبب الاعتذار فكانت جلسة في مجلس الشورى ودارت مناقشات حول عدد المصريين العاملين في الخارج وقال وزير القوى العاملة أنهم خمسة ملايين وقال وزير الداخلية أنهم مليون ونصف، وأكد الأعضاء أنهم ستة ملايين.

أما أن المصريين في الخارج يتراوح عددهم بين مليون وستة ملايين.

أي أننا بعد نصف قرن مازلنا نفكر على طريقة الإمام. وكان بين أم كلثوم والأخوين مصطفى أمين وعلي أمين ود دائم وتقدير كبير، إلا أنهما لم يكونا أصحاب ذوق في الفن والسمع، فكانت أم كلثوم إذا سألتهما عن أغنية لها حدثاها عن أشياء لا علاقة لها بالأغنية، ووعدت أم كلثوم أصدقاءها ساخرة، أن تكتب على باب المسرح الذي تغني فيه: ممنوع دخول الصم والبكم والأخوين مصطفى أمين وعلي أمين.

وتبقى مدهشة تلك الصراعات التي تدور بين الكبار في دهاليز الصحافة كما في ساحات الجامعة.

وكيف سخر الفيلسوف الوجودي عبدالرحمن بدوي من أستاذ الاجتماع علي عبدالواحد وافي الذي كان يكره بدوي جداً ولم يكن يعرف شيئاً عن الوجودية.

وما علاقة طه حسين بالصراع بين الاثنين.

ثم سخرية العقاد من كل الوجوديين والشيوعيين واعتبارهم شواذ، واعتبار تلاميذهم والمقتنعين بأفكارهم مجرد «حمير بذيول».

وكان هذا الوصف الذي خرج به طلبة كلية الفلسفة الذين جاءوا ليسمعوا الأستاذ العقاد في ندوته الأسبوعية وهو يحدثهم عن الوجودية.

حكايات كثيرة عن ساخرين وحكماء وزعماء، مصريين وعرب وأجانب، تتقافز البسمة بين سطورها، وترسم ملامح لزمن وشخوص عاصرهم المؤلف وعاش بينهم.

لا ديمقراطية في الشورى

فريال مهنا

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة



اختلف المجتهدون، السابقون والمعاصرون، حول حدود الشورى في الإسلام، فقد ذهب أبوالأعلى المودودي إلى أنها غير ملزمة للحاكم، إن شاء أخذ بها وإن شاء لم يأخذ، وميز آخرون مثل توفيق الشاوي وفهمي هويدي بين الاستشارة والشورى، واعتبروا الأولى شأنًا خاصاً، فيما الثانية ملزمة وتعبير عن شكل لنظام سياسي أقرب للصيغة الديمقراطية كما عرفت في شكلها الغربي، لكن المؤلفة تنحاز إلى ما قال به محمد سعيد البوطي، من أن تحميله الشورى معنى الديمقراطية أشبه ببناء شاهق فوق أساس غير مستعد لاحتماله، أي أن الشورى لا تتضمن ديمقراطية، لكنها من ناحية ثانية، تشير إلى خطأ الاعتقاد بتجاهل الإسلام للحريات الفردية لحساب حقوق الجماعة.

أو أن هذه الحريات تذوب في إطارها، وتدلل بعشرات الآيات والشواهد على أن الإسلام منح الإنسان الفرد حقوقًا وحريات قصوى في إطار مسئوليته الفردية أولاً قبل مسئولياته الاجتماعية، وهو ما يوسع أفق الجدل الديمقراطي في الإسلام متجاوزًا معنى الشورى.

هذه بعض أفكار تنطلق منها المؤلفة لسجالات أوسع حول أطروحات الإسلام المستنير وإشكاليات الحرية والديمقراطية والأقليات في المجتمع المسلم وغيرها مما يقترن بالمشروع الحضاري الإسلامي.

شمس مصر تشرق من جديد

خميس البكري

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤



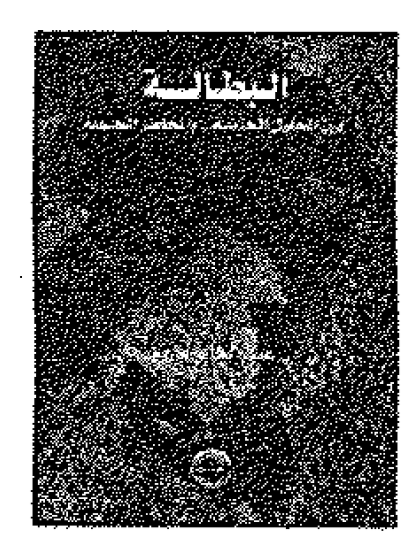
سلسلة من الحوارات تستشرف مستقبل مصر في مجالات عدة، لذا جاء المتحاور معهم من اتجاهات واهتمامات متعددة، بينهم المفكر الإسلامي رشدي فكار والعالم الجيولوجي رشدي سعيد والمفكر السياسي عبدالوهاب المسيري وعالم البيئة عبدالفتاح القصاص وعالم الوراثة أحمد مستجير والفقيه اللغوي إبراهيم مدكور والفنان التشكيلي صلاح طاهر ووزير الإسكان الأسبق حسب الله الكفراوي، ورئيسا الوزراء السابقان عبدالعزيز حجازي، وعاطف صدقي، وآخرون غيرهم في مجالات الفكر والعمل المختلفة.

ما بعد الامبراطورية

إيمانويل تود

ترجمة: محمد مستجير مصطفى

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٤، ٢٧٥ صفحة



تنبأ المؤلف في كتابه الصادر عام ١٩٦٧ بانهيار الاتحاد السوفيتي.

حمل كتابه آنذاك عنوان «السقوط النهائي.. بحث في تفكك الاتحاد السوفيتي».

وقبل ٦ سنوات أصدر كتابه «الوهم الاقتصادي.. بحث في ركود المجتمعات المتقدمة». وفي هذا الكتاب يبشر بانهيار الامبراطورية الأمريكية، حيث ستتحلل قوى هذه الامبراطورية، برغم الأداء العسكري المسرحي الذي يمد أذرعه في أطراف العالم.

والفكرة التي يبني عليها المؤلف نظريته، هي أنه ما من بلد نجح في القرن العشرين في زيادة قوته بالحروب أو بالقدرات العسكرية، وهو يدعو أمريكا أن تركز أكثر على المشكلات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات، وأن تدع حروبها الزائفة ضد ما تسميه بالإرهاب، وينبه إلى أن إصرارها على استراتيجية القوى الشاملة لن يؤدي إلا إلى كشف عجزها أمام العالم.

البطالة بين الحلول الجزئية والمخاطر المحتملة

عبدالخالق فاروق

القاهرة: المحروسة، ٢٠٠٤، ١٢٨ صفحة

(Book cover image — not detected)

شغلت قضية البطالة ومازالت المجتمع المصري حكومة وشعباً.

وهي واحدة من الانعكاسات السلبية للسياسات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مصر طوال ربع القرن الأخير، وزيادة وتيرة الخصخصة والاتجاه نحو السوق المفتوح والاندماج في السوق العالمي.

وقد اتجهت جهود عديد من المراكز البحثية الرسمية وغير الرسمية، نحو البحث عن مخرج لهذه الإشكالية الكبرى التي تهدد أمن المجتمع كله.

ولكن المحصلة جاءت فقيرة وبلا جدوى تقريباً، حتى بدت المشكلة وكأنها بلا حل.

المؤلف يقدم جهده في هذا الإطار معتمداً مدخلاً يراه صحيحاً لتشخيص المشكلة وتقدير حجمها، يتوقف عند الإطار المفاهيمي لأدوات القياس المستخدمة في هذا الإطار.

شيوخ بلا خناجر

عبدالعاطى محمد
القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٤، ٢٨٥ صفحة



تمر الحركة الإسلامية بمرحلة انتقال بين القديم والجديد، يجعلها فى انعطافة بالغة الأهمية فى مسارها الذى بدأ قبل ثلاثة أرباع القرن فى تجليها الأخير على يد الإمام حسن البنا.

والكتاب تتبع التطور الذى مرت به الحركة الإسلامية فى مصر فى ربع القرن الأخير، مع التركيز على حالة الحركة فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر، بهدف رصد أهم قضاياها وتتبع ممارساتها وفق منهج نقدى يركز على حالة الحصار التى عانتها الحركة فى فترة من تاريخها ومحاولاتها لفك هذا الحصار بالتحالف مع من كانوا أعداء بالأمس. ويناقش المراجعات الفكرية التى قامت بها الجماعة الإسلامية فى مصر فى السنوات الأخيرة، وانعكاس هذه المراجعات على الجماعة الأم (الإخوان المسلمين)، والاتجاه المتزايد نحو الوسطية، وغيرها من القضايا التى تشغل بال المتابعين لمسار الحركة الإسلامية، أو ما بات يُعرف بتيار الإسلام السياسى.

الإسلام وأوروبا تعايش أم مجابهة انجمار كارلسون

ترجمة: سمير بوتانى
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ١٩٧ صفحة



مؤلف الكتاب هو رئيس قسم التحليل والتخطيط بوزارة الخارجية السويدية، وقد كتب مقالاته كما يقول، رداً على المقولات التبسيطية التى سعت إلى استبدال الإسلام بالشيوعية، بوصفه خطراً ماثلاً يتعين مواجهته بكل السبل، إذا أُريد للحضارة الغربية المستنيرة أن تواصل إشعاعها، وقد وجدت هذه الأفكار التبسيطية فى مقولات هنتنجتون سنداً لها، أما المؤلف فهو يحلل العوامل الكامنة لتنامى الأصولية الإسلامية وتعاظم تأثيرها السياسى فى العالم حاليًا، كما يتناول فى فصلين النظام السياسى والاقتصادى فى الإسلام، ثم يحلل دور الإسلام فى دول آسيا الوسطى التى استقلت أخيراً عن الاتحاد السوفيتى، ويلقى أضواء على العوامل الدينية فى حرب البوسنة، وينتهى. على عكس ما يروج الغربيون. إلى تعاظم الظاهرة الأصولية ليس دليلاً على خطة شاملة لاجتياح الغرب تحت راية الجهاد، ويشير بوضوح إلى أن العنصرية وعدم التسامح والقومية المتزمتة التى يتعاظم تأثيرها فى أوروبا كرد فعل على الهجرة من البلاد الإسلامية، هى السبب فيما يشعر به الأوروبيون تجاه الإسلام والمسلمين.

إنه صوت عاقل فى البرية الغربية، ربما يُسمع.

وعرفت الإخوان

محمود جامع
القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة

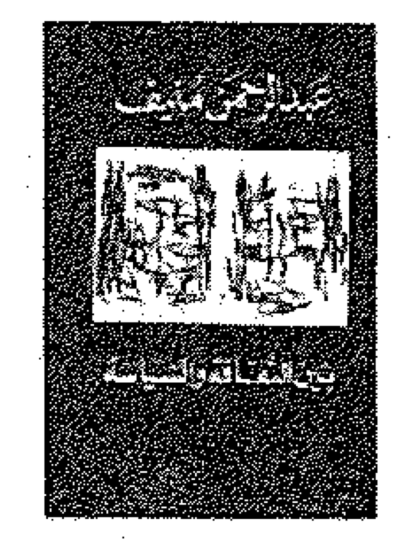


ليس الكتاب تأريخاً لمسيرة الإخوان المسلمين وإنما رؤية لمتعاطف معها كان يوماً واحداً من المنخرطين فى نشاطاتها حتى أواسط الخمسينيات، ومن ثم فهو يجمع الشخصى والعام فى آن معًا. ويناقش عديداً من القضايا والمحطات التى شهدتها تلك الجماعة التى لعبت دوراً بارزًا فى الساحة السياسية والدينية المصرية والعالمية، منذ أواخر عشرينيات القرن الماضى وحتى اليوم، يناقش المؤلف البدايات الأولى للإخوان ونشأة جهازهم السرى، واغتيال المستشار أحمد الخازندار واغتيال حكمدار القاهرة، واغتيال الإمام حسن البنا.. ودورهم فى حرب فلسطين، ثم دورهم فى ثورة يوليو ١٩٥٢ وانقلاب الثورة عليهم، ويقدم رؤيته للعلاقة بين عبدالناصر والإخوان وكذلك علاقة السادات بهم وعلاقتهم بالجماعات الإسلامية.

ثم تحت عنوان عرفت هؤلاء الدعاة يتناول علاقته بسيد قطب والشيخ عبدالحليم محمود والشيخ محمد الغزالى والشيخ سيد سابق والشيخ الشعراوى والشيخ كشك.

وبرغم انتهاء العلاقة العضوية بين المؤلف والإخوان المسلمين فى ١٩٥٤، إلا أنه مازال يرى أن دعوة الإخوان هى الأصلح لقيادة المنطقة، بل والعالم.

المثقف ضحية الإعلام ومرهون بمزاج السياسى



نهاية مؤسفة. ومنطقية أيضًا. لمثقف مغترب، تلك التى آل إليها الروائى الراحل عبد الرحمن منيف، فبعد شتات فى عدة عواصم أوروبية وعربية، دُفن الأديب الكبير فى «دمشق» بدلاً من وطنه الأم «السعودية»، ممثلاً لآلاف من المثقفين العرب الذين أجبروا على النزوح من ديارهم تحت وطأة استبداد السلطة وضيق أفقها ورفضها الصارم للاختلاف، خصوصًا فى مواجهة المناوئين للثنائية البائسة والخالدة أيضًا: العصا والجزرة.

عاش منيف حياته ممزقًا بين الثقافة والسياسة، ولا يمكن قراءته روائيًا إلا وفق هذا المنظور، واستنادًا إلى جدلية لا يغيب عنها الواقع التاريخى بتحولاته الانعطافية المهمة خصوصًا فى منطقة شبه جزيرة العرب.

ومن هنا تبدو أهمية الآراء الواردة فى هذا الكتاب، كونها تشير بجلاء لا يتخفى خلف أقنعة لشخوص متخيلين ضمن سرد روائى، إلى رؤيته لهذه العلاقة الآثمة الملتبسة بين المثقف والسياسى.

فى أزمنة الرخاء ومادام السياسى قادراً على تسخير الثقافة لخدمة عمله اليومى، ومادام المثقف راضيًا بهذه المهمة، فإن تعايشاً من نوع ما يخيم على العلاقة بينهما، أما إذا تمرد المثقف على الدور المسنود إليه، أو لم يقم. كما يجب. بوظيفة الإفتاء والتبرير، فإن شرخاً يصيب العلاقة بين الطرفين.

فإذا كانت الأزمة مما يمكن تسويته بتقديم بعض التنازلات، فإن السياسى يلجأ «تكتيكيًا» إلى التراجع قليلاً فاسحاً المجال أمام المثقف لأن يحتل موقعاً ولأن يكون شريكًا.

وهكذا يتداخلان، ليس عن قناعة بأهمية الشراكة بينهما، وإنما لضرورات فرضت منطقها وشروطها، لكن هذه الحالة، تبقى هشة ومؤقتة، أقرب إلى التواطؤ الصريح أو الضمنى، وعرضة للتقلبات ومجالاً لسوء الظن.

وغالبًا ما تنتهى بافتراق لاحق، أو بتدجين الضعيف فى هذه العلاقة، وهو المثقف والثقافة فى معظم الأحيان.

يشير منيف فى موضع آخر من الكتاب إلى أن الدولة والأحزاب بما تمتلكانه من وسائل وإمكانيات، حلا مكان المثقف كفكر وصيغة، وصادرتا دورة الفرد، واستبدلتا بالثقافة والفكر مجموعة من المقولات والشعارات، وحولتا الثقافة إلى بنية مهترئة، تداخلت. بشكل أنقص كثيراً من جدواها وفاعليتها. مع فنون الإعلام والإعلان.

وتوازى الاثنان وتشابكا. الإعلام والثقافة. إلى حد ألقى بالمثقف فى وهدة السلطة وبين أجنحتها.

وصار المثقف أمثولة فى حالة الرضا والقبول، فإذا شمله الرضا فإن كل وسائل الإعلام الحديثة مسموعة ومقروءة ومرئية تحت تصرفه، ويمكن أن يتحول بين ليلة وضحاها إلى نجم، أما إذا حصل العكس فإن التغييب والتجويع والملاحقة بداية محاولة الترويض، وإن لم تجد فالسجن والاضطهاد والإقصاء هى ما ينتظره، حماية للأمن القومى.

يضيف منيف: إن أبرز سمتين تميزان الدولة العربية فى الوقت الحاضر: القمع والرشوة، وتتضح هاتان السمتان أكثر ما يكون فى وسط الفكر والثقافة، وتطال المثقفين بشكل خاص، وقد برز هذا وتضاعف عشرات المرات بعد فورة النفط عام ١٩٧٣.

ويقول فى موضع آخر إن الإعلام فى هذه المرحلة ليس موجهاً لغسل الدماغ فقط، بل باستبعاد أى أفق مستقبلى، وما يعنى الإعلام ليس الوصول إلى الحقيقة، وإنما الدفاع عن موقف.

بعبارة موجزة، فإن إخضاع الثقافة لمقاييس الإعلام واعتبارها أداة من أدواته، يفقدها أهميتها ودورها، ويحولها إلى ثقافة سرية أو معادية، الإعلام فى المحصلة الأخيرة، انعكاس لواقع موجود بيننا، بينما مهمة الثقافة صنع واقع أفضل، والمعركة الحقيقية تجاه واقعنا السيئ وتجاه العدو المتربص، هى معركة ثقافية حضارية فى المقام الأول، وبقدر ما نتهيأ لها وفق هذا المفهوم، بقدر ما تتأكد. أو تتباعد. احتمالات النجاح فيها.

بين الثقافة والسياسة
عبد الرحمن منيف
الدار البيضاء: بيروت
المركز الثقافى العربى، المؤسسة العربية للدراسات، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة

حرب إسرائيل الإعلامية

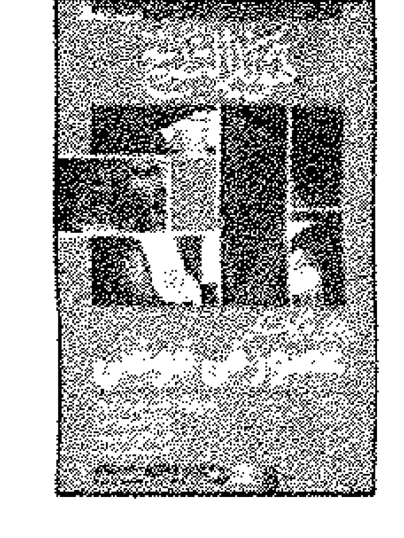
دينيس سيفير، جوس دراي
ترجمة: غازي أبوعقل
دمشق: الأهالي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٢٠٧ صفحات



لا يمكن التثبت دائماً أن ما يُمارس على الأرض، هو ذاته ما تعكسه وسائل الإعلام، هنا (في الشرق) أو هناك على الجانب الآخر، بل إن الفكرة الأقرب للصواب، هي أن البون شاسع بين الحقيقة كما هي، والوقائع كما يتم الإعلان عنها للناس، وليس أدق تعبيراً عن هذه الحالة سوى الصراع العربي الإسرائيلي وحقيقة الوجود الصهيوني الاستعماري في فلسطين المحتلة. ربما هذا هو ما جذب المؤلفين إلى محاولة فضح هذا التضليل الإعلامي المستمر، خصوصاً في الصحافة الفرنسية. والمؤلفان يحاولان فك رموز هذه القراءة الإعلامية المخادعة التي استمرت شهوراً قبل وبعد توقيع اتفاقات «أوسلو ١٩٩٣»، ثم شهوراً قبل وبعد فشل محادثات كامب ديفيد بين الفلسطينيين والإسرائيليين في يوليو ٢٠٠١، وهي حملة تضليل واسعة شارك فيها عشرات من الكتّاب والمفكرين والصحافيين بإيعاز من لوبي يهودي ضاغط، وبهدف تحميل الفلسطينيين بالكامل مغبة فشل المحادثات، وجذب الأنظار بعيداً عما يجري من انتهاكات في فلسطين، إنها حرب الإعلام التي لا تقل خطراً وأهمية عن حروب ميادين القتال، والتي يتم التلاعب فيها بالمصطلحات والدلالات، فتصبح «المقاومة» إرهاباً، والمستوطنون أصحاب حقوق، وأصحاب الأرض الأصليون «لاجئين» محرومين من العودة.

تهويد التاريخ

إيمانويل فيلكوفسكي
تحرير: أحمد الطويل
القاهرة: العروبة للدراسات والأبحاث٢٠٠٤، ٤ مجلدات



يقدم فيلكوفسكي نظرية متكاملة لتهويد التاريخ الطبيعي والسياسي.

في «عوالم في تصادم»، يتحرك مذنب تكون بشكل ما في منظومة كوكب المشتري ويصطدم بالأرض والمريخ، ويترتب على هذه الكارثة الكونية اضطراب مسار كوكب الأرض، وتغير الأرض طبيعة دورانها مما ينتج عنه تيه اليهود في الصحراء، وتؤدي الكارثة إلى انشقاق البحر الأحمر، وينتهز موسى والإسرائيليون الفرصة ويعبرون البحر فراراً من فرعون، وتتوقف الأرض عن الدوران بأمر من يشوع بن نون.

وعندما اعترض العلماء على هذه النظرية.

قدم فيلكوفسكي في كتاب «الأرض في اضطراب» بحثاً عن الأدلة الجيولوجية التي تؤكد صحة نظريته.

تهويد التاريخ الطبيعي للعالم، هو مدخل المؤلف لتهويد التاريخ السياسي لمصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم، وبعد أن يحول الروايات اليهودية إلى أحداث تاريخية، يختلق تاريخاً جديداً، ويعيد ترتيب القوائم الزمنية للتاريخ القديم مختصراً ستة قرون من التاريخ المصري بوصفها من أخطاء التاريخ.

وهكذا يصبح الملك شاؤول هو محرر مصر من الهكسوس وليس أحمس، وحتشبسوت هي ملكة سبأ التوراتية المنبهرة بحضارة أورشليم، وتحتمس الثالث ليس سوى لص نهب كنوز الثقافة والفن الإسرائيلي.

ويشير المترجمون إلى أن التيار الذي يمثله فيلكوفسكي لم يتوقف بعد موته، بل إن أشياعه وتلاميذه استمروا في تطوير نظريته، وهم يصدرون مجلة ربع سنوية منذ عشر سنوات تحمل اسم «الفيلكوفسكية».

لهذا كله يرى المترجمون أهمية عرض أفكاره وإخضاعها لمعايير النقد العلمي والسياسي.

معجزة الهرم الأكبر

زاهي حواس
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٤، ١٨٠ صفحة



تمثل أهرامات الجيزة واحدة من معجزات الدنيا على مر العصور، ويمثل الهرم الأكبر بالذات معجزة فريدة من حيث أسلوب بنائه وعمارته ونسبه الهندسية الدقيقة، وهو ما دفع حضارات عديدة إلى محاكاته أو إلى ادعاء أنها ساهمت في بنائه.

المؤلف وهو عالم أثري يعد من أشهر الأثريين في العالم يتناول هذه المعجزة الماثلة، ويقدم معلومات جديدة حول هرم خوفو للمرة الأولى، فهو يتحدث عن تاريخ خوفو ويحلل كتابات المؤرخين عنه وعن عناصره المعمارية، ويكشف كثيراً من الغموض الذي أحاط بالممرات والحجرات الموجودة داخل الهرم، وما أثير من نقاش حول اكتشاف مراكب الشمس ووظيفتها، وحقائق حول المهووسين بالأهرامات في العالم كله.

هموم اقتصادية مصرية

إبراهيم العيسوي
القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٤، ٢٧٢ صفحة



بعد مرور عشر سنوات على ما بات يُعرف ببرنامج الإصلاح الاقتصادي في مصر، فإن الأزمة مازالت قائمة، بل إنها استفحلت في السنوات الثلاث الأخيرة، واشتدت وطأتها على الناس بصورة كبيرة. والمؤلف من منطلق فكري وسياسي مغاير، يطرح تصوراته لتجاوز الأزمة، التي يراها في الأساس أزمة تنمية وليست مجرد أزمة سيولة أو ركود أو تحولات في الاقتصاد العالمي كما تحاول أن تصورها المعالجات الحكومية في استنساخها للنماذج الليبرالية للإصلاح الاقتصاد. وبديلاً عن هذه النماذج، يطرح المؤلف نموذجاً للتنمية المستقلة، يعالج. أو يسعى إلى علاج. الاختلالات الهيكلية في الاقتصاد المصري.

ويعيد قراءة أزمته بمدخلات واستنباطات مختلفة عن دور الدولة والقطاع العام وتحرير التجارة وحماية الاقتصاد الوطني في زمن العولمة، والبطالة والاستثمار ونقص المدخرات.

سيد درويش (جزءان)

إعداد: إيزيس فتح الله ـ محمود كامل ـ حسن درويش
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣



يمثل هذا الكتاب الإصدار الثالث في المشروع القومي للحفاظ على تراث الموسيقى العربية، وهو يأتي ضمن موسوعة الأعلام التي صدر منها حتى الآن أم كلثوم وسلامة حجازي.

ويضم تفاصيل إنتاج سيد درويش الغنائية وتبويبها وفقاً للقالب الخاص بكل منها، موضحاً بها مطلع الأغنية واسم المؤلف والمؤدي والمقام وتاريخ الإنتاج، واستعراضاً للنصوص التي لحنها من أوبريتات ومسرحيات وطقاطيق وأناشيد وأغنيات، فضلاً عن مدونات موسيقية لتلك الأعمال ليستفيد منها المتخصصون.

وسيد درويش الذي عُرف بلقب فنان الشعب، ولد بالإسكندرية في مارس ١٨٩٢ وعاش حياة قصيرة، إذ توفي في سبتمبر ١٩٢٣، إلا أن حياته كانت رحلة من الكفاح المستمر، على المستوى الشخصي ضد الفقر والجهل والعوز، على المستوى الوطني ضد المحتل الإنجليزي، الذي أنشد سيد درويش في مواجهته عشرات الألحان التي رددها المصريون في سنوات المقاومة، وربما كان أشهرها نشيد بلادي وهو النشيد الوطني المصري، والكتاب يعرض بصورة مختصرة لسيرة سيد درويش، الذي يمكن اعتبار موسيقاه فاصلاً بين عهدين في التأريخ للموسيقى العربية.

بين الأدب والسياسة

علي الراعي
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٤، ٣٥٧ صفحة



يتضمن هذا الكتاب مجموعة من المقالات والدراسات التي كتبها الناقد الراحل الدكتور علي الراعي قدمت لها ابنته، وهي دراسات لا تتوقف عند المتابعات النقدية التي كانت الشاغل الأساسي للناقد الكبير، وعبرها قدّم عشرات من الأسماء الجديدة التي صارت الآن تحتل مكانتها اللائقة في المشهد الثقافي العربي، وإنما أيضاً كتابات تحمل رؤاه السياسية الجادة الملتزمة، وأفكاره التي دافع عنها طوال حياته وظل ممسكاً بها كالقابض على الجمر.

في السياسة مثلاً مقالات عن عبد الناصر وثورة يوليو، البلطجي الأمريكي، نكون أو لا نكون، حكايات من العهد الملكي، قاهرة الأربعينيات، درس الخوميني، أما في الأدب والمسرح فيكتب عن ألفريد فرج وفتحي رضوان وفاروق عبد القادر ومحمد عودة ولطيفة الزيات وآخرين.

عصر التشهير بالعرب والمسلمين

جلال أمين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ١٤٠ صفحة



كما انطلقت القاذفات تضرب بلاد العرب والمسلمين (فى أفغانستان والعراق) عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

انطلقت حملات التشويه والتشهير لتصم العرب والمسلمين، بكل نقيصة، فهم إرهابيون متخلفون مستبدون معادون للمرأة وللحضارة الإنسانية.

ويجزم المؤلف، أن لا صلة أكيدة بين هذه الحملات والهدف من ورائها، فالهدف هو مزيد من إحكام السيطرة على مقدرات المنطقة، ومضاعفة أرباح الدول الاستعمارية وشركاتها العابرة للقارات.

ولا بأس فى سبيل تحقيق هذه الأهداف من ادعاء فقدان دول المنطقة للديمقراطية ولنظم سياسية رشيدة تقبل بالحريات وتحترم حقوق الإنسان، أو الحديث المتكرر عن امتهان المرأة واستبعادها من الحياة السياسية.

المؤلف يتناول هذه الحملات الظالمة، ويحلل أهدافها ويكشف عن وسائلها فى السياسة والإعلام والتعليم وغيرها، من خلال ١٠ دراسات تبحث جميعها فى الإطار ذاته.

■

ملامح القرن الجديد

هدايت عبدالنبى

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٤، ١٤٤ صفحة



حوارات أجرتها المؤلفة مع عدد من الشخصيات العالمية البارزة التى صاغت بأفكارها وفعاليتها النشطة ملامح القرن الجديد.

بينها حوارات مع مارى روبنسون مفوضة حقوق الإنسان فى الفترة من ١٩٩٨ إلى ٢٠٠٢، حديث مع مايك مور مدير عام منظمة التجارة العالمية ١٩٩٩ - ٢٠٠٢.

لقاء مع سيرجيو بأنرفيردوجو رئيس الاتحاد البرلمانى الدولى.

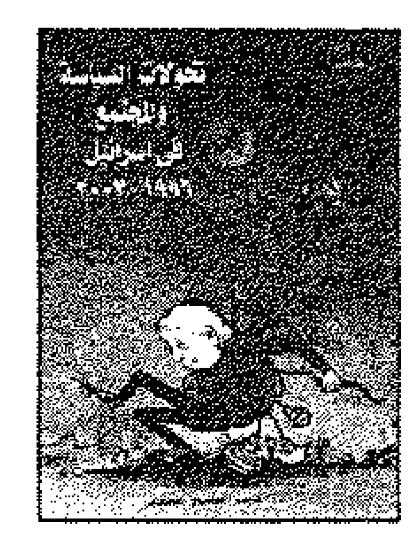
ولقاءات أخرى تتناول قضايا مهمة عن الأسرى والمفقودين الكويتيين، والإنسان والفن، وفاعلية الأمم المتحدة، وما بقى من القومية العربية.

■

تحولات السياسة والمجتمع فى إسرائيل

عبدالعليم محمد

القاهرة: المحروسة للنشر، ٢٠٠٤، ١١١ صفحة



يعالج المؤلف تطور السياسة الإسرائيلية إزاء القضية الفلسطينية منذ عام ١٩٩٦ وحتى اليوم، وبالذات منذ صعود نتنياهو إلى الحكم فى إسرائيل فى أعقاب الانتخابات التى تلت اغتيال اسحق رابين، أى أنها تتناول فترة تتميز بعدم الاستقرار السياسى، والتقلب بين خيار التسوية وخيار فرض الأمر الواقع.

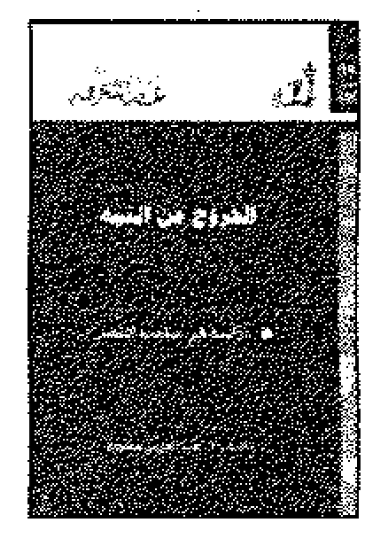
والمؤلف إزاء تلك المراوحات يسعى لتقديم تفسيرات تستند إلى فهم عميق للمجتمع الإسرائيلى من ناحية، ومتابعة المستجدات الإقليمية والدولية وتأثيرها على المجتمع الإسرائيلى من ناحية ثانية.

■

الخروج من التيه

عبدالعزيز حمودة

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٣، ٣٨٠ صفحة



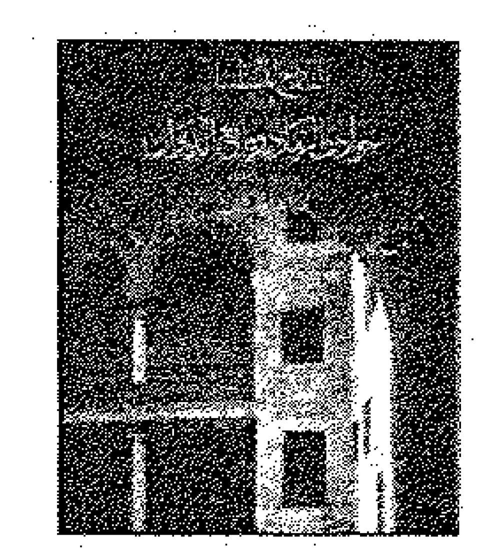
بعد كتابه «المرايا المقعرة» الذى حاول فيه المؤلف وضع أسس لنظرية نقدية عربية بديلة، فى مواجهة نظريات ما بعد الحداثة التى جاءت بها علينا المدارس النقدية الغربية.

يأتى هذا الكتاب الذى يتابع المحاولة السابقة بالعودة إلى النص وتأكيد سلطته.

على أساس أن تأكيد سلطة النص هى محور أى عملية تحديث للعقل العربى، بعد أن تاه النص فى خضم ثقافة مهيمنة أفرزها نظام دولى جديد يسعى لابتلاع الثقافة القومية.

■

اكتشاف أول مخطوطة عن برلمان الحملة الفرنسية



بالصدفة تم اكتشاف هذا المخطوط فى فرنسا، إذ كانت إحدى السيدات تنوى بيع منزلها، وجال بخاطرها أن تفرز محتويات مخزنه الذى لم تقترب منه منذ أن اشترت المنزل، وأثناء عملية الفرز عثرت على المخطوطة المكتوبة بلغة عربية قديمة نسبياً يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر، كانت المخطوطة فى حالة رثة، وقد تآكلت أطرافها بفعل الزمن، وبفعل الفئران التى أتت على بعض صفحاتها.

المهم أن المخطوطة وصلت فى نهاية المطاف إلى «أندريه ريمون» الباحث المشهور بدراساته المعمقة عن تاريخ القاهرة، والذى شغل منصب مدير المركز الفرنسى فى دمشق، والذى بدأ التعاون مع الدكتور محمد عفيفى أستاذ التاريخ المتخصص فى تلك المرحلة فى تحقيق المخطوط بعد ٢٠٠ سنة من مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر، وكانت مفاجأة أن المخطوط يتناول وقائع الديوان الثالث الذى أنشأه الجنرال «مينو»، أو عبدالله مينو كما لقبه المصريون، وهو ثالث قواد الحملة الفرنسية على مصر، وهو «البرلمان» الذى تولى تسيير أمور الدولة.

وميزة هذا المخطوط، أنها المرة الأولى التى يعثر فيها على النص الأصلى لوقائع ما دار فى الديوان، وقد استفاد «الجبرتى» مما كتبه الخشاب، كما استفاد مما كتب السابقون عليه عن ديوانى بونابرت وكليبر.

وهذا الديوان ليس فقط جزءاً من تاريخ مصر، وإنما كذلك من تاريخ فرنسا، ويشير عفيفى إلى عدة مزايا للمخطوط، أولها أن الديوان يمثل مراجعة لكتابات الجبرتى، فبرغم أن الجبرتى نفسه يذكر كراريس الخشاب التى استفاد منها، إلا أنه فى معظم ما كتب، بقى متحيزاً للطبقة الوسطى المثقفة التى ينتمى إليها، متجاهلاً الكثير مما ذكره الخشاب، ويلاحظ عفيفى أن ذكر الجبرتى لم يرد فى وقائع الديوان برغم أنه كان أحد أعضائه إلا مرتين فى واقعتين تتعلقان بأملاكه، وبقى على حالة الحذر التى لازمته، لا يتدخل فى الديوان كى يبقى على علاقة وطيدة برجالات الديوان والحملة معاً، وقد أضير معظم المشايخ الذين شاركوا فى الديوان وانقلب عليهم الفرنسيون أما الجبرتى فلم يمسسه شىء.

من ناحية ثانية، فإن الديوان بوقائعه يمثل أول جدل بين عقلية العلماء والعقلية الفرنسية، وعديد من مناقشاته بدت سابقة لأوانها، كالنقاش حول فكرتى الشريعة والقانون، أو المقاومة السلبية، كما يشير الديوان إلى ظهور مفاهيم سياسية جديدة فى الفكر السياسى العربى عبر هذا الجدل.

وتشير وقائع الديوان إلى إشكاليات التواصل بين الشرق والغرب، والتى مازلنا نعانى منها حتى اليوم، وفى هذا الوقت كانت اللغة عائقاً أساسياً، إذ كانت الترجمة بين القادة الفرنسيين والعلماء المصريين يتولاها مترجم شامى، وكثير مما نقله أدى إلى سوء فهم وأحياناً سوء تفاهم، وتؤكد الوقائع التى كتبها الخشاب أن الفرنسيين تنبأوا بأن مصر ستصبح مطمعاً للمستعمرين، وهو ما جرى تماماً بعد ذلك، منذ مجىء الحملة سنة ١٧٩٨ وحتى رحيل الإنجليز فى ١٩٥٤ والوقائع تؤكد أيضاً أن المصريين عرفوا شكلاً ما من الشورى أو البرلمان المصغر قبيل مجىء الحملة، وليس كما قال لويس عوض أنهم هم الذين عرّفوا المصريين بهذا الشكل من أشكال الحكم، كما يكشف الديوان عن الأسلوب الذى اتبعه العلماء فى مواجهة الحملة، والخطاب الذى اعتمدوه فى مواجهتهم، والذى قام أساساً على قدر من التحايل والنفاق المشروع كى تتحقق الأهداف.

أخيراً، فإن اكتشاف هذا المخطوط بالصدفة، يبعث الأمل ليس فى مزيد من الصدف التى تعيد كتابة تاريخنا، وإنما فى اكتشافات أخرى يضطلع بها باحثون مصريون متخصصون، ينقبون عن الوثائق الضائعة داخل مصر وخارجها.

حوادث الزمان ووقائع الديوان لإسماعيل الخشاب

تحقيق/ محمد عفيفى وأندريه ريمون

القاهرة/ المعهد العلمى للآثار الشرقية، ٢٠٠٤

عماد الغزالى

الفاطمية.. دولة التفاريح والتباريح

جمال بدوي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ١٥١ صفحة



تتميز المناسبات الدينية عند المصريين بمظاهر احتفالية خاصة، وترتبط كل مناسبة بنوع معين من الطعام والحلوى كالقطايف والكنافة، وطبق عاشوراء. فضلاً عن مواكب وأناشيد الاحتفال.

والمصريون يمارسون ذلك كله وأكثرهم لا يعرف أن هذه المظاهر هى ابتكارات أصيلة للدولة الفاطمية التى وفدت إليهم من المغرب العربى بمذهبها الشيعى.

وفى سعيها لنشر المذهب بين المصريين وهم سنة فى أغلبهم، أقامت لهم الجامع الأزهر، وكى تحببهم فى المناسبات ذات الصلة بآل البيت اخترعت لهم صنوفاً من الحلوى وأطايب الطعام، مثل طبق عاشوراء الذى يؤكل فى ذكرى مقتل الإمام الحسين فى كربلاء.

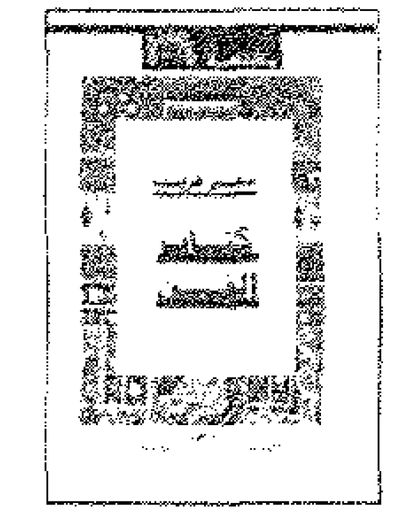
إلا أن المصريين استمتعوا بالطعام والحلوى وظلوا على مذهبهم السنى كما أن الأزهر تحول بمرور الزمن إلى مرجعية سنية ومدافع أصيل عن الوسطية الإسلامية.

والكتاب لا يقدم تاريخاً للدولة الفاطمية، لكنه يتوقف عند محطات بعينها، تشير إلى السياسة التى اتبعها الفاطميون وطريقتهم فى إدارة الدولة.

كتاب الفــن

سمير غريب

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ٤٦٠ صفحة



يجمع الكتاب دراسات فى الفن والنقد التشكيلى كتبها المؤلف فى الفترة من أواخر السبعينيات وحتى عام ٢٠٠٢، استكمالاً لما ضمنه كتابيه السابقين «كتابات من زمن الحرية» و«كتابات الزمن الآخر».

والدراسات متنوعة، فهى لا تقتصر على الفنانين المصريين والعرب، كما لا تتوقف عند مدرسة فنية أو اتجاه دون آخر، فهو يتناول بالنقد معارض لآدم حنين وسونيا يونان وفاروق حسنى وطه حسين والبهجورى وحامد عبدالله ونازلى مدكور ومصطفى الرزاز وفرغلى عبدالحفيظ وصالح رضا ومنير كنعان وغيرهم.

كما يتنقل بين مدارس واتجاهات الفن التشكيلى من كلاسيكية إلى تأثيرية إلى سوريالية وتجريدية، ويكتب كذلك عن فن التصوير الإسلامى والخط العربى والتشكيل الفرعونى والفن القبطى والخزفيات والأرابيسك.

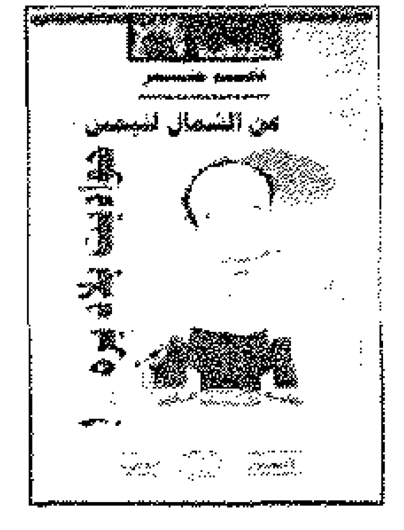
وفى الكتاب رؤية واعية لأعمال هنرى مور وفرنسيس بيكون وبولوك وشاجال وبيكاسو وهنرى ماتيس. فضلاً عن قضايا وإشكاليات تواجه الفن التشكيلى على مستوى الإبداع والتلقى فى آن معاً، منها مثلاً ما يكتبه ضمن سجال دار حول سؤال كنا نظن أن إجابته حسمت منذ قرون: هل الفن حلال أم حرام.

وهو بعد استشهاد بعديد من مواقف علماء الدين المستنيرين من أمثال الإمام محمد عبده، وبعد الاستدلال بآيات وأحاديث نبوية صحيحة، ينتهى إلى أن القرآن الكريم والحديث الشريف لم يحرما الفن تصويراً ونحتاً، لكن على العكس، وجدت آيات أخرى كثيرة تحض على الإبداع والتفكير والتأمل.

من الشمال لليمين.. حواديت بلاد بره

عاصم حنفى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ١٩٧ صفحة



يمثل المؤلف حلقة فى عنقود الكتابة الساخرة التى عرفت رموزاً لها فى مصر بينهم الراحلون محمد عفيفى، جليل البندارى، ويوسف عوف..

ومن رموزها الباقين محمود السعدنى وأحمد رجب.

وهى نوعية من الكتابة تحتاج إلى مواصفات وقدرات خاصة قائمة على الملاحظة والاستنتاج واختيار القالب الساخر لقضية قد تكون بالغة الجدة.

وفى هذا الكتاب يحكى المؤلف عن عديد من المشاهد والمواقف التى جرت فى زيارته لعدة مدن أوروبية فى سويسرا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا.

فيكتب عن جماعات التطرف الجنسى التى تخصصت فى خطف الأطفال وتقديمهم للشواذ من الأغنياء، وهى الشبكة التى ألقى القبض عليها فى بروكسل.

ويكتب عن حرب الاسباجيتى فى روما والحرب الضروس التى دخل فيها أغنياء العرب كى لا يأكلوا لحماً غير مذبوح على الطريقة الإسلامية: هم الذين يمارسون هناك كل الرذائل من زنى إلى قمار إلى شرب الخمر، إلا أكل اللحم على غير الطريقة الشرعية.

كما يحكى عن تجربة مدينة برن السويسرية فى مكافحة المخدرات، بإتاحتها فقط فى أماكن مخصصة لذلك، مثل الحدائق العامة المفتوحة، وهى التجربة التى قلدتها عدة مدن أوروبية.. هذه المشاهد وغيرها يتناولها المؤلف بأسلوب ساخر وعميق فى آن معاً.

سحر الكوميديا فى الفيلم المصرى

وليد سيف

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣، ٢٠٠ صفحة



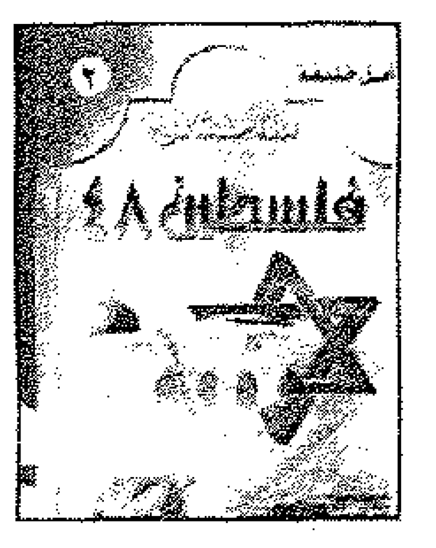
يسعى الكتاب إلى رصد تطور وتدهور اللغة السينمائية فى الأفلام الكوميدية المصرية، وهى التى تحظى بالإقبال الجماهيرى فى مصر حالياً، حتى ليكاد أن يكون الإنتاج السينمائى كله حالياً. إلا قليلاً. من هذه النوعية، كما أن نجوم هذا النوع هم الأكثر شعبية بين نجوم السينما المصريين.

يتابع المؤلف مسيرة الكوميديا منذ نجيب الريحانى وحتى المضحكين الجدد، مشيرا إلى السمات التى تميز بها كل منهم والتى ميزت الفيلم الكوميدى على مر العقود.

ماذا حدث فى فلسطين (جزءان)

أمل خليفة

الإسكندرية: دار المدائن، ٢٠٠٣

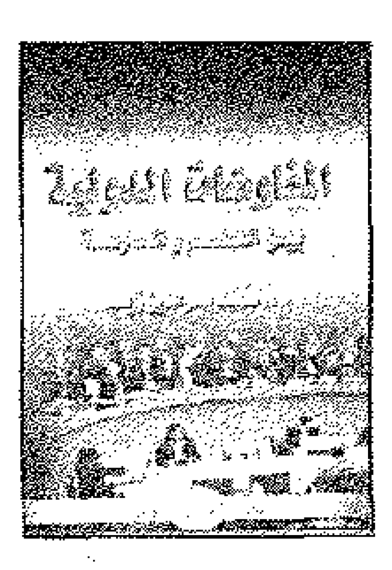


محاولة لاستعادة الذاكرة، وشحذ ذهن الأجيال الجديدة التى لا ترى على الخريطة السياسية للمنطقة ذكراً لدولة فلسطين وإنما دولة إسرائيل، وأما المدن فقد تغير اسمها وصار «الخليل» حبرون، و«أم الرشراش» إيلات، و«يافا» تل أبيب.. وهكذا، والمأساة لم تبدأ من قرار التقسيم ولا من حرب ١٩٤٨ التى لا يعرف أحد تفاصيل ما جرى فيها سوى نتيجتها المروعة، وتصحيح المفاهيم التى روج لها الصهاينة الأوائل استناداً إلى تفسيرات سياسية لما جاء فى التوراة مثل شعب الله المختار وأرض إسرائيل الموعودة.. إلخ، والأفكار الأولى لإقامة دولة لليهود فى فلسطين دون غيرها، ثم فلسطين المسلمة، ففلسطين تحت الانتداب، وصولاً إلى قرار التقسيم ومقدمات حرب ١٩٤٨، التى يبدأ منها الكتاب الثانى فى محاولة علمية لمعرفة ما جرى وفق المصادر الموثوقة المتاحة.

المفاوضات الدولية بين العلم والممارسة

محمد بدرالدين زايد

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ١٢٧ صفحة



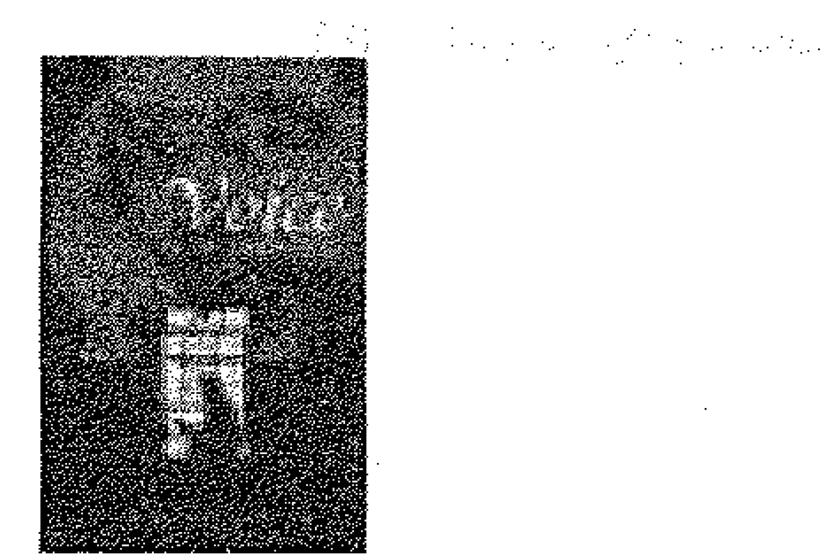
فى تقديمه للكتاب، يقول وزير الخارجية المصرية أحمد ماهر أن البشرية عرفت طريقين لحل المنازعات الفردية والجماعية، الطريقة الأولى عن طريق العنف، والطريقة الثانية بالحوار وصولاً إلى حل وسط، والمفاوضات الدولية تحتل مكانة مهمة فى الساحة الدولية، حتى إذا بدا أحياناً أن منطق العنف هو الذى يسود، وهدفها هو تحقيق هذا الحل الوسط.

والمؤلف، استناداً إلى خبرة عملية تراكمت عبر سنوات عمله الدبلوماسى، وصقلها بدراسات أكاديمية توجها بالحصول على درجة الدكتوراة فى العلاقات الدولية. يسعى عبر الكتاب إلى المزاوجة بين العلم والممارسة فى هذا المجال الحيوى المهم، دون أن يثقل على القارئ غير المتخصص بتعريفات علمية دقيقة، عارضاً لكيفية التفاوض وآليته ولغته، بدءاً من كيفية إعداد ملف التفاوض إلى بحث تأثيرات البيئة الخارجية، ويقدم فى النهاية مجموعة من النصائح لا يدعى أنها وصفة سحرية للمفاوض وإنما مجرد معالم فى طريق التفاوض، ومنها: تجنب الأحكام المطلقة، التحليل الدقيق للمشكلة، تحديد أهداف التفاوض، المعرفة العميقة بالعوامل التى تشكل السلوك التفاوضى، التحلى بالصبر والقدرة على التواصل، تركيز الانتباه لأهداف وتحركات الطرف الآخر.. إلخ.

Voice of an Exile: Reflections on Islam

(صوت من المنفى: أفكار عن الإسلام)

Nasr Abu Zaid, Esther R. Nelson
Praeger Pub, 2004, 232pp., $39.95



من المنتظر أن يصدر هذا الكتاب خلال الشهر الحالي، متضمنًا ليس فقط أفكار نصر حامد أبو زيد عن الإسلام، كما يدل العنوان، وإنما السيرة الذاتية لحياة نصر حامد أبو زيد، إذ يكتب عن طفولته في قرية «قحافة»، ووفاة والده المبكرة وعنايته بإخوته، ثم تعليمه وسفره إلى الخارج، وزيجاته، والأحداث التي أدت إلى نفيه، وحياته في المنفى طوال السبع سنوات الماضية.

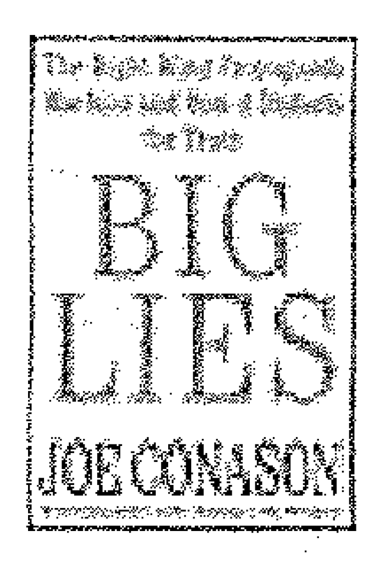
وخلال كل ذلك، يتعرض أبو زيد للتطورات السياسية المختلفة التي مرت بمصر، وللقضايا الأكاديمية التي استحوذت على اهتمامه، وأفكاره عن القرآن الكريم وتأويله وتفسيره..

يتناول أبو زيد قضايا مثل تعدد الزوجات وضرب الزوجات، والميرات والربا، ويؤكد على ضرورة فصل الدين عن الدولة لحماية الدين من ألاعيب السياسة.

Big Lies

(أكاذيب كبرى)

Joe Conason
St. Martin Press, 2004, 245PP., $ 24.95



يرد المؤلف في هذا الكتاب على العديد من المغالطات والأكاذيب التي يروج لها اليمينيون المحافظون في الولايات المتحدة الأمريكية.

سواء تلك التي يستخدمونها في الهجوم على الديمقراطيين الليبراليين أو تلك التي يتخذونها كشعارات لهم في الحملات الإنتخابية.

يتناول الكتاب عشرة من الادعاءات التي كثيرًا ما يرددها الجمهوريون المحافظون مستغلين في ذلك سيطرتهم شبه الكاملة على وسائل الإعلام ثم يتعرض لها بالنقد والتحليل ويفندها الواحدة تلو الأخرى مستعينًا بالوثائق والإحصائيات التي تثبت زيفها.

فعلى سبيل المثال يشير الكاتب إلى زعم الجمهوريين المحافظين أن مصلحة المواطن البسيط على رأس أولوياتهم، ومن أهم مشاغلهم ويدللون على ذلك بسعيهم الدائم لتخفيض الضرائب على العكس من الديمقراطيين.

ولكن الكاتب يكشف أن ٤٣٪ من تخفيضات الضرائب التي طبقها الرئيس جورج بوش عقب انتخابه استفاد منها الـ١٪ الأكثر دخلاً وثراء.

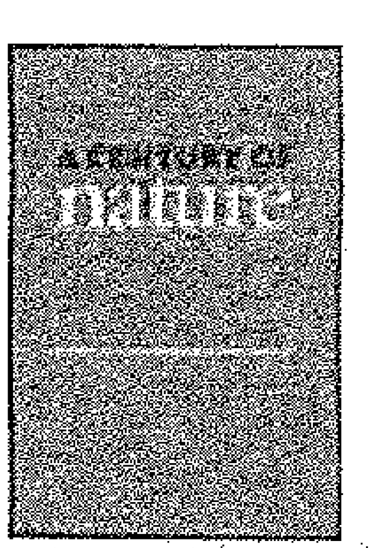
ويرى الكاتب أن تيار اليمين المحافظ كثيرًا ما يستخدم الادعاءات والأكاذيب كوسيلة لترهيب المنافسين السياسيين خاصة الديمقراطيين الليبراليين وقد تجلى ذلك بوضوح في الشهور التي سبقت الحرب على العراق حين اتهم بعض المحافظين كل من يعارض سياستهم الخارجية بأنهم «خونة» و«طابور خامس» وبأنهم لا يدعمون القوات المسلحة ويتهربون من أداء الخدمة العسكرية، ولكن المؤلف يؤكد أن الديمقراطيين ليسوا أقل وطنية من غيرهم بدليل أنه في الدورة الـ١٠٧ لمجلس الشيوخ كان عدد الديمقراطيين الذين خدموا سابقًا في القوات المسلحة يزيد بقليل عن عدد نظرائهم من الجمهوريين.

ويعد هذا الكتاب بمثابة دفاع عن التيار الليبرالي في الولايات المتحدة بعد الهجوم العنيف الذي تعرض له في عدد من الكتب التي صدرت العام الماضي مثل كتاب «تشهير» لآن كولتر، و«انحياز» لبرنارد جولدبرج.

Century of Nature: Twenty A One Discoveries that Chaneged Science and the World

(قرن من مجلة نايتشر، واحد وعشرون اكتشافًا غيرت من مجرى العلم والعالم)

Laura Garwin & Lincoln
Chicago University Press, 2003, 288PP., $ 25.00



تفخر مجلة «نايتشر» (Nature) الأمريكية المتخصصة في العلوم بكون أكثر الاكتشافات العلمية في القرن العشرين قد نشرت لأول مرة على صفحاتها. من هذه الاكتشافات، العثور على أول حفرية تدل على صلة ما بين الإنسان والقرد عام ١٩٢٥، وتحديد أول كوكب خارج مجموعتنا الشمسية عام ١٩٩٥، والإعلان عن مولد النعجة دوللي المستنسخة عام ١٩٩٧.

ويأتي هذا الكتاب الآن ليعيد نشر واحد وعشرين مقالاً أو تقريرًا كانت بمثابة فتح جديد في أحد المجالات العلمية، ويصاحب كل مقال مقال آخر معد خصيصًا للكتاب لشرح أهمية الإسهام العلمي الذي جاء به، يضعه في السياق التاريخي والحياتي الأشمل.

تلك المقالات الشارحة يكتبها علماء مرموقون، من بينهم أربعة حائزون على جائزة نوبل.

ويقول العالم الشهير ستيفن وينبرج في تقديمه للكتاب أن المقالات المختارة من قبل محرري مجلة نايتشر تعد سجلاً مهمًا للتطور العلمي في القرن العشرين، من الانشطار النووي وثقب الأوزون إلى الجينوم والنيوترون والدنا. علامات فارقة، ترتب عليها طرق جديدة في التفكير وأثرت بعمق في المجتمع الإنساني.

The Friend

(الصـــــديق)

Alan Bray
Chicago University Press, 2003, 392pp., $40.00



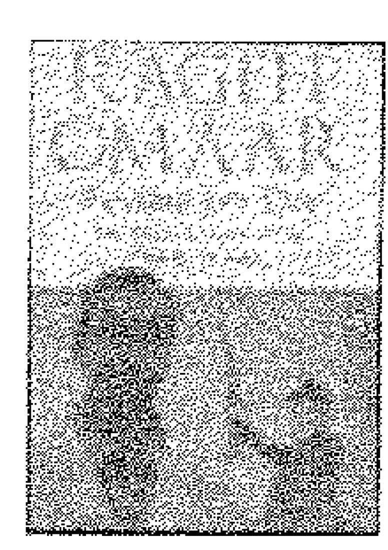
يبحث الكتاب في تطور فكرة ومعنى الصداقة بين الرجال في إنجلترا على مدى الألف عام الماضية. ويصل المؤلف إلى استنتاجاته من خلال ملاحظة شواهد القبور وما يكتب عليها، الكتابات الأدبية واللاهوتية والفلسفية الإنجليزية المختلفة. ويبين الين براي (الأستاذ الفخري في بحوث التاريخ الاجتماعي بجامعة بيركبيك بلندن والذي توفي العام الماضي فقط) كيف أن التعبير العام عن تلك العاطفة الخاصة كان أمرًا عاديًا جدًا فيما قبل العصر الحديث.

وقد وجد براي أن أخلاقيات الصداقة قد اختلفت عبر القرون، من التركيز التقليدي على قيمة الإخلاص والولاء، إلى فكرة الخلق القويم المتأثرة بفلسفة كانط، ثم قيمة الجنس التي تم التركيز عليها في العصر الحديث. فهو يعترض على كثير من المؤرخين المحدثين الذين يفسرون علاقات الصداقة المختلفة بين الرجال في التاريخ تفسيرًا جنسيًا بالضرورة، مؤكدًا أن الرغبات الجنسية المثلية لم تكن دائمًا ركنًا من أركان علاقة الصداقة بين الرجال.

Revolution day.. The Human Story of the Battle for Iraq

(يوم الثورة.. القصة الإنسانية لمعركة العراق)

Rageh Omaar
Viking, 250PP., £17.99



بالنسبة لملايين الأشخاص الذين كانوا يتابعون أحداث الحرب الأمريكية في العراق والتي انتهت بسقوط بغداد في ٩ أبريل الماضي، كان راجح عمر مراسل تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية «بي بي سي» هو الوجه المميز لتلك الحرب فقد اختارته نسبة كبيرة من المشاهدين خاصة في بريطانيا كأحسن مراسل حربي غطى حرب العراق.

كان عمر واحداً من ١٠٠ مراسل صحفي اختاروا البقاء في بغداد أيام ما قبل الحرب وكان الأمر أقرب إلى الجنون حسب وصف زملائهم الآخرين الذين غادروا العراق. وقد أقام هؤلاء المراسلون الشجعان الذين أصروا على البقاء بالعراق في فندق فلسطين، وبينما كان ربع مليون جندي أمريكي يتجهون إلى بغداد لم يكن هؤلاء المراسلون يعلمون ما إذا كان العراق سيستخدمهم كدروع بشرية، كما حدث في حرب الخليج الأولى أم لا.

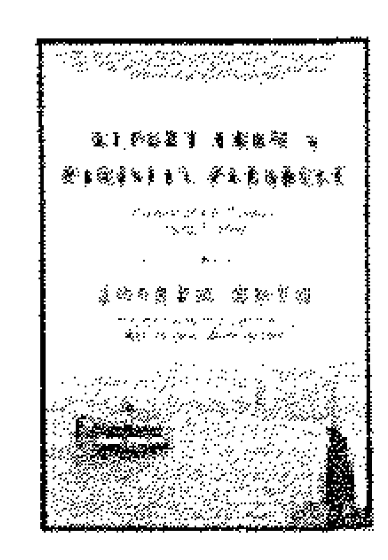
لقد أراد عمر أن يروي قصته في بغداد في هذا الكتاب وهو لم يقترب كثيراً من السياسة وأمورها الشائكة خاصة موقف الحكومة البريطانية الداعم بشدة للحرب وللموقف الأمريكي، ولذلك عندما تحدث عن أسلحة الدمار الشامل على سبيل المثال فإنه يكتفي بالقول.. حتى الآن فإن ما نعرفه هو أنه لم يتم العثور على دليل يثبت وجود تلك الأسلحة.. لكن عمر يدرك تماماً أن مسألة المفتشين الدوليين بشأن أسلحة الدمار مسألة جانبية وأن القرار بشأن الإطاحة بصدام حسين تم اتخاذه في واشنطن قبل تفجر الأزمة بوقت طويل.

وعلى عكس معظم المراسلين الغربيين، فإن عمر الصومالي الأصل يتحدث العربية ولذلك فقد كان يمضي أوقاته في مقاهي شارع الرشيد ويحاول أن يعرف العراق بعمق وليس على السطح كما يبدو الأمر في تقارير المراسلين الغربيين.

ويكتب عمر.. بدا الأمر كما لو كانت المدينة كلها (بغداد) تتجه وهي نائمة نحو الحرب. فالشعب العراقي لا حول له ولا قوة وهو محصور بين سلطة ديكتاتورية لا تهتم إطلاقًا برأيه وقوى غربية لا يعرفون عنها شيئًا.

ويتناول الكتاب تأثيرات الحصار

أمريكا فى عصر الحداثة.. والأوروبيون تجاوزوها



The Breaking of Nations.. Order and Chaos in the 21st Century

(انفراط عقد الأمم.. النظام والفوضى فى القرن الحادى والعشرين)

Robert Cooper
Atlantic Monthly Press: 180PP., $18.95

روبرت كوبر مؤلف هذا الكتاب دبلوماسى بريطانى كان من أقرب مستشارى السياسة الخارجية لرئيس الوزراء البريطانى بلير ثم عمل تحت رئاسة سولانا الممثل الأعلى للسياسة الخارجية والأمن فى الاتحاد الأوروبى.

والكتاب يمثل محاولة من جانب كوبر فى تضييق الفجوة الأيديولوجية بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى والتى ظهرت بشكل واضح خلال أزمة احتلال العراق الأخيرة.

ويبدأ كوبر، الذى يعمل حالياً مديراً عاماً للشئون السياسية والعسكرية فى المجلس الوزارى الأوروبى، بتقسيم عالم ما بعد الحرب الباردة إلى ٣ أقسام، فهناك العالم ما قبل الحديث مثل الصومال وليبريا حيث انهارت الدولة القومية وتركت الفوضى فى أعقابها.

القسم الثانى هو العالم الحديث حيث يبقى نظام الدولة الكلاسيكى هو الأساس. وفى هذه المناطق التى يطلق المؤلف عليها العالم الحديث هناك يسود نوع من السلام كما فى الخليج وشرق آسيا، إما بسبب توازن القوى أو وجود قوى خارجية كالولايات المتحدة.

القسم الثالث حسب المؤلف هو العالم ما بعد الحديث وتحت هذا التصنيف يوجد الاتحاد الأوروبى فقط، بينما تحاول اليابان الانضمام إلى هذا العالم. إن كوبر لا يؤمن بأن الاتحاد الأوروبى يمكن أن يتحول إلى دولة قومية واحدة لكنه على الأرجح سيصبح كياناً ما بعد قومى حيث تتلاشى الحدود بين السياسة الداخلية والخارجية.

إن ما سبق قد يعنى أن الاتحاد الأوروبى الذى هو حسب المؤلف فى مرحلة «ما بعد الحداثة» وليس فى مرحلة الحداثة، كما هو الأمر بالنسبة للولايات المتحدة، أعلى أخلاقيًا من أمريكا إلا أن المؤلف يعود فيقول إن الفضل يعود فيما حققه الأوروبيون إلى الولايات المتحدة فهى التى دعمت أمن أوروبا من خلال القوة المسلحة، ويقول كوبر إن الأوروبيين يحتاجون إلى العودة إلى طرق وأساليب أكثر حدة تعود لعصور سابقة من القوة والهجمات الاستباقية والخداع وكل ما هو ضرورى لمواجهة هؤلاء الذين لازالوا يعيشون فى عالم القرن التاسع عشر والذى كانت فيه كل دولة تعمل لصالحها فقط.

كما أن كوبر يرى أن أساليب السياسة القديمة التى كانت تقول إن على الدولة ألا تتدخل فى الشئون الداخلية لدولة أخرى لم تعد أيضاً صالحة لعالم ما بعد الحداثة.

ويرى المؤلف أيضاً أن سيطرة دولة واحدة على العالم ربما تكون مهمة أكبر حتى من قدرات الولايات المتحدة ويستطرد محذراً أن فكرة وجود دولة لا يمكن محاسبتها لا يمكن الموافقة عليها وهو يدعو الولايات المتحدة إلى أن تحصل على الشرعية لأى عمل تقوم به من خلال الأمم المتحدة.

وفى الوقت الذى يتعين فيه على الأمريكيين أن يكونوا ما بعد حداثيين قليلاً فإن على أوروبا أن تكون أقل ما بعد حداثية قليلاً عن طريق زيادة إنفاقها العسكرى أو على الأقل التنسيق بين البرامج العسكرية لدولها. ولتحقيق الهدف الطويل الأمد وهو قيام عالم تحكمه القوانين وليست القوة، فإن كوبر يخلص إلى أننا نحتاج إلى كل من القوة العسكرية وشرعية العمل المتعدد الأطراف.

إن ما سبق لا يمكن رفضه لكن السؤال هو هل ذلك يمكن تحقيقه؟ فى عديد من المجالات تكون الإجابة بنعم، فالولايات المتحدة تحتاج إلى الانصياع تحت مظلة العمل الجماعى عندما يتعلق الأمر مثلاً بقواعد منظمة التجارة العالمية بينما يحتاج الأوروبيون إلى استخدام القوة عندما يتعلق الأمر بوقف التطهير العرقى، كما حدث فى البلقان.. لكن المشكلة تأتى من حالات صعبة قد لا يتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

ماكس بوث
باحث فى مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى. هيرالد تربيون

الغربى على العراق وخاصة على الأطفال ويتحدث عن النقص الشديد فى الأجهزة الطبية..

وعن فقر الحياة الثقافية والعلمية فى العراق نتيجة هجرة العقول فراراً من بطش صدام.

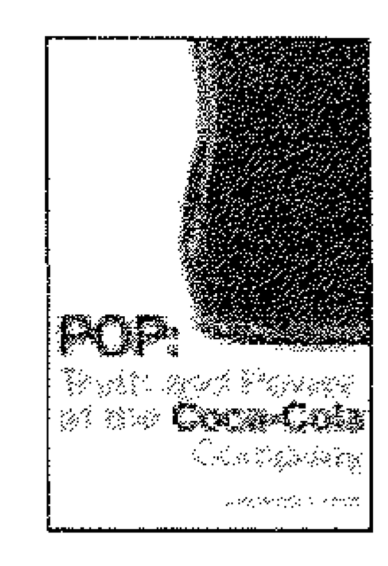
وعن البطالة الواسعة النطاق التى تفشت ولذلك لم يكن غريباً أن يقابل مهندساً يعمل سائق سيارة أجرة ومدرساً يبيع السجائر.

▪

POP: Truth and Power at the Coca Cola Company

(حقيقة ونفوذ شركة كوكاكولا)

Constance Hays
Hutchinson, 398PP., £18.99



هناك نكتة شهيرة تقول إن الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان كان نائماً فى الليل عندما اتصل به أحد مساعديه قائلا:

إن الروس هبطوا على سطح القمر فنهره ريجان قائلا:

عد إلى نومك مرة أخرى لكن بعد ساعة اتصل هذا المساعد مرة أخرى ليقول له سيدى الرئيس. لقد لون الروس نصف سطح القمر باللون الأحمر لكن ريجان لم يكترث ثم اتصل المساعد مرة ثالثة ليقول:

الروس أكملوا تلوين سطح القمر باللون الأحمر فرد ريجان هذه المرة قائلاً: إذن ارسل أحد الأشخاص إلى القمر ومعه لون أبيض حتى يكتب على سطح القمر كوكاكولا.

إن هذه النكتة السابقة تظهر كيف ارتبط اسم كوكاكولا بأمريكا.. إنها ليست مجرد مشروب لكنها أقرب إلى نموذج حياة.

وفى هذا الكتاب يروى كونستانس هايس كيف صعدت شركة كوكاكولا إلى القمة من أصل متواضع للغاية لكنها تعرضت لمشاكل كثيرة فى عقد التسعينيات من القرن الماضى.

يأخذ المؤلف حيزاً كبيراً من الكتاب فى الحديث عن نشأة الشركة وكيف أن أحد الصيادلة الأمريكيين ويدعى جون بمبرتون ابتكر تركيبة صودا معينة لمشروب عام ١٨٨٦ ثم باع التركيبة لبائع نشيط يدعى أسا كاندلر.

ويحلول عام ١٨٩٥ كان المشروب يباع فى كل أمريكا.

لكن المحاميين بنجامين فرانكلين توما وجوزيف وايتهيد هما من ابتكرا اسم كوكاكولا وحصلا على امتياز البيع من كاندلر.

ثم تطورت كوكاكولا لتصبح السلاح السرى للولايات المتحدة فى العالم خاصة فى عصر الحرب الباردة. وكان من العلامات المميزة للأسلوب الأمريكى فى الحياة إضافة إلى الجينز والوجبات السريعة.

▪

Orwell: The Life

(أورويل.. حياة)

DJ Taylor
Vintage, 2004, £ 8. 99

كانت رغبة الأديب البريطانى الراحل جورج أورويل التى عبر عنها مراراً هى أن يبتعد كتاب السير الذاتية عنه وألا يعيروه اهتمامهم.

لكن هؤلاء الكتاب للأسف لم ينفذوا وصية أورويل وتتالت الكتب التى تتحدث عن حياة هذا الأديب والكاتب المتميز. وخلال نصف القرن الماضى الذى تلى وفاة أورويل كتب مؤلفون كثيرون عن أورويل. ومن أحدث هذه الكتب ما قدمه المؤلف البريطانى دى جى تايلور بعنوان «أورويل.. حياة»، وفيها يرى أن أورويل واسمه الحقيقى أريك بلير عمل بشكل جاد من أجل أن يقدم للعالم شخصية مستقلة التفكير هى الروائى وكاتب المقالات جورج أورويل وذلك بتصوير نفسه كشخصية بسيطة ومباشرة. إلا أن المؤلف يقول إن أورويل كان قادراً على إخفاء تعقيدات شخصيته.

ويشير المؤلف إلى أن أى سيرة ذاتية عن أورويل لابد أن تأخذ فى اعتبارها ذلك التعقيد أو التناقض فى شخصيته فهو إنسان يكره الإمبريالية، لكنه بدأ حياته العملية عضواً فى بوليس الهند الإمبريالى.

وهو رجل اليسار الذى يستخف بل يحتقر زملاءه الاشتراكيين لأنهم حسب رأيه لا يريدون أن يعترفوا بالواقع.

وهو أيضاً الرجل الذى رسم صورة عن نفسه بأنه زاهد متقشف لا يرغب فى الانغماس فى هذا العالم وهى صورة تتناقض مع رغبته الداخلية فى أن يكون له دور أساسى.

ويحاول تايلور أن يجمع تفاصيل وتناقضات هذه الشخصية العبقرية ويقدم للقارئ صورة يعتقد أنها تعبر عن أورويل.

▪

Report From A Parisian Paradise.. Essays From France, 1925-1939

(جنة باريس)

Joseph Roth
Translation and Introduction by Micheal Hofmann. Illustrated.
301pp., $24.95. w.w Norton



يعيد هذا الكتاب القارئ إلى أجواء باريس عاصمة النور والجمال والفن فى فترة لن تتكرر.

حينذاك كانت باريس محط أنظار العالم وهى فترة تمتد من عشرينيات القرن العشرين حتى عام ١٩٣٩.

أى قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية واحتلال العاصمة الفرنسية بعد ذلك على أيدى النازى.

ومؤلف هذا الكتاب صحفى ألمانى عاش فى عاصمة النور فى الفترة من ١٩٢٥ حتى ١٩٣٩ عندما توفى.

وكان يراسل صحيفة ألمانية من باريس حتى عام ١٩٣٣.

كانت كتابات جوزيف روث مليئة بالإثارة والمتعة والإعجاب بعظمة باريس التى أصبح عاشقًا لها.

وهو يقول: باريس عاصمة العالم ولابد من زيارتها. لقد كانت المدينة التى يحلم بها.

وخلال تلك السنوات الطويلة رسم المؤلف لوحة ضخمة لباريس وللمدن الفرنسية الأخرى مزج فيها الشخصى بالموضوعى.

وكان مفتاح كل تلك الموضوعات التى كتبها هو الحب لباريس.

لكنه وسط ذلك لم ينس أن يتحدث عن الطبقة السياسية الفرنسية آنذاك ورغبتها فى تجنب الصدام مع هتلر بأى ثمن حفاظا على مصالحها وحياتها الباذخة.

ولأنه يهودى فقد تحدث كثيراً عن اليهود وتوقع أن يصطدم بهم هتلر الذى تولى الحكم فى ألمانيا عام ١٩٣٣.

وعند هذا العام شعر روث أنه لم يعد قادراً على نشر ما يرسله فى ألمانيا وتحول إلى الكتابة فى صحف ألمانية فى المنفى.

وكانت كتاباته فى تلك الفترة يغلب عليها التشاؤم والنزعة المناهضة لألمانيا.

وبالطبع فإن الكتاب قد صدر بداية بالألمانية ثم ترجمه إلى الإنجليزية مايكل هوفمان.

■

Arab Mass Media: Newspapers, Radio, and Television in Arab Politics

(الإعلام العربى الجماهيرى: الصحف والراديو والتليفزيون فى السياسة العربية)

William A. Rugh
Praeger, 2004,
280 PP., $49.95

يعمل ويليام روج مؤلف هذا الكتاب رئيسًا لمنظمة الخدمات التعليمية والتدريبية الأمريكية فى الشرق الأوسط (AMIDEAST).

وهو يجيد اللغة العربية، كما عمل قبل ذلك سفيراً للولايات المتحدة فى كل من اليمن ودولة الإمارات العربية المتحدة. وهذا هو كتابه الثانى عن الإعلام العربى، بعد كتاب «الإعلام العربى: الصحافة والعملية السياسية فى العالم العربى» الذى صدر عام ١٩٨٧.

فى كتابه الجديد، يقدم روج نظرة أوسع على الإعلام العربى بما يشمله من صحافة وإذاعة وتليفزيون وقنوات فضائية، كما تختلف رؤيته عما هو شائع فى الكتابات الغربية التى ترصد وتحلل الإعلام العربى من خارج المنظمة العربية.

يسلم ويليام روج بشدة السيطرة الحكومية على الإعلام فى العالم العربى مقارنة بأوروبا والولايات المتحدة.

إلا أنه مع ذلك يؤكد على وجود قدر كبير من التنوع فى الإعلام العربى، يفوق بكثير ما يتصوره غالبية الناس فى الغرب.

ويعنى روج فى تحليله بوضع تقسيمات تاريخية مختلفة لإبراز مراحل التطور.

وهو يتخذ من عام ١٩٩٠ عاماً حاسماً فى تطور التليفزيون العربى بشكل عام.

وفى النهاية يخلص الكتاب إلى أن ظهور قنوات التليفزيون ذات الملكية الخاصة فى العالم العربى كان أمراً إيجابياً عكس التعددية والتباين فى الآراء التى تسرى فى الشارع العربى.

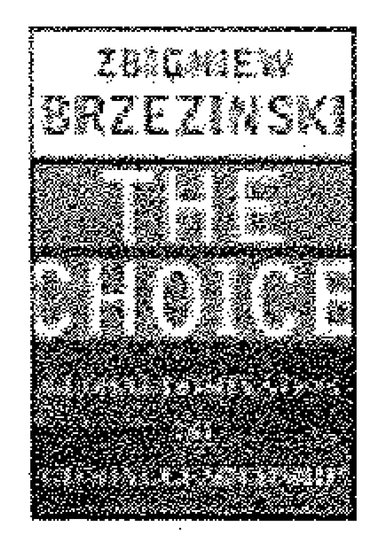
بل ويعتقد روج أن عصراً جديداً من الليبرالية الإعلامية قد بدأ بالفعل فى العالم العربى مما سوف يكون له دور إيجابى فى عملية التحول.

■

The Choice: Global Domination or Global Leadership

(الاختيار: سيادة عالمية أو قيادة عالمية)

Zbigniew Brezezinski
Basic Books, 2004, 242PP.,
$ 25.00



اتخذ المحلل السياسى المخضرم بريجنسكى موقفًا معارضًا للسياسة الخارجية التى ينتهجها الرئيس بوش منذ رد الفعل الأمريكى لهجمات سبتمبر. وقد حظيت انتقاداته باهتمام خاص لسببين.

الأول: انتماء بريجنسكى للمؤسسة السياسية بصفته مستشارا سابقا للأمن القومى الأمريكى فى عهد الرئيس كارتر،

والثانى: انتماؤه لمدرسة الصقور الأمريكية إن جاز التعبير، فهو صاحب مواقف حربية سابقة اتسمت بالشدة والصرامة فى استخدام القوة العسكرية الأمريكية، أثناء العداء مع الاتحاد السوفيتى.

لهذا ينظر لانتقادات بريجنسكى باعتبارها قائمة على حكمة سياسية وخبرة استراتيجية طويلة. وفى هذا الكتاب يدلل بريجنسكى على أن تصرفات الإدارة الأمريكية تمضى فى طريق زوال القيادة الأمريكية للعالم. فالقيادة السياسية والاقتصادية فى زمن العولمة تتطلب شركاء وحلفاء وتبادلا للمصالح المشتركة، أما محاولة فرض الهيمنة والسيادة الأمريكية باستخدام القوة فلن تؤدى سوى إلى هدم أساس الأمن المشترك الذى صنعته أمريكا مع حلفائها فى السابق.

يعتقد بريجنسكى أن رد الفعل الأمريكى تجاه هجمات سبتمبر كان مبالغًا فيه.

كما ينتقد اتخاذ ما سمى بالإرهاب هدفًا حربيًا.

وهو يتعجب من إصرار الإدارة الأمريكية على تجاهل السياق السياسى للإرهاب، بعدم الربط بين طبيعة التورط الأمريكى فى الصراع العربى الإسرائيلى لصالح إسرائيل، وبين زيادة الكراهية والعداء ضد أمريكا.

إن بريجنسكى يدعو إلى مراعاة توازن القوى من أجل الحفاظ على الأمن والاستقرار العالمى الذى هو الضمان الحقيقى لقدرة أمريكا على قيادة العالم سياسيًا واقتصاديًا فى ظل مناخ العولمة.

■

Why We Love: The Nature and Chemistry of Romantic Love

(لماذا نحب؟ طبيعة وكيمياء الحب الرومانسى)

Helen Fisher
Henry Holt & co., 2004,320PP.,
$ 25.00

لماذا نحب؟ الإجابة فى النوريبنفرين والدوبامين، وهما مادتان كيماويتان اختبرتهما الباحثة الأنثروبولوجية هيلين فيشر بعد أن قامت بعدة مسوح على البشر والحيوانات على السواء. وجدت فيشر أن الشعور بالحب والسلوك الرومانسى، بل والحب من أول نظرة، متوطن فى الإنسان وغيره من الطيور والحيوانات الثديية، حيث يتفاعل المخ كيميائيًا محدثًا طاقة مصدرة للعاطفة والبهجة والغيرة والاستحواذ.

وضعت الباحثة أربعين شخصاً يعانى الحب فى جهاز يصور ويراقب نشاط المخ، وسجلت ما يطرأ على مخ البنى آدم عندما توضع أمامه صورة الحبيب. وهى تستخدم نتائج أبحاثها العلمية والأنثروبولوجية لتشرح بالتفصيل ما يحدث للإنسان حين يمر بخبرة الحب، ولماذا يختار شخصاً بعينه دون الآخر، وكيف يؤثر الحب الرومانسى على الغريزة الجنسية. كما تحاول بعد ذلك تقديم بعض النصائح حول كيفية الحفاظ على الشعور بالحب أطول مدة ممكنة، وكيفية التصرف حين يواجه الإنسان آلام الانفصال أو الرفض.

وفى هذا الخصوص، تحذر فيشر من استخدام العقاقير المضادة للاكتئاب مثل دواء البروتزاك الشهير.

حيث إن مثل هذه العقاقير التى تحفز السيروتونين تؤدى إلى تبلد المشاعر على المدى الطويل، مما يضعف من إمكانية الاستجابة الشعورية الطبيعية حين يأتى الشريك المثالى، حيث لن يلاحظه المريض إذا كان مستهلكًا لهذا النوع من مضادات الاكتئاب.

■

قــــــراءة ..

حـــــــديث المبـــــادرة

وأستأذن الأستاذ هيكل ابتداء في عنوان هذه الكلمات. وهو في الأصل عنوانٌ لكتاب له صدر قبل سنوات تناول فيه مبادرة السادات الشهيرة (١٩٧٧). وهي. رغم صلة غير خافية على أحد. غير تلك «المبادرة» التي تاه المثقفون والسياسيون العرب في تلافيفها منذ أن أعلنها الأمريكيون قبل أسابيع لصياغة «شرق أوسط جديد». لتنطلق إثرها موجة من «المبادرات المضادة»، لا أحد يعلمُ أين كانت. ولماذا الآن.. والآن فقط؟!

على طاولة، كان لابد لها أن تكون واسعةً بما فيه الكفاية، وضعت أمامى كومةَ المبادرات: التى أُعلنت أو تسربت، جديدها وقديمها، ما جاء منها من الغرب وما جاء أيضا من الشرق. وما جاء بعد ذلك. وليس قبله. من الداخل: رسمياً أو غير ذلك. موصوفًا «بالشرعية» أو موصوماً بغيرها. والتى انهمرت بنودُها ونصوصُها فجأة على منطقتنا، أو تفجرت. على غير موعد. من وديانها وصحراواتها التى بدا لعقود أنها أجدبت أو خلت من كل نبت جديد.

كانت الديباجاتُ والبنودُ كثيرةً، وكانت المقارنةُ «بين النصوص». لا النوايا. مثيرة. وإن كنتُ لا أظنها مفاجئة للكثيرين. فعدا مقولة الداخل والخارج، و«بيدنا لا بيد عمرو» لا تبدو الاختلافات «فى الكلام» كبيرة. يتساوى فى ذلك الذين طالما تحالفوا مع حكومات فى المنطقة مشكوك فى ديموقراطيتها، مع أولئك الذين جبلوا. بالتعريف والموقع. على معارضة تلك الحكومات. بل ويبقى مثيراً أن نجد ذلك كله لا يختلفُ كثيراً (نصوصاً لا نوايا) عما أصبحت الحكوماتُ ذاتها تقولُ به. فجأة. من أهمية «للإصلاح السياسى».

وإن كان التشابه. بل والتطابق. فى الشعارات واللافتات والعناوين مثيراً، يبقى موقف الأنظمة والحكومات ذاتها أكثر إثارة. إذ يستغربُ المتابعُ أولاً: حين لا يدرك طبيعةَ العائق الذى منع «من بيدهم الحل والعقد» من أن يحققوا الإصلاح الذى يتنادون إليه اليوم. ويستغرب ثانياً: أن يبادر أولئك. وبغض النظر عن شعاراتهم الجديدة. فيرفضون ابتداءً (بالاستنكار أو حتى بالاعتقال) أن يسمعوا لآخرين فى مجتمعاتهم؛ وقعوا بيانات أو أعلنوا مبادرات. وذلك تحت لافتةٍ بدت كالحةً بعد أن عرّتها رياحُ المرحلة: «من له حق الكلام».



يحتدمُ «حديثُ المبادرة». ويشتبكُ الجميع: المرتبكون، والخائفون. الذين ينحنون «لعلها عاصفة وتمضى»، والذين لا يطيقون أن يسمعوا كلاما حسنًا من أعداء الأمس. يشتبكُ الجميع، وتختلط الألفاظ والمصطلحات والدلالات والمعانى فى زعيقٍ يحسبونه حواراً. وقبل أن يذهب «الزبد»، تطلُ طائرةٌ إسرائيلية «أمريكية الصنع» على المشهد، وبدم بارد يطلقُ طيارٌ «شجاع» من مقصورة قيادته الوثيرة «الآمنة» ثلاثةَ صواريخ. لا رصاصة واحدة. على شيخ مُقعَد ساعةَ خروجه (على كرسيه المتحرك) من صلاة الفجر فى أحد مساجد غزة الصابرة، فتتناثرُ أشلاء كرسيه المتحرك مع أشلاء تسعة من المصلين. وتُلطخُ الدماءُ عباءته.. وبوابة المسجد. وتسكتُ الصواريخُ «الثلاثة» صوتَه الواهن «وتحسبونه هينا.. وهو عند الله عظيم».

وفى حين يخرج الشارعُ «كله» بتلقائية مدهشة معبراً عن موقفه المتوحد. إن فى غزة أو نواكشوط أو بغداد «المحررة». يظل المشتبكون والمرتبكون على صفحات الصحف، وفى قاعات المؤتمرات، يدورون حول الحقائق.. وحول أنفسهم.

وفى حينٍ لا يعرفُ على الأرجح الذين كانوا اعتزموا الذهاب إلى تونس خطوتهم المقبلة. نعرفُ حقيقةَ أن اغتيال ياسين ليس «نزقة غضب» كما قد يتصور البعض قانعاً بالوصف والتفسير. بل هو ركنٌ أصيل فى استراتيجية شارون المعلنة للفصل من جانب واحد أو فلنقل «غزة أولاً. وربما أخيراً».

١ - فبانسحابه من غزة يريدُ شارون. وبغض النظر عن التفصيلات المرتبطة بالأرض والسيادة... إلخ. مقاربةَ رؤية بوش «الطوباوية» شكلاً والقائلة بدولتين متجاورتين.

٢ - وباغتياله ياسين/ الرمز يريد شارون المضطرُ فعلياً للانسحاب من القطاع ذى الكثافة السكانية العالية أن يكسرَ شوكةَ حماس معنوياً. وألا يكرر خطأ باراك حين انسحب من الجنوب اللبنانى معطياً زخماً قوياً للمقاومة الإسلامية متمثلة فى حزب الله الذى اعتبر الانسحاب انتصاراً له. وهو ما لا يريد له شارون أن يتكرر فى غزة معقل حماس وميدان مقاومتهم الرئيس.

٣ - كما أنه بجريمة تجاوزَ بها الخط الأحمر يريد أن يترك غزة على صفيح ساخن قد لا تملك السلطة له تبريداً فى المدى المنظور على الأقل.

٤ - و باستهداف رجل مشلول طاعن فى السن على باب المسجد عند الفجر ويضمانه سكوتًا أمريكياً عن فعلته، يريد شارون. معنوياً. أن يعرفَ العرب الذاهبون إلى قمتهم؛ أين مكانهم فى «شرق أوسط جديد».. وأين يقف حلفاؤهم.

فى الذكرى الأولى للاجتياح الأمريكى لعاصمة عربية. وعلى باب قمة عربية مفترضة بدا المشهدُ كأنه يتلخصُ فى جملٍ ثلاث: يتباهى الأقوياءُ بقوتهم، ويتسلى الطيارون بصواريخهم، ويتلهى المرتبكون بحديث المبادرة.

ولكن على هامش المشهد. أو بالأحرى فى القلب منه. يخرجُ المتظاهرون فى كربلاء «الشيعية»، احتجاجاً على اغتيال الشيخ «السنى» فى غزة. يهتفون «لا.. لأمريكا». ولكنهم يعرفون أن الشعار لا يعنى أبداً ما يحاول البعض أن يسمعوه قسراً وعسفًا: «نعم للاستبداد والفساد». بتلقائية مدهشة يدركون «أن لا صلة». ويعلنون بوضوحٍ رفضَهم لعسف المقايضة.



رغم كل شىء، وبغض النظر عن دوافع رافضى الاصلاح: حسنى النية أو غيرهم، يبقى صحيحاً تماماً أن الاحتلال الإسرائيلى وليس «اللا ديمقراطية» هو العائق الأول أمام الاستقرار فى المنطقة، إلا أننى لا أتفق مع المتمسكين أو «المتذرعين» بالربط القسرى «إجرائياً» بين المسألتين. إذ يعلم القاصى والدانى أن الصراعَ «التاريخى» بين العرب وإسرائيل: المجدول بالأساطير والعقائد والتاريخ والجغرافيا، هو فى حقيقته صراعٌ قديمٌ ومتشعبُ الأبعاد، ولا تبدو له. فى المدى المنظور على الأقل. نهايةٌ «حاسمة». وعليه فإن تأجيلَ الحقوق والاستحقاقات انتظاراً لتلك النهاية، يُذكّرنا. مع افتراض حسن النوايا. بأولئك القانعين بالتفرغ لرصد علامات يوم القيامة. كما أن الإقرار بحقيقة أن الانبعاث الحرارى يؤدى إلى اتساع ثقب الأوزون «لو صحت» لا يعفينا أبداً من مسئولية الحفاظ بيئياً على مياه النيل وحمايته من التلوث.

كما أننى لم أفهم على كل حال ما كتبه البعض من أن المبادرة «أخلت بالتفاهم الضمنى بين الحكومات العربية والولايات المتحدة.. هذا التفاهم الذى ألزم الأمريكيين بتحقيق السلام بين العرب وإسرائيل مقابل التزام الدول العربية المختلفة بالإصلاح داخل أوطانها لتنظيم علاقة الحاكم بالمحكوم..». إذ يبقى من الطبيعى أن نفهم أن التزام الحاكم بالإصلاح الديمقراطى هو التزامٌ حيال من قُدر لهم أن يكونوا من محكوميه، وليس حيالَ أى طرف خارجى أيا كان. وعليه فإن هذا الالتزام يظل قائماً بغض النظر عن سلوك أطراف هى بحكم المنطق والتعريف القانونى ليست طرفًا فى هذه العلاقة.

لا يعنى أى من ذلك أبداً أن الولايات المتحدة الأمريكية مبرأة من القصد والهوى فى مشروعها لشرق أوسط كبير. فأصحاب البيت الأبيض لم يزعموا يوماً أنهم يديرون جمعية خيرية، بل دولة كبرى لها كما لأى دولة فى عالمِ اليوم سياسات ومصالح، وبحكم أنها الأكبر والأقوى و«المتفردة» تتشعبُ سياساتها وتمتدُ مصالحها لتشمل ربما كل بقعة فى تلك الأرض. (للولايات المتحدة اليوم قواتٌ عسكرية فى حوالى مائة دولة).

كل هذا صحيح، وربما أكثر. فالأمريكيون. وهم لا ينكرون ذلك بل يعلنونه كل صباح. يقصدون تغييراً جذرياً يهزُ. إن لم يقتلع. كل ثابت مستقر: صالحه وطالحه. بداية من ديكتاتورية الفرد وحتى نمط الحياة الأسرية.. وصولاً إلى استيعاب «الكيان» الإسرائيلى المتفوق نوعياً فى «وسط جديد» تفسحُ فيه مفاهيمُ القومية والعروبة وصلةُ الدين والدم مكانَها لقيم المصلحة والحداثة بمفهومها الغربى.

وبغض النظر عن طوباوية القصد أو مكَره، وبغض النظر عن الخطر الحقيقى الذى يتهدد قيمنا وثوابتنا، يبقى أن ليس كل ما يصفُ به الأمريكيون مجتمعاتنا ظلماً وبهتاناً. خاصةً إذا كان الحديثُ عن الديمقراطية (الحقيقية) وحقوق الإنسان.

وإنى لأستغربُ أن ينذهبَ العداءُ للسياسات الأمريكية ببعض مثقفينا إلى حد التشيع للديكتاتورية والفساد وانتهاك حقوق الإنسان نكاية فى الأمريكان. إذ كان الأولى بهم أن يدافعوا عن مفاهيم هى فى التحليل النهائى «بضاعتنا رُدّت إلينا».

أيا ماكان، فهذه ذروة المشهد.

تصادمت المبادرات، ففشل العرب فى عقد قمتهم «التونسية»، بعد أن كانوا قد حزموا أمتعتهم فعلا إليها، هاربين من الاستحقاقات، ومن «الحقائق» على الأرض.. وربما أيضاً من «حصة الإملاء»! فلا العراقيون «تحت الاحتلال» حضروا قمة، ولا «ردٌ مستحيلٌ» على اغتيال الشيخ المقعد، ولا حديثٌ صعبٌ عن الديموقراطية.. أو «المبادرة»!

لا قمة للعرب.

بعد أن قرر مضيفهم «فجأة» أن يتجنب الحرج و«أشياء أخرى»، وأن يكفيهم شر الاقتتال.. والقتال.. والمبادرة.

أيمـــن الصيـــاد